النص الكامل

الطبعة القانونية الأولى والوحيدة باللغة العربية

أغاثا كريستي

جَريمَة في ملعَب الغُولف









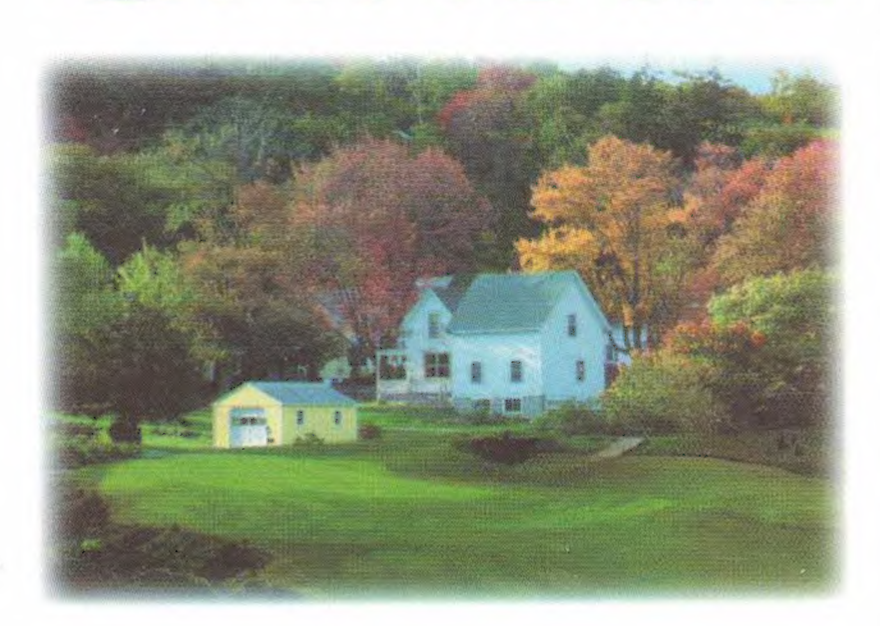
جَريمَة في ملعَب الغُولف

استدعى نداءُ استغاثة عاجلٌ هيركيول بوارو إلى فرنسا ليجد أنه وصل متأخراً. لقد طُعن المليونير الغامض الذي استدعاه ببشاعة حتى الموت، ثم طُرحت جثته في قبر مفتوح بلامبالاة.

ولكن بوارو يعرف أن الأمور ليست كما تبدو، ويبدأ بحلّ ألغاز الظروف الغريبة التي تحيط بهذه الجريمة المحيّرة. وهكذا يكتشف أن الطريق إلى معرفة هوية القاتل يقبع في ثنايا جريمة ارتُكبت قبل عشرين عاماً من الزمن!

رواية جديدة من روايات الكاتبة العملاقة التي تُعتبَر أعظم مؤلفة في التاريخ من حيثُ انتشار كتبها وعدد ما بيع منها من نسخ، وهي -بلا جدال- أشهر مَن كتب قصص الجريمة في القرن العشرين وفي سائر العصور. وقد تُرجمت رواياتها إلى معظم اللغات الحية، وقارب عدد ما طُبع منها ألفَي مليون نسخة!

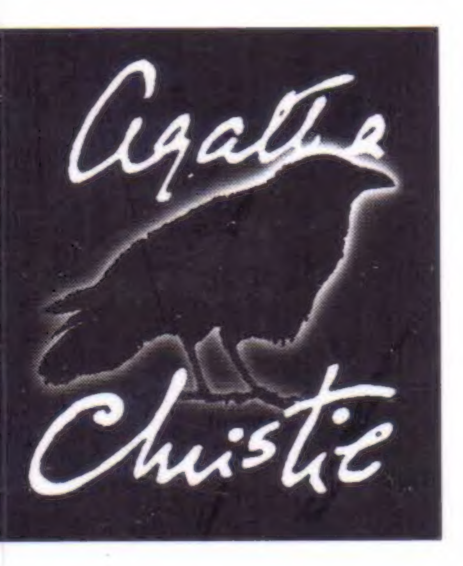
Agatha Christie



Murder on the Links

POIROT

هيركيول بوارو







رقم هذه الرواية حسب ترتيب صدور الروايات بالإنكليزية

الناشر وصاحب الحق الحصري بالطبعة العربية في جميع أنحاء العالم



الأجيَال للترجمة والنشر

AJYAL *Publishers*

ISBN 2-1957-2565-7



US $ 4.00

سعر البيع ١٥ ريالاً

أغَاثا كريستي

جَريمَة في ملعَب الغُولف

هذه هي الترجمة القانونية الوحيدة لهذا الكتاب
وهي تضم النص الكامل لرواية أغاثا كريستي
المنشورة أول مرة عام ١٩٢٣ بعنوان
Murder on the Links

Arabic edition published by AJYAL *Publishers*
e-mail: agatha@al-ajyal.com

الطبعة الخامسة

٢٠٠٦

التوزيع في المملكة العربية السعودية ودول الخليج
Pioneer House
الرياض ٤٧٩١٦٢٣ جدة ٦٧٥٠٠٥٣ الخبر ٨٩٩٥٢٣٣
دبي ٢٨٢٦٠٠٥ الكويت ٢٤٤٠٩٤٧ مسقط ٢٤٧٩٦٤١٤ البحرين ٧٢٩٣٦٢٩

أغاثا كريستي

جَريمَة في ملعَب الغُولف

طُبعت للمرّة الأولى باللغة الإنكليزية عام ١٩٢٣

ترجمة: نبيل عبد القادر البرادعي

تحرير: رمزي رامز حسّون





المؤلّفة في سطور

تُعتبَر أغاثا كريستي أعظمَ مؤلفة في التاريخ من حيث انتشار كتبها وعدد ما بيع منها من نسخ، وهي -بلا جدال- أشهر مَن كتب قصص الجريمة في القرن العشرين وفي سائر العصور. وقد تُرجمت رواياتها إلى معظم اللغات الحية، وقارب عدد ما طُبع منها بليونَيْ (ألفَيْ مليون) نسخة!

وُلدت أغاثا كريستي في بلدة توركي بجنوب إنكلترا عام ١٨٩٠، وتوفيت عام ١٩٧٦ وعمرها نحو خمسة وثمانين عاماً. لم تذهب أغاثا قطّ إلى المدرسة، بل تلقت تعليمها في البيت على يد أمها التي دفعتها إلى الكتابة وشجعتها عليها في وقت مبكر من حياتها، كما تخبرنا هي نفسها؛ فحينما كانت نزيلة فراشها تتعافى من مرض ألمّ بها سألتها أمها: "لماذا لا تكتبين قصة؟". أجابت فوراً: "لا أظن أنني قادرة على ذلك"، فقالت أمها: "بلى، تستطيعين. جرّبي وسترَين". عندئذ كتبت أغاثا أول رواية لها وعنوانها «ثلوج على الصحراء»، وهي رواية رفضها الناشرون فلم تُنشر قط. أما الرواية الثانية «القضية الغامضة في ستايلز» (التي ظهر فيها بوارو للمرة الأولى) فقد أدخلتها إلى عالم الكتابة الرحيب،

وذلك حين نُشرت -أخيراً- بعدما رفضها ستة من الناشرين!

عاشت أغاثا طفولة سعيدة، إذ كانت صغرى ثلاثة أولاد لأبٍ مرِح مُحبٍّ للحياة وأم ذكية طموحة، وقد ظلّت -حتى آخر حياتها- تذكر بيتها الذي وُلدت ونشأت فيه بكثير من الشوق والحنين. ولكن هذه السعادة لم تَدُم؛ فقد توفي والدها وهي في الحادية عشرة مخلّفاً لأسرته مشكلات مادية لم تلبث أن أدخلت أغاثا في عالم المسؤولية في ظروف صعبة.

وحينما قامت الحرب العالمية الأولى تطوعت أغاثا للعمل في أحد المستشفيات ممرّضةً تساعد جرحى الحرب. وفي هذا المستشفى عملت بتحضير الأدوية وتركيبها وتعرفت إلى السموم المختلفة، وهو الأمر الذي كانت له فائدة عظيمة في كتاباتها اللاحقة عن الجرائم.

وفي تلك الفترة، في عام ١٩١٤، تزوجت طيّاراً شاباً اسمه آرشيبالد كريستي، ولكنها انفصلت عنه عام ١٩٢٨ بعد موت والدتها بقليل. ولم تلبث أن تزوجت -مرة أخرى- عام ١٩٣٠ عالم الآثار الشهير السير ماكس مالُوانْ، وهو الذي أمضت برفقته سنوات من عمرها في المشرق (في العراق وسوريا ومصر) فجاءت أحداث عدد من رواياتها لتقع في هذه البلاد، مثل: «موت فوق النيل»، و«لقاء في بغداد»، و«جريمة في بلاد الرافدين». وحينما سافرت على متن قطار الشرق السريع خرجت بواحدة من أشهر رواياتها: «جريمة في قطار الشرق».

تحدثت أغاثا كريستي عن نفسها فقالت: "لو سُئلت عن

ميولي لأجبت بأنني أحب كل طعام جيد، وأكره الكحول وكل ما يدخل في صنعه الكحول. حاولت التدخين فوجدته بغيضاً ولم أجد ما يغريني بالتعلق به. أحب الأزهار، وأعشق البحر، وأهوى السفر ولا سيما في بلدان الشرق الأدنى. أحب المسرح وأكره الأفلام الناطقة إذ أعجز عن متابعتها، وأكره الإذاعة وضوضاءها، وأبغض المدن وازدحامها".

أما قصصها فتتميز بدقة حَبْكتها وترابط أحداثها ومنطقية تسلسلها، تغور فيها في أعماق النفوس البشرية محلِّلةً كوامنَها باحثةً عن دوافعها بعبقرية فذة وبصيرة نافذة. وهي قصص «نظيفة» بريئة من إثارة المشاعر والغرائز وليس فيها ما يُخجِل أو يَسوء. وقد حرصت على أن تقول لنا فيها دائماً: «لا بدّ أن ينتصر الخير»، و«الجريمة لا تفيد».

أشهر أبطالها هيركيول (هرقل) بوارو، والآنسة ماربل. أما بوارو فقد «وُلد» عام ١٩٢٠ في «القضية الغامضة في ستايلز»، وهي أول رواية نُشِرت لها، ثم استمرّ بالظهور في روايات لاحقة لمدة خمس وخمسين سنة حتى «قُتل» أخيراً عام ١٩٧٥ في روايتها «الستارة». وهو محقق بلجيكي وشرطي متقاعد أهمّ ما يميّزه ذكاؤه الخارق (الناتج عن «الخلايا الرمادية الصغيرة» في دماغه!) وشارباه العظيمان اللذان ليس لهما مثيل في الدنيا! وغالباً ما يرافقه في تحقيقاته صاحبه الشهير، الضابط المتقاعد، الكابتن هيستِنْغز، الذي يتميز بطبيعته الطيبة وذكائه المتواضع وحبه الكبير لبوارو.

وأما الآنسة ماربل فهي عانس عجوز ذات ذكاء بالغ وإدراك عجيب، وتتمتع بقدرة فذّة على الملاحظة والتحليل وفهمٍ عميقٍ للنفس البشرية بحيث تكشف أسرار الجرائم مستفيدةً من شبكةٍ واسعةٍ من الأصدقاء والمعارف والعلاقات الاجتماعية الناجحة.

كتبت أغاثا كريستي من روايات وقصص الجريمة سبعاً وستين رواية طويلة وعشرات من القصص القصيرة التي نُشرت في ثلاث عشرة مجموعة، وبذلك يكون عدد ما نُشر لها من الأعمال البوليسية ثمانين كتاباً. كما كتبت ستَّ روايات طويلة رومَنسية باسم مستعار هو «ماري ويستماكوت»، وست عشرة مسرحية أشهرها «مصيدة الفئران» التي تُعتبر أطول المسرحيات عرضاً في التاريخ؛ إذ ما زالت تُعرض في لندن (دون انقطاع تقريباً) منذ عام ١٩٥٢، أي لأكثر من نصف قرن!

أما سيرة حياتها التي كتبتها قبيل وفاتها فقد نُشرت بعد موتها بعام واحد، وسوف نقدّم ترجمتها إلى قرائنا (مع كتاب ذكرياتها الآخر «تعالي أخبريني كيف تعيشين» الذي نشرته عام ١٩٤٦ وسردت فيه ذكرياتها عن رحلاتها مع زوجها)، حيث ستكون هذه هي المرة الأولى التي يُترجم فيها هذان الكتابان إلى اللغة العربية.



الفصل الأول

رفيقة سفر

توجد حكاية مشهورة مفادها أن كاتباً شاباً كان عازماً على أن يجعل افتتاحية قصته قوية وفريدة إلى حدٍّ من شأنه أن يجذب ويأسر انتباه أكثر الناشرين سأماً وتبرُّماً، فقام بتسطير الجملة التالية: «قالت الدوقة: تباً!». والغريب أن حكايتي هذه تبدأ بالأسلوب ذاته إلى حدٍّ بعيد، باستثناء أن تلك التي أطلقت تلك العبارة لم تكن دوقة!

كان ذلك يوماً في أوائل شهر حزيران، وكنتُ عائداً من عملٍ قضيتُهُ في باريس، مُستقلاً قطار الصباح إلى لندن حيث ما زلتُ أسكن مع صديقي القديم هيركيول بوارو، رجل التحري البلجيكي السابق.

كان القطار السريع المتجه إلى كاليه شبه فارغ، والحقيقة أن أحداً لم يشاركني مقصورتي سوى مسافرة واحدة. كنتُ قد غادرتُ فندقي بشكل عاجل بعض الشيء، وعندما بدأ القطار سيره كنت منشغلاً بالتأكد من أنني جمعت كل أمتعتي ولم أنسَ شيئاً في الفندق. حتى ذلك الحين لم أكن قد انتبهت كثيراً لوجود رفيقة سفري، ولكنها

الآن قد شدّت انتباهي بقوةٍ لوجودها، إذ قفزت عن مقعدها، وأنزلت زجاج النافذة وأخرجت رأسها، لتعود فتدخله بعد لحظات قاذفة بتلك الكلمة المختصرة القوية: «تباً!».

أنا رجل من الطراز القديم، وأعتقد أن على النساء أن يتحلّين بالأنوثة والرقة، ولا أطيق الفتاة الحديثة صاحبة النزوات التي تقضي يومها بالرقص الصاخب من الصباح للمساء، وتدخن كأنها مِدخنة، وتستخدم ألفاظاً تخجل منها بائعات السمك في سوق بيلنغزغيت!

رفعتُ بصري عابساً قليلاً لأجد وجهاً جميلاً وقحاً تعلوه قبعة حمراء بهيجة، وخصلات من الشعر الأسود الكثيف تغطي الأذنين. قدّرتُ أنها لم تتجاوز السابعة عشرة إلاّ قليلاً. ولكن وجهها كان مغطىً بالمساحيق، وكانت شفتاها مطليتين باللون القرمزي لدرجة لا تكاد تُصدق.

لم تحرجها نظرتي أبداً، بل ردّت عليها، ولوت وجهها بشكل مُعبّر وقالت كأنها تخاطب جمهوراً وهمياً: واخجلتاه... لقد صدَمْنا السيّدَ المهذب! أعتذر عن ألفاظي؛ إنها لا تليق بفتاة مهذبة، ولكن آه، يا ربي، لديّ سبب وجيه لذلك! أتدري أنني فقدتُ أختي الوحيدة؟

قلتُ بتهذيب: حقاً؟ يا له من أمر مؤسف.

علّقت الفتاة قائلة (معرّضةً بي): إنه يستهجن... يستهجنُ تماماً، يستهجنُ وجودي، وقصة أختي. هذا منتهى الظلم؛ إذ أنه لم يرها!

فتحتُ فمي لأتكلم، ولكنها سبقتني: لا تقل المزيد.. ما من أحد يحبني! سأذهب إلى الحديقة وآكل الديدان! أوهووو. إنني محطمة!

ثم دفنت وجهها خلف صحيفة فكاهية فرنسية. وبعد لحظات رأيتُ عينيها تسترقان النظر إليّ من فوق حافة الصحيفة. ولم أستطع منع نفسي من التبسّم، وخلال لحظة قذفَتِ الصحيفة جانباً وانفجرت في نوبة ضحك عالٍ، ثم قالت: لقد عرفتُ أنك لستَ مغفلاً كما يدل مظهرك.

كان ضحكها مُعدياً إلى الحد الذي لم أتمالك نفسي معه من مشاركتها ضحكها، رغم أني لم أستسغ أبداً كلمة «مغفل».

قالت الفتاة بخبث: اسمع! نحن الآن أصدقاء! قل إنك آسفٌ بشأن أختي.

- إنني حزين لأجلها!

- أنت الآن ولد طيب!

- دعيني أكمل. كنتُ أود أن أضيف بأنني -رغم حزني لأجلها- أستطيع أن أتدبر أمري بشكل جيد في غيابها.

ثم قمتُ بانحناءة طفيفة.

ولكن هذه الشابة التي يستحيل التنبؤ بردود أفعالها عبست وهزت رأسها قائلة: كُفَّ عن ذلك. إنني أفضّل حركة «الاستهجان المترفّع» التي تجيدها تلك، على موقفك هذا. انظر الى وجهك! إنه

يقول: «ليست منا». وأنت مصيب في ذلك... مع أن التمييز أصبح صعباً جداً هذه الأيام. ليس بوسع كل امرئ أن يميز بين الدوقة ونصف الدوقة. حسناً، أعتقد أنني صدمتُك مرة أخرى! لعلّك أحد مُستحاثّات المناطق النائية... أظنك كذلك. رغم أنه لا اعتراض لي على ذلك، إذ بوسعنا أن نتحمل وجود البعض من أمثالك، إلا أنني أكره الجريء الصفيق؛ إن رؤيته تصيبني بالجنون.

وهزت رأسها بعنف.

سألتها مبتسماً: وكيف تبدين عندما تصابين بالجنون؟

- أصبح شيطانة صغيرة بكل معنى الكلمة، لا أهتم بما أقوله أو بما أفعله! لقد كدتُ أقتل شاباً ذات يوم. نعم، بالفعل. وقد كان يستحق ذلك أيضاً.

قلتُ متوسلاً: حسناً، أرجو أن لا يصيبك الجنون معي.

- لاتخف، فقد أحببتك؛ أعجبْتَني من أول لحظة وقعت فيها عيناي عليك. ولكن بدا عليك من الاستهجان ما استبعدتُ معه تماماً أن نصبح أصدقاء.

- حسناً، نحن أصدقاء الآن. أخبريني عن نفسك.

- إنني ممثلة. ولكن، لا... لستُ من النوع الذي تفكر فيه. لقد صعدتُ خشبة المسرح منذ أن كنتُ طفلة في السادسة من عمري... أطير في الهواء.

قلتُ حائراً: عفواً، ماذا قلتِ؟

- ألم يسبق لك أن رأيت أطفالاً يقومون بألعاب بهلوانية؟

- آه، فهمت!

- أنا أمريكية بالولادة، ولكنني قضيتُ معظم حياتي في إنكلترا. ولدينا الآن عرض جديد.

- لديكم؟

- نعم؛ أنا وأختي. من النوع الغنائي الراقص، مع قليل من النكات السريعة، ووصلة من عملنا القديم. إنها فكرة جديدة تماماً. الجمهور يستمتع بها في كل مرة، وستحقق دخلاً جيداً.

انحنت صديقتي الجديدة للأمام وبدأت تتحدث باسترسال، فيما كان الكثير من مفرداتها غير مفهوم أبداً بالنسبة لي. ومع ذلك فقد وجدتُ نفسي أغالب اهتماماً متعاظماً بها. بدت وكأنها مزيج غريب من طفلة وامرأة. ومع أنها كانت دنيوية النزعة تماماً، وقادرة -كما قالت- على المحافظة على نفسها، إلاّ أن شيئاً ساذجاً إلى حدٍّ غريب كان يميز موقفها أحادي النظرة تجاه الحياة، وعزمها الوطيد على «النجاح».

مررنا بمدينة إيميتز، وقد أيقظ الاسم كثيراً من الذكريات لديّ. ويبدو أن رفيقتي أحست غريزياً بما يجول في خاطري، إذ قالت: هل تفكر في الحرب؟

أومأت برأسي بالإيجاب فقالت: أحسبُ أنك خُضتَ غمارها، أليس كذلك؟

- لقد خضتُ غمارها طولاً وعرضاً، وقد جُرحتُ مرة. وبعد معركة سوم أعفوني وسرحوني نتيجة إصابتي. وأنا الآن أعمل سكرتيراً خاصاً لأحد أعضاء البرلمان.

- يا إلهي! هذا عمل مفكرين.

- لا، ليس كذلك؛ فلا يوجد إلاّ القليل القليل لأفعله. لا يستغرق العمل مني سوى ساعتين يومياً، وهو عملٌ مُملٌّ، والحقيقة أنني لا أدري ماذا كنتُ سأصنع لو لم يكن لديّ ما أشغل به وقتي.

- لا تقل إنك تجمع الفراشات!

- كلا، إنني أتقاسم السكن مع رجل يسلّيني كثيراً، وهو رجلُ تحرٍّ بلجيكي سابق، وقد بدأ عمله كرجل تحرٍّ خاص في لندن ولقي نجاحاً رائعاً. إنه حقاً رجل عجيب. لقد برهن أكثر من مرة أنه على صواب وأن هيئة الشرطة الرسمية على خطأ.

أصغت رفيقتي وقد اتسعت عيناها اهتماماً، ثم قالت: أليس ذلك ممتعاً؟ أنا أموت حباً بقصص الجرائم والأفلام البوليسية، وعندما تقع جريمة قتل تجدني ألتهم الصحف التهاماً.

- هل تتذكرين قضية ستايلز؟

- دعني أتذكّر... أهي قضية تلك العجوز التي سمموها في مكان ما قرب إيسيكس؟

- نعم. لقد كانت تلك أول قضية كبيرة يتولاها بوارو، ومما

لا شك فيه أنه لولا بوارو لكان القاتل قد نجا بفعلته. كانت عملية رائعة من عمليات التحري.

وعلى سبيل التسخين لموضوعي استعرضتُ أهم النقاط والأحداث في تلك القضية وصولاً إلى الحل الناجح غير المتوقع لها، وقد أصغت الفتاة للقصة كالمسحورة، وفي الواقع أننا كنا غارقَيْن في ذلك الحديث بحيث وصل القطار إلى كاليه دون أن نشعر بذلك.

طلبتُ حمّالَيْن، ثم نزلنا إلى الرصيف. مدت رفيقتي يدها مصافحة وقالت: وداعاً، سأنتبه لألفاظي بشكل أفضل في المستقبل.

- آه، ولكن ألن تَدَعيني أعتني بك على متن المركب؟

- قد لا أستقل المركب. عليّ أن أرى إن كانت أختي تلك قد استقلّت أيّ قطار، ولكن شكراً على أية حال.

- آه، ولكننا سنلتقي ثانية بالتأكيد، أليس كذلك؟

ثم صِحتُ وقد استدارت مغادرة: ألن تخبريني ما هو اسمك؟

التفتت إليّ وقالت ضاحكة: سندريلا.

ولم أفكر كثيراً متى وكيف سأرى سندريلا مرة أخرى.

* * *

الفصل الثاني

استغاثة

في الساعة التاسعة وخمس دقائق في صباح اليوم التالي دخلتُ غرفة جلوسنا المشتركة لتناول الإفطار. كان صديقي بوارو (المنتظم في مواعيده بالدقيقة والثانية) يقشّر بيضة إفطاره الثانية.

انفرجت أساريره لي عندما دخلتُ وقال: هل نمتَ جيداً؟ وهل تعافيتَ من ذلك العبور الفظيع للبحر؟ أمر رائع أنك صحوت في وقتك هذا الصباح. اسمح لي، إن ربطة عنقك غير مُتّسقة... اسمح لي أن أعيد تعديلها لك.

لقد وصفتُ هيركيول بوارو في مناسبة سابقة. إنه رجل ضئيل الجسم إلى أبعد الحدود، لا يتجاوز طوله مئة وستين سنتيمتراً، ذو رأس بيضوي يميل قليلاً إلى الجانب، وعينين تشعان باللون الأخضر عندما ينفعل، وشاربين عسكريين منتصبين، وإحساس مرهف بالكرامة! كان أنيقاً مُهندم الشكل، متحمساً للأناقة والترتيب أياً كان نوعهما، وكانت رؤية تحفة وُضعت بشكلٍ مائل، أو ذرة غبار، أو خطأ بسيط في ملابس أيّ إنسان... تسبب عذاباً لهذا الرجل لا يصبر

عليه حتى يشفي نفسه بمعالجة الموضوع. كان «النظام» و«المنهجية» شغله الشاغل. وقد اعتاد أن ينظر باستخفاف إلى الأدلة المحسوسة كآثار الأقدام ورماد لفائف التبغ... وربما صرّح بأن تلك الأدلة -إذا ما أُخذت بمفردها- لا يمكن أبداً أن تمكّن رجل التحري من حلّ أية معضلة. وبدلاً من ذلك، كان من شأنه أن يقرع على رأسه البيضوي برضا سخيف عن الذات، ويقول بقناعة وطيدة: "إن العمل الحقيقي يتم هنا، في الداخل، في الخلايا الرمادية الصغيرة للدماغ. تذكّر دائماً الخلايا الرمادية يا صديقي".

أخذتُ مكاني على الكرسي وقلتُ متكاسلاً -جواباً على تحية بوارو وملاحظته عن رحلة البحر- إن ساعة سفرٍ في البحر من مدينة كاليه إلى دوفر لا تكاد تستحق أن نميّزها بلفظةٍ من طراز «فظيع»... ثم سألته: هل وصلَتْ أية رسائل مثيرة بالبريد؟

هزّ بوارو رأسه بعدم قناعة وقال: لم أطّلع -بعدُ- على بريد اليوم، ولكن لا يصل شيء يثير الاهتمام في هذ الأيام. إن المجرمين العظام... المجرمين ذوي «المنهجية»... لم يعد لهم وجود!

ثم هزّ رأسه باكتئاب، فيما انفجرتُ أنا ضاحكاً وقلت: هيا، ابتهج يا بوارو، لا بد أن يتغير الحظ. افتح رسائلك، فما يدريك: لعل قضية كبرى تلوح في الأفق.

ابتسم بوارو وأخذ سكين فتح الرسائل وفضّ بها أطراف المغلفات العديدة أمامه، ثم أخذ يستعرضها: هذه فاتورة، وهذه فاتورة أخرى. يبدو أنني أصبحتُ مسرفاً في شيخوختي. آهاه! رسالة من جاب.

- نعم؟

قلتُ ذلك وقد انتصبت أذناي؛ فقد كان جاب -المفتش في شرطة سكوتلانديارد- كثيراً ما يقدم لنا قضاياه المثيرة.

- إنه يشكرني فقط (بأسلوبه الخاص) على نصيحة صغيرة في قضية أبرسويث تمكّن من خلالها من الاهتداء للطريق الصحيح. يسرني أنني كنتُ ذا فائدة له.

واستمر بوارو في استعراض رسائله بهدوء، ثم قال: وهذه دعوة لي لإلقاء محاضرة في الفرع المحلي لجمعية فتيان الكشافة. وستكون كونتيسة فورفانوك ممتنة لو مررتُ لرؤيتها... لا شك أنها فقدت قطة مُدللة أخرى! والآن إلى الرسالة الأخيرة. آه...

رفعتُ نظري إليه إذ سرعان ما لاحظتُ التغيير في نبرة صوته. كان بوارو يقرأ بانتباه. وبعد دقيقة ناولني الورقة وقال: هذه خارجة عن المألوف يا صديقي... اقرأها بنفسك.

كانت الرسالة مكتوبة على ورق أجنبي بخط مميّز ثخين:

فيلا جينيفييف
ميرلينفيل، سور مير، فرنسا.

سيدي العزيز،

إنني بحاجة إلى خدماتِ رجل تحرٍّ، ولا أريد -لأسباب سأشرحها لك لاحقاً- أن أستدعي الشرطة الرسميين. لقد سمعتُ عنك من أطراف مختلفة، وكل التقارير تفيد بأنك لست رجلاً ذا مقدرة عالية فحسب، بل أنك

-أيضاً- رجل يعرف كيف يكون كتوماً. لا أريد أن أئتمن البريد على التفصيلات، ولكنني -بسبب سرٍّ أحتفظ به- عرضة لخوف يومي على حياتي. إنني مقتنع بأن الخطر داهم وعظيم، ولذلك أتوسل إليك أن لا تضيع وقتاً في القدوم إلى فرنسا. سأرسل سيارة لاستقبالك في كاليه إن أبرقتَ لي بموعد وصولك، سأكون ممتناً إن تركتَ كل القضايا التي تشغلك حالياً وكرّستَ نفسك تماماً لمصلحتي. وأنا مستعدٌ لدفع أي تعويض يتطلبه الأمر. وربما احتجتُ إلى خدماتك لفترة طويلة؛ إذ قد تستدعي الضرورة سفرك إلى سانتياغو، حيثُ قضيتُ سنوات عديدة من عمري. وسوف أكون راضياً بطلبك أنت لأية أجور تريدها.

وأؤكد لك مرة أخرى أن القضية مُلحّة.

المخلص: ب. ت. رينو

وتحت التوقيع كان سطر تمت خربشته على عجل بحيث لا يكاد يُفهم: "بالله عليك تعال".

أعدتُ الرسالة لبوارو وقد تسارعت نبضات قلبي وقلت: أخيراً! ها هي قضية خارجة بالتأكيد عن المألوف.

قال بوارو متأملاً: نعم، حقاً.

- أنت ذاهب بالطبع.

أومأ بوارو برأسه بالإيجاب. كان يفكر بعمق، وأخيراً بدا وكأنه

قد عزم أمره. نظر إلى الساعة ووجهه طافح بالجدية والتجهم، وقال: اسمع يا صديقي، ليس لدينا وقت نضيعه. إن القطار السريع باتجاه أوروبا يغادر محطة فيكتوريا في الساعة الحادية عشرة. لا تبلبل نفسك، فلدينا الكثير من الوقت، ويمكن أن نقضي عشر دقائق في النقاش. إنك آتٍ معي، أليس كذلك؟

- حسناً، إن...

- لقد أخبرتَني بنفسك بأن رئيسك لا يحتاجك خلال الأسابيع القليلة القادمة.

- آه، هذا صحيح. ولكن السيد رينو هذا يُلمّح بقوة إلى أن قضيته خاصة وسرية.

- هيا، هيا؛ سأتدبر أمر السيد رينو. وبالمناسبة، يبدو لي أنني أعرف هذا الاسم.

- في أمريكا الجنوبية مليونير مشهور يحمل اسم رينو، لا أدري إن كان هو نفسه.

- بالتأكيد. ذلك يفسر ذكر مدينة سانتياغو؛ فسانتياغو في تشيلي، وتشيلي في أمريكا الجنوبية! آه، ها نحن نتقدم بشكل رائع! هل لاحظتَ العبارة التي وضعها في حاشية رسالته؟ ماذا استرعى انتباهك فيها؟

فكرتُ قليلاً ثم قلت: من الواضح أنه كتب الرسالة وهو مُحتفظ تماماً برباطة جأشه، ولكنه فقَدَ السيطرة على نفسه في النهاية، وقام -من وحي اللحظة- بخربشة تلك الكلمات اليائسة الثلاث.

ولكن صديقي هزّ رأسه بقوة مُستبعِداً رأيي وقال: أنت مخطئ. ألم ترَ أن حبر توقيعه يكاد يكون أسود، في حين أن لون الحبر في تلك العبارة في الحاشية باهتٌ تماماً؟

قلتُ حائراً: حسناً، والمعنى؟

- يا إلهي! استخدم خلايا دماغك الرمادية يا صديقي. أليس الأمر واضحاً؟ لقد كتب السيد رينو رسالته، ثم أعاد قراءتها بإمعان قبل أن يجفف حبرها بالورق النشاف، ثم قام بعد ذلك (ليس من وحي اللحظة، بل عامداً) بإضافة تلك الكلمات الأخيرة، ثم نشّف الورقة بالورق النشاف.

- ولكن لماذا؟

- لكي تخلّف لديّ الرسالة ذلك التأثير الذي خلّفته لديك.

- ماذا؟

- نعم، حتى يضمن حضوري! لقد أعاد قراءة الرسالة ولم يقتنع بها لأنها لم تكن قوية بما فيه الكفاية.

سكت قليلاً، ثم أضاف بهدوء وعيناه تشعان بذلك البريق الأخضر الذي يدل دوماً على حماسة داخلية: ولذلك يا صديقي، طالما أن تلك الحاشية لم تتم إضافتها عرَضاً ومن وحي اللحظة، بل بكل تعقُّل وهدوء، فإن قضيته مُلحّة وعاجلة جداً، وينبغي أن نصل إليه في أسرع وقت ممكن.

تمتمتُ متأملاً: ميرلينفيل... أعتقد أنني سمعتُ بها.

أومأ بوارو موافقاً وقال: إنها بلدة صغيرة تماماً... ولكنها جميلة. عند منتصف الطريق تقريباً بين بولون وكاليه. أحسب أن للسيد رينو منزلاً في إنكلترا، أليس كذلك؟

- بلى، في روتلاندغيت كما أذكر. كما أن له بيتاً ضخماً في الريف، في مكانٍ ما من هيرتفورشير، ولكنني لا أعرف في الواقع إلاّ القليل عنه، فهو ليس من النمط الاجتماعي كثيراً. أحسب أن لديه مصالح أمريكية جنوبية في سوق لندن، وقد قضى معظم حياته في تشيلي والأرجنتين.

- حسناً سنسمع كل التفصيلات من الرجل نفسه. هيا، دعنا نحزم حقائبنا. حقيبة صغيرة لكلٍّ منا، ثم نستقل سيارة أجرة إلى محطة فكتوريا.

في الساعة الحادية عشرة غادرنا محطة فكتوريا في طريقنا إلى دوفر، وكان بوارو قد أبرق قبل مغادرتنا إلى السيد رينو محدداً وقت وصولنا إلى كاليه.

كنت أعرف طبيعة صديقي بوارو عندما يسافر بحراً، بحيث تجنبتُ التدخل في خلوته. كان الطقس رائعاً، والبحر أهدأ من بركة الطاحون التي تُضرب بهدوئها الأمثال، ولذلك لم أعجب أبداً عندما جاءني بوارو مبتسماً عند نزولنا في كاليه. وهناك كانت بانتظارنا خيبة أمل، إذ لم يتم إرسال سيارة لاستقبالنا، ولكن بوارو عزا ذلك إلى تأخر نقل برقيته.

قال مبتهجاً: سنستأجر سيارة أجرة.

وبعد بضع دقائق كنا نترجرج ونتضعضع باتجاه ميرلينفيل في أعتق وأَكَلّ سيارة يمكن أن تعمل على تلك الطرقات. كانت معنوياتي في أوجها، ولكن صديقي الضئيل كان يراقبني بجدية واكتئاب. قال: إنك تذكرني يا هيستنغز بتلك الكلمة التي يقولها الاسكتلنديون عندما يرون شخصاً بالغ النشاط والحماسة، فيأخذون ذلك على أنه النشاط الذي يسبق الموت، فيقولون إنه «مقدور». إن شكلك ينذر بكارثة.

- هراء. أنت على كل حال لا تشاركني مشاعري.

- نعم، ولكني خائف.

-خائف ممّ؟

-لا أدري، ولكنني أحس بنُذُرٍ داخلية... لا أدري لماذا!

كان يتكلم بجدية ووقار جعلاني أتأثر بهما رغماً عني. قال ببطء: إن لدي إحساساً بأن هذه القضية ستكون قضية كبرى ومشكلة طويلة متعبة لن يكون من السهل حلها.

كان بودّي أن أستفسر منه أكثر من ذلك، ولكننا كنا قد بدأنا ندخل بلدة ميرلينفيل الصغيرة، وتمهلنا قليلاً لكي نسأل عن الطريق إلى فيلا جينيفييف.

- إلى الأمام مباشرة أيها السيد، عبر البلدة. إن فيلا جينيفييف تبعد نحو نصف ميل إلى الجانب الآخر. لن تجدوا صعوبة في الاهتداء إليها؛ إنها فيلا ضخمة تطل على البحر.

شكرْنا الرجلَ الذي دلّنا، وتابعنا سيرنا تاركين البلدة خلفنا.

وبعد أن تجاوزنا مفترق طرق مرة أخرى رأينا فلاحاً يسير مجهداً باتجاهنا فانتظرنا وصوله إلينا لنسأله عن الطريق من جديد. كانت تنتصب قرب الطريق تماماً فيلا صغيرة، ولكنها كانت أصغر وأكثر تهدماً من أن تكون بُغيتَنا. وفيما كنا ننتظر فُتح باب تلك الفيلا وخرجت منه فتاة.

كان الفلاح يعبر أمامنا الآن، وقد أطل السائق برأسه وسأله عن الطريق فقال: فيلا جينيفييف؟ مجرد خطوات على هذا الشارع إلى اليمين يا سيد. كان بوسعك أن تراها لولا هذا المنحنى.

شكره السائق وشغّل سيارته مرة أخرى. افتتنت عيناي بتلك الفتاة التي وقفت ساكنة تراقبنا وإحدى يديها على البوابة. كانت طويلة جداً وشعرها الذهبي يتلألأ في ضوء الشمس، وأقسمت لنفسي بأنها واحدة من أجمل الفتيات اللاتي رأيتهن في حياتي. وفيما تقدمنا في الطريق الوعر أدرت رأسي لأتابعها بنظري وهتفت: بالله عليك يا بوارو، هل رأيت تلك الحورية الشابة؟

رفع بوارو حاجبيه دهشة وتمتم: هل بدأت! اكتشفتَ حورية بهذه السرعة!

- دعك من هذا كله، أليست جميلة؟

- ربما، لم ألحظ تلك الحقيقة.

- ولكنك انتبهت للفتاة دون شك؟

- يا صديقي، نادراً ما يرى شخصان الشيء نفسه. أنت مثلاً رأيت حورية، أما أنا...

ثم توقف متردداً.

- نعم، أما أنت؟

- أنا لم أر إلا فتاةً ذات عينين قلقتين.

في تلك اللحظة اقتربت سيارتنا من بوابة ضخمة خضراء، وفي الوقت نفسه صدرت عنا كلانا علامة تعجب؛ فأمام البوابة وقف رقيب من شرطة البلدة، ورفع يده لإيقافنا قائلاً: ليس بوسعكم العبور أيها السادة.

صحت أنا: ولكننا نريد رؤية السيد رينو؛ إن لدينا موعداً معه. أليست هذه الفيلا التي يسكنها؟

- بلى يا سيدي، ولكن...

تقدم بوارو بجسمه إلى الأمام وقال: ولكن ماذا؟

- لقد قُتل السيد رينو هذا الصباح.

* * *

الفصل الثالث

في فيلا جينيفييف

خلال لحظة قفز بوارو من السيارة وعيناه تشتعلان انفعالاً وقال: ما الذي تقوله؟ قُتل؟ متى؟ كيف؟

شدّ الرقيب قامته وقال: لا أستطيع الإجابة عن أية أسئلة يا سيدي.

قال بوارو: "صحيح، فهمت..."، ثم فكر لحظة وسأله: إن مفوض الشرطة في الداخل دون شك، أليس كذلك؟

- بلى يا سيدي.

أخرج بوارو بطاقة وكتب عليها بضع كلمات وقال: هاك. هل تتلطف بإرسال هذه البطاقة إلى المفوض فوراً؟

أخذها الرجل، ثم أدار رأسه وأطلق صفرة، وسرعان ما جاءه زميل له فسلمه بطاقة بوارو. وبعد انتظار بضع دقائق خرج رجل قصير بدين ذو شاربٍ ضخم وتقدم -هادراً- من البوابة. حيّاه

الرقيب وتنحّى جانباً، وصاح القادم الجديد: عزيزي السيد بوارو. لَكَمْ تسرني رؤيتك! إن وصولك جاء في وقته تماماً.

انفرجت أسارير بوارو وقال: السيد بيكس! أنا مسرور لرؤيتك فعلاً.

ثم أشار إليّ وقال: هذا أحد أصدقائي الإنكليز، الكابتن هيستنغز... أقدم لك السيد لوسيان بيكس.

انحنينا أنا والمفوض كلٌّ للآخر بطريقة احتفالية، ثم استدار السيد بيكس ثانية إلى بوارو وقال: يا عزيزي، أنا لم أرك منذ أربع عشرة سنة، منذ تلك المناسبة في أوستند. هل لديك معلومات يمكن أن تفيدنا؟

- ربما كنتَ تعرفها أصلاً. هل علمتم أنه تم استدعائي؟

- لا. ومَن الذي استدعاك؟

- الرجل القتيل. يبدو أنه كان يعرف أن محاولة تجري لقتله، ولكنه مع الأسف تأخر كثيراً في استدعائي.

صاح الفرنسي: هذا مدهش! إذن فقد كان يتنبأ بمقتله. إن ذلك يُبطل نظرياتنا إلى حدٍّ بعيد. ولكن ادخل...

فتح البوابة، وانطلقنا نحو البيت بينما استمر السيد بيكس في كلامه: ينبغي أن نبلّغ قاضي التحقيق، السيد هوتيه، فوراً بذلك. لقد أكمل لتوّه تفحص مسرح الجريمة، وهو على وشك البدء باستجواباته.

سأله بوارو: متى ارتُكبت الجريمة؟

- لقد تم اكتشاف الجثة في نحو الساعة التاسعة من صباح اليوم. وتُظهر شهادة السيدة رينو، وكذلك شهادات الأطباء، أن الوفاة قد حدثت في نحو الساعة الثانية صباحاً. ادخل رجاءً.

كنا قد وصلنا إلى الدرج الذي يُفضي إلى الباب الأمامي للفيلا. وفي الصالة كان يجلس رقيب آخر نهض لدى رؤيته للمفوض. سأله المفوض بيكس: أين السيد هوتيه الآن؟

- في الصالون يا سيدي.

فتح السيد بيكس باباً على ميسرة الصالة فعبرناه. كان السيد هوتيه ومساعده يجلسان إلى طاولة ضخمة مستديرة. رفع الاثنان أنظارهما عند دخولنا، فقام المفوض بالتعريف بنا وشرح الهدف من وجودنا.

كان قاضي التحقيق، السيد هوتيه، رجلاً طويلاً نحيلاً كئيباً ذا عينين سوداوين نفّاذتين، ولحية رمادية قُصّت بشكل مرتب واعتاد أن يداعبها أثناء كلامه. وكان يقف قرب رف الموقد رجل كهل ذو كتفين منحنيين قليلاً، تَمّ تقديمه لنا على أنه الدكتور ديوران.

عندما أنهى المفوض حديثه علّق السيد هوتيه قائلاً: هذا غريب جداً... هل الرسالة هنا معك أيها السيد؟

سلمه بوارو الرسالة، وقرأها قاضي التحقيق، ثم قال: هممم... إنه يتحدث عن سر. كم هو مؤسف أنه لم يوضح أكثر من ذلك. إننا مدينون لك كثيراً يا سيد بوارو وآمل أن تمنحنا شرف المساعدة في تحقيقاتنا... أم أنك مضطر للعودة إلى لندن؟

قال بوارو: سيدي القاضي، إنني أنوي البقاء. أنا لم أصل في وقتٍ يسمح لي بمنع مقتل موكلي، ولكنني أشعر أنه سيكون شرفاً كبيراً لي أن أكشف قاتله.

- لا بد أن السيدة رينو ستتمنى -دون شك- المحافظة على خدماتك لها. نحن ننتظر الآن السيد جيرو من دائرة الأمن في باريس. إنه على وشك الوصول، وأنا واثق أنكما ستكونان، أنتما الاثنين، قادرين كل تبادل المساعدة في تحقيقاتكما. وفي هذه الأثناء أرجو أن تُشرفني بحضورك لاستجواباتي، ولعله من نافلة القول أن أؤكد أن أية معونة تطلبها ستكون تحت تصرفك.

قال بوارو: أشكرك يا سيدي. أنت تعرف أنني أجهل حالياً كل شيء تماماً؛ لا أعرف أي شيء عن القضية.

أومأ السيد هوتيه إلى المفوض، فتولى الأخير الحديث: صباح اليوم وجدت الخادمةُ العجوز فرانسوا -عند نزولها لتبدأ عملها- الباب الأمامي نصف مفتوح. وإذ شعرت بذعر فوري من احتمال دخول لصوص إلى البيت فقد ألقت نظرة إلى غرفة الطعام، ولكنها وجدت أواني الفضة في مكانها، فلم تُلقِ بالاً للموضوع، واستنتجت بأن سيدها قد نهض مبكراً دون شك وخرج ليتمشى.

قال بوارو: اعذرني على المقاطعة، ولكن هل كان ذلك من عاداته؟

- كلا، ولكن العجوز فرانسوا لديها تلك الفكرة الشائعة عن الإنكليز... وهي أنهم مجانين ومستعدون للقيام بأغرب التصرفات في أي وقت! في غضون ذلك، ذهبت خادمة شابة تُدعى ليوني

لتدعو سيدتها كالعادة فذُهلت إذ وجدتها مقيدة مكممة الفم، وفي نفس الوقت تقريباً جاء خبر مفاده أن جثة السيد رينو قد اكتُشفت وقد فارقتها الروح تماماً، مع طعنات في الظهر.

- أين وُجدت؟

- هذه واحدة من أغرب سمات هذه القضية. فقد كانت الجثة يا سيد بوارو ملقاة ووجهها إلى الأسفل... في قبر مفتوح!

- ماذا؟!

- نعم؛ كانت الحفرة قد حُفرت لتوها... على بعد بضعة أمتار فقط خارج حدود حديقة الفيلا.

- وكم كان قد مضى على موته؟

كان الدكتور ديوران هو الذي أجاب على ذلك قائلاً: لقد فحصتُ الجثة صباح اليوم في الساعة العاشرة. ولا بد أن الوفاة قد حدثت قبل ذلك بسبع ساعات على الأقل، وربما بعشر ساعات.

- همم! أي أن ذلك يحدد وقت الجريمة ما بين الساعة الثانية عشرة ليلاً والثالثة صباحاً.

- بالضبط، والدليل المتعلق بالسيدة رينو يحدد الجريمة في نحو الساعة الثانية صباحاً، مما يساعد على استنتاج توقيتٍ أكثر دقة. ولا شك أن الوفاة كانت فورية، ومن الطبيعي أنها لا يمكن أن تكون من فعل الضحية نفسها.

أومأ بوارو برأسه فيما مضى المفوض قائلاً: تم تحرير السيدة

رينو بسرعة من الحبال التي تلتف حولها على يد الخدم الذين أصابهم الرعب، وكانت في حالة فظيعة من الضعف كادت تصل حدّ الإغماء من ألم قيودها. ويبدو أن رجلَين مُقنّعين قد دخلا غرفة النوم، فكمماها وربطاها، بينما اختطفا زوجها بالقوة (وقد عرفنا ذلك بشكل غير مباشر من الخدم). ولدى سماعها النبأ المأساوي أصيبت فوراً بحالة مخيفة من الهياج مما حمل الدكتور ديوران على إعطائها منوماً فور وصوله، ولم نستطع بعدُ استجوابها. ولكن لا شك أنها ستصحو أكثر هدوءاً بحيث تتحمل ضغط التحقيق.

سكت المفوض قليلاً، فسأل بوارو: ومَن هم ساكنو البيت يا سيدي؟

- العجوز فرانسوا، مدبرة المنزل، وقد عاشت لسنوات طويلة مع المالكين السابقين لفيلا جينيفييف. وشابتان شقيقتان، دينيس وليوني أولار، وبيتهما في ميرلينفيل، وهما ابنتان لأبوين محترمين جداً. والسائق الذي أحضره معه السيد رينو من إنكلترا، ولكنه مسافر في إجازة. وأخيراً السيدة رينو وابنها، السيد جاك رينو، وهو أيضاً مسافر في الوقت الحاضر.

أمال بوارو رأسه، ونادى السيد هوتيه: مارشو!

ظهر رقيب البلدة، فقال له قاضي التحقيق: أحضر فرانسوا.

حيّاه الرجل واختفى، ليعود بعد لحظات ومعه فرانسوا الخائفة.

- اسمكِ فرانسوا أريشيه؟

- نعم يا سيدي.

- هل خدمت لفترة طويلة في فيلا جينيفييف؟

- إحدى عشرة سنة مع السيدة لافيكومتيس، وعندما باعت الفيلا في الربيع الماضي وافقتُ على البقاء مع الإنكليزي يا سيدي. لم أتصور أبداً...

قاطعها قاضي التحقيق قائلاً: صحيح، صحيح. والآن يا فرانسوا، فيما يخص مسألة الباب الأمامي، على مَن كانت مسؤولية إقفاله في الليل؟

- مسؤوليتي أنا يا سيدي، وأنا أشرف على ذلك بنفسي دائماً.

- وفي الليلة الماضية؟

- أقفلتُه كالعادة.

- أأنتِ متأكدة من ذلك؟

- أقسم على ذلك يا سيدي.

- في أية ساعة كان ذلك؟

- في الوقت المعتاد، العاشرة والنصف يا سيدي.

- وماذا عن باقي ساكني البيت، هل أووا إلى النوم؟

- كانت السيدة قد ذهبت للنوم قبل ذلك، وقد صعدت دينيس وليوني للنوم معي، وكان السيد ما يزال في مكتبه.

- إذن فإن كان أحدهم قد فتح الباب بعد ذلك، فلا بد أن

يكون السيد رينو نفسه، أليس كذلك؟

رفعت فرانسوا كتفيها العريضين حيرة وقالت: ولماذا يفعل ذلك... مع مرور اللصوص والقتلة في كل دقيقة؟ فكرة غريبة! لم يكن سيدي مغفلاً، ولا يبدو أنه اضطر لإخراج السيدة...

قاطعها قاضي التحقيق بحدة: السيدة؟ أية سيدة تعنين؟

- السيدة التي جاءت لرؤيته.

- وهل جاءت سيدة لرؤيته في ذلك المساء؟

- نعم يا سيدي، وفي الكثير من الأمسيات الأخرى أيضاً.

- من هي؟ هل تعرفينها؟

ظهرت على وجه المرأة نظرة لا تخلو من مكر وقالت متذمرة: وكيف لي أن أعرف من هي؟ لم أكن أنا التي أدخلتها ليلة الأمس.

صاح قاضي التحقيق وهو يضرب الطاولة بقبضته: أها! أتريدين العبث مع الشرطة؟ إنني أطلب منك أن تخبريني فوراً باسم هذه المرأة التي أتت لزيارة السيد رينو مساء.

قالت فرانسوا متبرمة: الشرطة... الشرطة، لم يخطر لي أبداً أنني سيكون لي شأن مع الشرطة. ولكنني أعرف جيداً من هي؛ إنها السيدة دوبريه.

صدرت عن المفوض آهة تعجب، واتكأ إلى الأمام وكأنه في غاية الدهشة وقال: السيدة دوبريه... الساكنة في فيلا مارغريت في أسفل الطريق؟

- نعم يا سيدي، هذا ما عنيته. إنها امرأة جميلة.

ثم لوت العجوز رأسها بازدراء.

تمتم المفوض: السيدة دوبريه... مستحيل.

قالت فرانسوا شاكية: نعم، هذا كل ما يناله المرء من قول الحقيقة.

قال قاضي التحقيق مُسترضياً لها: أبداً، أبداً. لقد دُهشنا، هذا كل ما في الأمر. إذن فالسيدة دوبريه والسيد رينو كانا...؟

سكتَ بشكل مُوحٍ، ثم سأل: إيه؟ أكان الأمر كذلك؟

- وكيف لي أن أعرف؟ ولكن ماذا تقول أنت؟ لقد كان سيدي إنكليزياً... وغنياً جداً، وكانت السيدة دوبريه فقيرة... وجميلة جداً، وكانت تعيش بهدوء مع ابنتها. ولا شك أبداً أنها كانت ذات تاريخ! إنها لم تعد شابة صغيرة، ولكن ماذا في ذلك! أنا التي أتكلم معك شاهدت رؤوس الرجال تلتفت وراءها وهي تمشي في الشارع. وفوق ذلك فقد توفر لها في الفترة الأخيرة مال زائد تصرفه. البلدة كلها تعرف ذلك... لقد انتهى عهد الاقتصاد والتقتير!

ثم هزت فرانسوا رأسها كمن لا يهتز يقينه أبداً.

نقر السيد هوتيه على لحيته متأملاً ثم سأل أخيراً: والسيدة رينو؟ كيف تصرفت مع هذه... الصداقة؟

رفعت فرانسوا كتفيها وقالت: لقد كانت دوماً في غاية

اللطف... وغاية الأدب. ومن شأن المرء أن يقول إنها لم تشكّ في شيء. ولكن مع ذلك كله، أليس هكذا يعاني القلب يا سيدي؟ لقد راقبتُ سيدتي يوماً بعد يوم وهي تزداد شحوباً ونحولاً. لم تعد نفس المرأة التي وصلت إلى هنا قبل شهر، وسيدي أيضاً تغير. كان لديه هو الآخر قلقه. كان بوسع المرء أن يرى أنه على شفا أزمة عصبية. ومَنذا يعجب لذلك، بوجود علاقة تجري بهذه الطريقة؟ دون أية مداورة، ودون تكتم... أسلوب إنكليزي دون شك!

تململتُ ساخطاً في مقعدي، ولكن قاضي التحقيق كان مستمراً في أسئلته دون أن يلتفت إلى مسائل جانبية.

- أتقولين إن السيد رينو لم يُضطر لإخراج السيدة دوبريه؟ هل غادرت إذن؟

- نعم يا سيدي. لقد سمعتهما يخرجان من المكتب ويذهبان إلى الباب. وقال لها السيد: "ليلة سعيدة"، ثم أغلق الباب خلفها.

- في أي وقت كان ذلك؟

- في نحو العاشرة وخمس وعشرين دقيقة يا سيدي.

- هل تعرفين متى ذهب السيد رينو إلى النوم؟

- سمعته يصعد بعد نحو عشر دقائق بعد صعودنا. إن الدرج يُصدر صريراً، ولذلك فإن بإمكان المرء أن يسمع صوت أي شخص يصعد أو ينزل.

- أهذا كل شيء؟ ألم تسمعي صوت فوضى خلال الليل؟

- أبداً يا سيدي.

- أي الخدم كان أول النازلين صباحاً؟

- أنا يا سيدي، وقد رأيتُ فوراً الباب يتأرجح مفتوحاً.

- وماذا عن بقية النوافذ في الطابق السفلي، أكانت كلها مغلقة؟

- كلها كانت مغلقة، ولم أرَ أيّ شيء يبعث على الريبة أو في غير محله.

- حسناً يا فرانسوا، يمكنك الذهاب.

تحركت العجوز إلى الباب، وعند العتبة التفتت وقالت: سأقول لك شيئاً واحداً يا سيدي؛ إن تلك السيدة دوبريه امرأة سيئة! نعم، إن المرأة تعرف المرأة. إنها امرأة سيئة، تذكّر ذلك.

ثم خرجت وهي تهز رأسها بوقار.

نادى قاضي التحقيق: ليوني أولار.

ظهرت ليوني غارقة بدموعها، تميل إلى الهستيرية. وقد تعامل معها السيد هوتيه بشكل مباشر. كانت شهادتها تتعلق بشكل رئيسي باكتشافها لسيدتها مكممة مقيدة، الأمر الذي وصفته بشيء من المبالغة. وقد قالت -كما قالت فرانسوا- إنها لم تسمع شيئاً خلال الليل.

وقد تبعتها أختها دينيس التي وافقت على أن سيدها قد تغير كثيراً مؤخراً وقالت: في كل يوم يزداد نكداً أكثر فأكثر، ويقل طعامه. كان دوماً مكتئباً.

ولكن كانت لدينيس نظريتها الخاصة: ما من شك أن المافيا كانت في أثره! رجلان مقنعان... ماذا يمكن أن يكون ذلك غير المافيا؟ تلك جمعية فظيعة!

قال قاضي التحقيق على سبيل التهدئة: هذا ممكن بالطبع. والآن يا فتاتي، هل أنت التي أدخلتِ السيدة دوبريه إلى المنزل ليلة أمس؟

- ليس ليلة أمس، بل التي قبلها.

- ولكن فرانسوا أخبرتنا لتوها بأن السيدة دوبريه كانت هنا ليلة أمس؟

- لا يا سيدي. لقد جاءت سيدة بالفعل لرؤية السيد رينو ليلة أمس، ولكنها لم تكن السيدة دوبريه.

ألحّ القاضي بالسؤال وقد دُهش لذلك، ولكن الفتاة بقيت ثابتة على موقفها. قالت إنها تعرف شكل السيدة دوبريه تمام المعرفة. وقد كانت هذه السيدة سمراء أيضاً، ولكنها أقصر من السيدة دوبريه، وأصغر منها بكثير. وما كان شيء ليزحزحها عن موقفها.

- هل سبق لك أن رأيت تلك السيدة قط؟

- أبداً يا سيدي.

ثم أضافت الفتاة بشيء من الخجل: ولكنني أظنها إنكليزية.

- إنكليزية؟

- نعم يا سيدي. لقد سألَتْ عن السيد رينو بفرنسية جيدة تماماً، ولكن اللهجة... مهما كانت طفيفة يستطيع المرء تمييزها. وفوق ذلك فعندما خرجا من المكتب كانا يتكلمان بالإنكليزية.

- هل سمعتِ ما قالاه؟ أعني: هل استطعت فهمه؟

قالت دينيس بكبرياء: إنني أتكلم الإنكليزية بشكل جيد تماماً. كانت السيدة تتكلم بشكل سريع جداً لم أستطع معه فهم ما قالته، ولكنني سمعتُ آخر الكلمات التي قالها سيدي وهو يفتح لها الباب.

سكتت قليلاً ثم كررتما سمعته بحرص ومشقة وبإنكليزية ركيكة: "نعم، نعم... ولكن بالله عليك اذهبي الآن".

كرر القاضي وراءها: "نعم، نعم. ولكن بالله عليك اذهبي الآن". ثم أخرج دينيس، وبعد لحظات من التفكير عاد فاستدعى فرانسوا، وسألها فيما إذا كانت قد أخطأت في تحديد الليلة التي زارتهم فيها السيدة دوبريه. ولكن فرانسوا أثبتت أنها عنيدة بشكل استثنائي؛ فقد أكدت أن السيدة دوبريه قد جاءت في الليلة الماضية، وقد كانت هي دون شك، وإن دينيس تريد أن تعطي لنفسها أهمية، هذا كل ما في الأمر! ولذلك فقد لفّقَتْ هذه القصة حول قدوم سيدة غريبة، كما أرادت أن تستعرض إنكليزيتها أيضاً! وربما لم يقل السيد تلك العبارة باللغة الإنكليزية أبداً، وحتى لو قالها فهي لا تُثبتُ شيئاً، لأن السيدة دوبريه تتكلم الإنكليزية بشكل كامل، وكانت تستخدمها عادة في حديثها مع السيد والسيدة رينو. ثم أنهت حديثها بالقول: إن السيد جاك، ابن السيد رينو، كان دوماً هنا، وهو يتكلم الفرنسية بشكل سيء جداً.

لم يُصرّ قاضي التحقيق على هذه النقطة، بل سأل عن السائق، وعلم أن السيد رينو قد أعلن بالأمس فقط أنه لن يحتاج استخدام السيارة غالباً، وأن من الأفضل لماسترز أن يأخذ إجازة.

كانت تقطية حائرة قد بدأت تتجمع بين عيني بوارو، فسألته: ما الأمر؟

هزّ رأسه بنفاد صبر وطرح سؤالاً: اعذرني يا سيد بيكس، ولكن لا شك أن بمقدور السيد رينو أن يقود السيارة بنفسه؟

نظر المفتش إلى فرانسوا فأجابت العجوز بجزم: كلا، السيد لا يقود السيارة بنفسه.

ازدادت تقطية بوارو عبوساً فقلتُ له بصبر نافد: ليتك تخبرني بما يقلقك.

- ألا ترى؟ لقد تحدث السيد رينو في الرسالة عن إرسال السيارة لانتظاري في كاليه.

- ربما قصد سيارة مستأجرة.

- ربما كان الأمر كذلك. ولكن لماذا تستأجر سيارة عندما تكون لديك سيارتك الخاصة؟ ولماذا اختيار الأمس لإرسال السائق في إجازة... فجأة، ومن وحي اللحظة؟ أيكون ذلك لأنه أراد -لسبب ما- أن يبعد السائق عن الطريق قبل أن نصل نحن؟

* * *

الفصل الرابع
رسالة بتوقيع «بيلا»

كانت فرانسوا قد غادرت الغرفة، وكان القاضي ينقر على الطاولة متأملاً. وأخيراً قال: سيد بيكس، إن لدينا هنا شهادتين متناقضتين تماماً، فمَن الذي نصدقه: فرانسوا أم دينيس؟

قال المفوض بإصرار: دينيس؛ فهي التي أدخلت الزائرة. إن فرانسوا عجوز وعنيدة، والواضح أنها تكره السيدة دوبريه. وفوق ذلك فإن معرفتنا تميل إلى إثبات أن السيد رينو كان مرتبطاً بامرأة أخرى.

صاح هوتيه: يا إلهي! لقد نسينا أن نخبر السيد بوارو بذلك.

بحث بين الأوراق على الطاولة، ثم سلّم الورقة التي كان يبحث عنها إلى صديقي قائلاً: هذه الرسالة يا سيد بوارو وجدناها في جيب الروب الذي ارتداه القتيل فوق ثياب النوم.

أخذها بوارو وفتحها. وقد كانت قديمة ومجعدة بعض الشيء، ومكتوبة بالإنكليزية بخطٍ بدائي إلى حدٍّ ما:

يا أعز الناس،

لماذا لم تكتب لي طوال هذا الوقت؟ أنت ما زلتَ تحبني، أليس كذلك؟ لقد أصبحت رسائلك مؤخراً مختلفة جداً، باردة وغريبة، والآن يأتي هذا الصمت الطويل... وهذا يخيفني. إن كان لك أن تتوقف عن حبي! ولكن هذا مستحيل... يا لي من طفلة سخيفة... دائماً أتخيل الأمور! ولكن إن توقفتَ فعلاً عن حبي فإنني لا أعرف ماذا أفعل... ربما قتلتُ نفسي! لا أستطيع العيش من دونك. أحياناً أتخيل أن امرأة أخرى تدخل بيننا. دعها تحترس، هذا كل ما أقوله... وكذلك الأمر بالنسبة لك أيضاً! فإنني أفضل قتلك على تركها تحصل عليك! وإنني أعني ذلك.

ولكن لا عليك، إنني أكتب هراء متبجحاً؛ فأنت تحبني، وأنا أحبك... نعم، أحبك، أحبك، أحبك!

حبيبتك: بيلا

لم يكن على الرسالة عنوان أو تاريخ، وقد أعادها بوارو وهو متجهم الوجه وقال: وما هو الافتراض؟

رفع قاضي التحقيق كتفيه حيرة وقال: من الواضح أن السيد رينو كان متورطاً مع هذه السيدة الإنكليزية... بيلا! وقد جاء إلى هنا، فقابل السيدة دوبريه، وبدأ علاقة معها. ولذلك أصبح بارداً مع الأخرى، وقد ارتابت فوراً بوجود شيء. إن في هذه الرسالة تهديداً واضحاً. سيد بوارو، إن القضية تبدو من أول نظرة في غاية البساطة: الغيرة! وتبدو حقيقة طعن السيد رينو في الظهر وكأنها تشير تحديداً

إلى أنها جريمة ارتكبتها امرأة.

أومأ بوارو برأسه وقال: الطعن في الظهر، نعم، ولكن ليس القبر! فهذا يتطلب جهداً شاقاً، وعملاً مضنياً... ما من امرأة يمكن أن تحفر ذلك القبر يا سيدي، فهذا فعل رجل.

هتف المفوض بانفعال: نعم، نعم؛ أنت على حق. لم نفكر في ذلك.

استمر السيد هوتيه يقول: كما قلت، فإن القضية تبدو واضحة للوهلة الأولى، ولكن الرجلين المقنعين والرسالة التي تلقيتّها من السيد رينو... كل هذا يعقّد الأمور؛ إذ يبدو أن لدينا هنا مجموعة ظروف تختلف تماماً، ولا علاقة لها بالظروف النسائية المُشار إليها. بالنسبة للرسالة التي أُرسلت إليك، هل ترى أن من الممكن أنها تشير بأية طريقة إلى هذه المرأة «بيلا» وتهديداتها؟

هزّ بوارو رأسه بالنفي وقال: صعب جداً. ليس من شأن رجل كالسيد رينو خاض حياة مغامرة في أماكن نائية أن يطلب الحماية بسبب امرأة.

أومأ قاضي التحقيق برأسه بشيء من التأكيد وقال: إنها وجهة نظري تماماً. إذن فإن علينا أن نبحث عن تفسير للرسالة.

أكمل المفوض الجملة قائلاً: في سانتياغو... سأبرق دون تأخير إلى الشرطة في تلك المدينة طالباً تفصيلات كاملة عن حياة القتيل هناك: علاقاته الغرامية، وصفقاته، وصداقاته، وعن أية عداوات ربما اكتسبها. سيكون غريباً أن لا نصل بعد كل ذلك إلى رأس خيط

لكشف هذه الجريمة الغامضة.

ثم نظر حوله يطلب التأييد، فقال بوارو باستحسان: ممتاز!

ثم سأل: ألم تجدوا رسائل أخرى من بيلا هذه بين أغراض السيد رينو؟

- أبداً. لقد كان أول إجراءاتنا طبعاً البحث في أوراقه الخاصة في المكتب، ولكننا لم نجد شيئاً ذا أهمية. بدا كل شيء واضحاً وسليماً. الأمر الوحيد الذي كان خارجاً عن المألوف هو وصيته... وها هي.

استعرض بوارو الوثيقة ثم قال: هكذا. ألف جنيه للسيد ستونور... من هو بالمناسبة؟

- سكرتير السيد رينو. وقد بقي في إنكلترا، ولكنه جاء إلى هنا مرة أو مرتين لقضاء عطلة نهاية الأسبوع.

قال بوارو: وكل ما عدا ذلك يؤول دون أية قيود لزوجته الحبيبة إلواز. صياغة بسيطة، ولكنها قانونية تماماً، وقد شهدت عليها الخادمتان دينيس وفرانسوا. ليس في ذلك شيء خارج كثيراً عن المألوف.

أعاد الوصية إلى القاضي، فبدأ المفوض بيكس يقول: ولكن ربما لم تلاحظ...

فقاطعه بوارو وهو يرمش بجفنيه: التاريخ؟ نعم، لاحظتُه. منذ أسبوعين. ربما يشير ذلك إلى بداية إحساسه بالخطر. إن الكثير من الأثرياء يموتون دون كتابة وصية نتيجةَ عدم تفكيرهم باحتمال

وفاتهم. من غير الحكمة إصدار الأحكام قبل الأوان، ولكن الوصية تشير إلى حبه الحقيقي لزوجته، رغم علاقاته الغرامية.

قال السيد هوتيه بارتياب: نعم، ولكن ربما كان في ذلك شيء من الإجحاف بحق ابنه، لأن الوصية تتركه معتمداً كلياً على أمه. فلو تزوجت ثانية وتوفيت قبل زوجها الثاني فإن هذا الصبي لن ينال بنساً واحداً من مال أبيه.

رفع بوارو كتفيه وقال: الإنسان حيوان مغرور. لا شك أن السيد رينو قد رأى أن أرملته لن تتزوج بعده أبداً. أما بالنسبة للابن، فربما كان ترك المال في عهدة والدته إجراء احترازياً حكيماً؛ إن طيش أبناء الأغنياء تُضرب به الأمثال.

قال القاضي: ربما كان الأمر كما تقول. حسناً يا سيد بوارو، لا شك أنك تود الآن رؤية مسرح الجريمة. إني آسف لأننا قد نقلنا الجثة من هناك، ولكن الصور قد التُقطت للجثة -بالطبع- من كل الزوايا التي يمكن تصورها، وستكون تحت تصرفك حالما تصبح جاهزة.

- شكراً لك يا سيدي على لطفك.

نهض المفوض وقال: تفضل معي.

ثم فتح الباب وانحنى بحفاوة لبوارو حتى يخرج قبله. تراجع بوارو بأدب مماثل وانحنى للمفوض. وفي النهاية خرجا إلى الصالة.

سأل بوارو وهو يشير برأسه إلى باب مقابل: تلك الغرفة هناك هي المكتب، أليس كذلك؟

- بلى، أتحب أن تراها؟

فتح الباب وهو يتكلم، ودخلنا المكتب. كانت الغرفة التي اختارها السيد رينو لاستخداماته الشخصية الخاصة غرفة صغيرة، ولكنها مفروشة بذوق راقٍ وبشكل مريح، وقد وُضعت قرب النافذة طاولةُ كتابةٍ عمليةُ الشكل فيها الكثير من الرفوف الداخلية الصغيرة. ومقابل الموقد وُضع كرسيان مُنجَّدان بالجلد بينهما طاولة صغيرة رُصّت عليها آخر المجلات والكتب.

وقف بوارو لحظات ينظر إلى الغرفة، ثم تقدم إلى الأمام ومرّر يده برقة على المسند الجلدي للكرسيين، ثم أخذ مجلة عن الطاولة، ومرر أصبعه بحذر على سطح رفٍ جانبي من خشب السنديان. ثم ظهر على وجهه استحسان شديد.

سألتُه مبتسماً: لا يوجد غبار؟

تهلل وجهه استحساناً لمعرفتي بأذواقه الغريبة وقال: ولا ذرة منه يا صديقي! وهو -لأول مرة- أمر مؤسف.

بعد ذلك تنقلت عيناه الحادتان كعيني طائر هنا وهناك، ثم قال فجأة بنبرة ارتياح: "آه! السجادة الصغير أمام الموقد ملتوية". وانحنى ليعدّلها، وفجأة أطلق عبارة تعجب ونهض وفي يده قصاصة صغيرة من ورق ضارب إلى الحمرة، وقال: هل يهمل الخدم في فرنسا -كزملائهم في إنكلترا- تنظيف ما تحت السجاد؟

أخذ بيكس القصاصة منه، واقتربتُ أنا لأتفحصها فقال بوارو: هل ميّزتَها يا هيستنغز؟

هززتُ رأسي حيرة، ولكنني أحسست أن ذلك الورق المحمرّ مألوف بالنسبة لي. وقد كان ذهن المفوض أسرع من ذهني، فقد هتف: إنها قصاصة من شيك.

كانت القصاصة بحجم ست سنتيمترات مربعة تقريباً، وعليها كُتبت بالحبر كلمة «دوفين». قال بيكس: حسناً! إن هذا الشيك قد كُتب لمصلحة شخص يدعى دوفين، أو كتبه شخص يدعى دوفين.

قال بوارو: بل أتخيل أنه الخيار الأول؛ فالخط، إن لم أكن مُخطئاً، هو خط السيد رينو.

وسرعان ما تم التأكد من ذلك بمقارنة الخط بخط مذكرة على الطاولة.

تمتم المفوض وقد أُسقط في يده: يا إلهي، لا أستطيع حقاً أن أتصور كيف فاتتني هذه.

ضحك بوارو وقال: إن المغزى من هذا هو: ابحثْ دوماً تحت السجاد! يمكن لصديقي هيستينغز أن يخبرك أنني أتعذب لرؤية أي شيء مُلتوٍ أو في غير مكانه، وبمجرد أن رأيت السجادة الصغيرة أمام الموقد مائلة قليلاً قلتُ لنفسي: هيا! لقد عَلِقتْ بها رجلا الكرسي إذ تم دفعه إلى الخلف، وربما كان تحتها شيء غفلت عنه فرانسوا الطيبة.

- فرانسوا؟

- أو دينيس، أو ليوني. كائناً من كان الذي نظف هذه الغرفة. طالما لا يوجد غبار فمعنى هذا أن الغرفة قد نُظفت صباح اليوم دون ريب. وأنا أتخيل أن الأمر تم على هذا النحو: بالأمس، وربما ليلة أمس، كتب السيد رينو شيكاً لرجل يُدعى دوفين، وبعد ذلك تم تمزيقه ورميه على الأرض. وهذا الصباح...

كان السيد بيكس قد شرع برنّ الجرس بنفاد صبر. جاءت فرانسوا استجابةً للنداء وقالت إن الكثير من قصاصات الورق كانت فعلاً على الأرض. ماذا فعلت بها؟ رمتها في فرن المطبخ بالطبع! وماذا تفعل بها غير ذلك؟

أخرجها السيد بيكس بإشارة يأس منه، ثم ما لبث أن تهلل وجهه وهرع إلى الطاولة وشرع يبحث في دفتر شيكات القتيل، ولكنه أعاد إشارة يأسه السابقة، فقد كان القسم المتمّم لآخر ورقة تم سحبها من دفتر الشيكات خالياً من أي شيء.

صاح بوارو وهو يربت على كتفه: تجمل بالشجاعة! لا شك أن السيدة رينو ستكون قادرة على إخبارنا عن هذا الشخص الغامض المسمى دوفين.

انبسط وجه المفوض وقال: هذا صحيح. دعونا نكمل عملنا.

وفيما استدرنا لمغادرة الغرفة قال بوارو بأسلوب عرضي: أهذه هي الغرفة التي استقبل بها السيد رينو ضيفته ليلة أمس؟

- نعم، ولكن كيف عرفت؟

- عرفتُ من هذه. وجدتها على المسند الجلدي للكرسي.

ثم رفع يده وهو يمسك بين أصابعه شعرة طويلة سوداء... شعرة امرأة!

أخرجَنا السيد بيكس من الجهة الخلفية للمنزل إلى حيث كانت توجد سقيفة صغيرة تتكئ على البيت. ثم أخرج من جيبه مفتاحاً وفتحها قائلاً: الجثة هنا. أبعدناها عن مسرح الجريمة قبل وصولكما بقليل، بعدما أنهى المصورون عملهم.

فتح الباب ودخلنا. كان القتيل ممدداً على الأرض وقد غُطي بملاءة أزاحها السيد بيكس عنه ببراعة وسرعة. كان رينو رجلاً متوسط الطول، نحيل الجسم، وبدا في نحو الخمسين من عمره، بحيث خرط الشيب كثيراً شعره الأسود. كان حليق الذقن والشارب، ذا أنف دقيق طويل وعينين ربما كانتا قريبتين قليلاً كل من الأخرى، أما بشرته فكانت برونزية تماماً كبشرة رجل قضى معظم حياته في المناطق الاستوائية، وقد تراجعت شفتاه قليلاً عن أسنانه وطُبع على قسماته الرمادية المُزرقّة تعبير دهشة تامة.

قال بوارو: يمكن للمرء أن يرى من وجهه أنه طُعن في ظهره.

ثم قام بكل هدوء بقلب جثة القتيل. وهناك بين عظمتي لوح الكتف كانت توجد بقعة دائرية غامقة تلطخ الروب البني الخفيف، وفي وسط البقعة فتحة في القماش تفحصها بوارو عن كثب ثم قال:

هل لديكم أية فكرة عن السلاح الذي ارتُكبت به الجريمة؟

- لقد تم تركه في الجرح.

ثم ذهب المفوض إلى إناء زجاجي كبير. وفي الإناء كان يوجد شيء بدا لي أقرب إلى سكين فتح الرسائل. كانت ذات قبضة سوداء وشفرة رفيعة حادة، ولم تكن كلها تزيد عن خمسة وعشرين سنتيمتراً طولاً. اختبر بوارو طرف الشفرة المُلطخ برأس إصبعه وبحذر ثم قال: يا إلهي! إنها حادة جداً! أداة صغيرة رائعة للقتل!

قال بيكس بأسف: لم نستطع العثور -مع الأسف- على أية آثار لبصمات عليها. لا بد أن القاتل ارتدى قفازات.

قال بوارو بازدراء: كان يرتديها بالطبع. حتى في سانتياغو يعرفون جيداً ضرورة ذلك، بل إن أبسط الهواة في إنكلترا يعرفه... والفضل في ذلك يعود إلى ما فعلته الصحافة من دعاية لنظام بيرتيلون في التعرف على المجرمين. ومع ذلك فإن عدم وجود بصمات يثير اهتمامي كثيراً؛ فمن السهل جداً ترك بصمات شخص آخر؛ وبذلك يفرح الشرطة!

ثم هز رأسه وقال: إنني أخشى كثيراً أن لا يكون مجرمنا امرءاً ذا منهجية. إما أنه ليس كذلك أو أن الوقت كان يضغط عليه، ولكننا سنرى.

ثم أعاد الجثة إلى وضعها السابق وقال: أرى أنه لم يكن يلبس تحت روبه إلاّ ملابسه الداخلية.

- نعم، ويرى قاضي التحقيق أن هذه نقطة غريبة.

في هذه اللحظة قُرع الباب الذي كان المفوض قد أغلقه خلفه. تقدم منه وفتحه ليجد فرانسوا هناك، وقد سعت لأن تُطل بفضول يلتذُّ بالمصائب. سألها المفوض بنزق: ما الأمر؟

- سيدتي... لقد أرسلتْ تقول إنها استعادت قوتها وهي جاهزة تماماً لاستقبال قاضي التحقيق.

قال المفوض بسرعة: جيد. أخبري السيد هوتيه أننا سنأتي على الفور.

تلكأ بوارو قليلاً وهو ينظر إلى الخلف باتجاه الرجل القتيل. وفكرتُ -لِلَحظةٍ- بأنه سيخاطب الجثة، وأنه سيعلن بصوت عالٍ تصميمه على أن لا يرتاح حتى يكتشف القاتل. ولكنه -عندما تكلم- تكلم بهدوء وبشكل غريب، وكان تعليقه غير متناسب أبداً مع جلال اللحظة؛ فقد قال بحرج: إنه يلبس روباً طويلاً جداً.

* * *

الفصل الخامس
قصة السيدة رينو

وجدنا السيد هوتيه ينتظرنا في الصالة، وصعدنا جميعاً إلى الطابق العلوي تتقدمنا فرانسوا لتدلنا على الطريق. وقد صعد بوارو الدرج وهو يغدو ويروح عليه يمنة ويسرة مما أدهشني، حتى همس قائلاً وهو يضحك: لا عجب أن يسمع الخدم السيد رينو وهو يصعد الدرج، فلا توجد درجة واحدة لا تُصرُّ صريراً يكفي لإيقاظ الموتى!

كان في أعلى الدرج ممر صغير تتفرع منه غرف، عرّفه بيكس بقوله: هذا جناح الخدم.

مضينا سائرين في رواق قرعت فرانسوا آخر باب فيه إلى اليمين. وسمعنا صوتاً خافتاً يدعونا للدخول، فدخلنا غرفة ضخمة مشمسة تطل على البحر الذي بدا أزرق لامعاً على بعد نحوٍ من نصف كيلومتر. وعلى إحدى الأرائك اضطجعت امرأة طويلة ذات وقار وقد استندت إلى الكثير من الوسائد، ووقف الدكتور ديوران يرعاها. كانت في أوسط عمرها، وشعرها الذي كان يوماً ما أسود

أصبح الآن فضياً كله تقريباً، ولكن كان من شأن حيويتها الشديدة وقوة شخصيتها أن يفرضا وجودها في أي مكان. وكان الناظر إليها يعرف على الفور أنها امرأة قديرة.

حيتنا بإيماءة جليلة من رأسها وقالت: تفضلوا بالجلوس أيها السادة.

اتخذنا مقاعدنا وجلس الموظف المرافق للقاضي خلف طاولة مستديرة. بدأ السيد هوتيه قائلاً: آمل يا سيدتي أن لا يؤلمك كثيراً أن تروي لنا ما حدث ليلة أمس؟

- أبداً يا سيدي. إنني أعرف قيمة الوقت إن كان لهؤلاء القتلة الأشقياء أن يُمسَكوا ويُعاقَبوا.

- حسنٌ جداً يا سيدتي. ربما كان من الأفضل -كيلا أتعبك- أن أطرح عليك أسئلة وتكتفي أنت بالإجابة عليها... في أي وقت ذهبتِ للنوم ليلة أمس؟

- في التاسعة والنصف؛ فقد كنتُ متعبة.

- وزوجك؟

- بعد نحو ساعة كما أظن.

- هل بدا مضطرباً... أو منزعجاً بأي شكل؟

- لا، ليس أكثر من المعتاد.

- ماذا حدث بعدها؟

- نمنا، ثم أيقظتني يدٌ تضغط على فمي. وحاولتُ الصراخ ولكن كتمت صوتي اليد الضاغطة تلك. وكان في الغرفة رجلان، وكانا مُقنَّعين كلاهما.

- أيمكن لك وصفهما يا سيدتي؟

- كان أحدهما طويلاً جداً وله لحية سوداء طويلة، وكان الآخر قصيراً بديناً وله لحية تميل إلى اللون الأحمر. وقد ارتدى الاثنان قبعات أنزلاها على أعينهما.

قال القاضي بتأمل: هممم! كانت توجد الكثير من اللحى.

- أتعني أنها كانت زائفة؟

- نعم يا سيدتي... ولكن أكملي قصتك.

- كان الرجل القصير هو الذي يمسك بي. حشر كمامة في فمي، ثم ربطني من يديّ وقدميّ بحبل. كان الرجل الآخر يقف فوق زوجي، وكان قد أخذ سكيني الصغيرة التي أفتح بها الرسائل عن طاولة الزينة وحملها موجهاً رأسها فوق قلب زوجي تماماً. وعندما فرغ الرجل القصير من شدّ وثاقي انضم إلى صاحبه، فأجبرا زوجي على النهوض ومرافقتهما إلى غرفة الملابس المجاورة. كنت على وشك الإغماء من الرعب، ومع ذلك أصغيتُ بشكل يائس.

كانا يتحدثان بنبرة منخفضة جداً بحيث لم أستطع سماع ما قالاه، ولكنني ميّزتُ اللغة؛ لغة إسبانية سيئة كتلك التي يتحدثونها في بعض مناطق أمريكا الجنوبية. بدا أنهما يطلبان من زوجي شيئاً ما، ثم سرعان ما غضبا، وارتفعت أصواتهما قليلاً. وأظن أن الرجل الطويل

كان يتكلم قائلاً: "أتعرف ما نريده؟ السر! أين هو؟". ولا أدري بماذا أجابهما زوجي، ولكن الآخر أجاب بقسوة: "أنت تكذب! نحن نعرف أنه لديك. أين مفاتيحك؟".

ثم سمعتُ أصوات أدراج تُفتح. توجد في الجدار خزنة في غرفة ملابس زوجي، وقد اعتاد أن يحتفظ فيها بمبلغ كبير جداً من المال نقداً. وقد أخبرتني ليوني بأن هذه الخزنة قد نُهبت وأُخذ المال منها، ولكن الواضح أنهما لم يجدا ما كانا يبحثان عنه، لأنني سرعان ما سمعتُ الرجل الطويل يطلق لعنة ويأمر زوجي بارتداء ملابسه. وبعد ذلك مباشرة أظن أن جلبة ما في البيت قد أزعجتهما، لأنهما دفعا زوجي بسرعة للخروج إلى غرفتي وهو لم يكمل بعدُ ارتداء ملابسه.

قاطعها بوارو قائلاً: عفواً، ولكن أليس يوجد مخرج من غرفة الملابس إلاّ إلى غرفتك؟

- نعم يا سيدي؛ لا يوجد سوى الباب الموصل بين الغرفتين. وقد دفعا زوجي منه بسرعة، وكان الرجل القصير في المقدمة، فيما كان الطويل وراءه والسكين ما تزال في يده. وقد حاول بول التخلص منهما ليأتي إليّ، ورأيتُ عينيه المتألمتين. التفت إلى خاطفيه وقال: "ينبغي أن أتكلم معها". ثم أتى إلى قرب السرير وقال: "لا بأس يا إيلواز. لا تخافي، سأعود قبل الصباح". ولكن رغم أنه حاول أن يجعل صوته واثقاً، إلاّ أنني استطعتُ رؤية الرعب في عينيه. ثم دفعاه بسرعة إلى الخارج والرجل الطويل يقول له: "صوتٌ واحد وتكون ميتاً. تذكّر ذلك". ولا بد أنني أصبتُ بالإغماء بعد ذلك؛ فالأمر التالي

الذي أذكره هو ليوني وهي تفرك معصمي وتسقيني ليموناً.

قال القاضي: سيدة رينو، هل لديك أية فكرة عما كان يبحث عنه القتلة؟

- لا، أبداً يا سيدي.

- هل لديك أية معلومات بأن زوجك كان يخشى شيئاً؟

- نعم؛ لقد لاحظتُ التغيير الذي أصابه.

- منذ متى كان ذلك؟

فكرت السيدة رينو وقالت: ربما منذ عشرة أيام.

- وليس أكثر من ذلك؟

- ربما، ولكني لم ألاحظه إلاّ وقتها.

- هل سألتِ زوجك قط عن سبب ذلك؟

- مرة واحدة، وقد تخلص من سؤالي بمراوغة. ومع ذلك فإنني كنتُ مقتنعة بأنه يعاني من قلق فظيع. ولكن بما أنه كان يرغب بإخفاء الحقيقة عني كما هو واضح، فإنني حاولتُ التظاهر بأنني لم ألاحظ شيئاً.

- هل كنتِ تعرفين بأنه طلب الاستعانة بخدمات رجل تحرٍّ؟

هتفت السيدة رينو بدهشة بالغة: رجل تحرٍّ؟

- نعم، هذا السيد... السيد هيركيول بوارو.

أحنى لها بوارو رأسه، فيما مضى القاضي قائلاً: لقد وصل السيد بوارو اليوم استجابة لنداء من زوجك.

ثم أخذ الرسالة التي كتبها السيد رينو من جيبه وسلمها للسيدة.

قرأتها بدهشة بدت صادقة، ثم قالت: ليست لدي أية فكرة عن هذه. الواضح أنه كان مدركاً تماماً للخطر.

- والآن يا سيدتي، أرجوك أن تكوني صريحة معي. هل في حياة زوجك الماضية في جنوب أفريقيا أي حادث يمكن له أن يسلط الضوء على مقتله؟

فكرت السيدة رينو بعمق، ولكنها هزّت رأسها أخيراً بالنفي وقالت: لا أستطيع التفكير بأي حادث كهذا. لقد كان لزوجي الكثير من الأعداء بالتأكيد، أناس غلبهم بشكل أو بآخر، ولكنني لا أستطيع تحديد حالة واحدة بعينها. إنني لا أقول بعدم وجود حادث كهذا، بل أقول فقط إنني لا أعرفه إن وُجد.

نقر قاضي التحقيق على لحيته بجزع وقال: وهل تستطيعين تحديد ساعة هذه الفعلة الشنيعة؟

- نعم. إنني أذكر بوضوح سماعي للساعة على رف الموقد وهي تدق الثانية.

ثم أشارت برأسها إلى ساعة منبه ذات غطاء جلدي، من تلك التي تُستخدم في السفر، تقف في وسط رف الموقد. نهض بوارو من مقعده فتفحص الساعة بدقة ثم أومأ برأسه مقتنعاً.

هتف السيد بيكس: وها هي أيضاً ساعة معصم أوقعها القتلة دون شك عن طاولة الزينة وحطموها شرّ تحطيم غير مدركين أنها ستشهد عليهم.

ثم قام بحذر بالتقاط شظايا الساعة. وفجأة تغير وجهه ووقف مشدوهاً وهتف: يا إلهي!

- ما الأمر؟

- تشير عقارب الساعة إلى السابعة!

صاح القاضي بدهشة: ماذا؟

ولكن بوارو -ببراعته المعهودة- أخذ الساعة المكسورة من المفوض المصعوق ووضعها على أذنه ثم ابتسم وقال: إن الزجاج مكسور، نعم، ونكن الساعة نفسها ما تزال تعمل.

قوبل تفسير اللغز بابتسامة ارتياح، ولكن القاضي ذكّره بنقطة أخرى: ولكن الساعة ليست السابعة الآن.

قال بوارو بلطف: نعم، إنها الخامسة وبضع دقائق. ربما كانت الساعة تُسبّق، أهي كذلك يا سيدتي؟

كانت السيدة رينو تقطب جبينها حيرة، وقد اعترفت قائلة: لقد عادت لتُسبّق، ولكنني لم أكن أعلم أبداً أنها تُسبّق لهذا الحد.

أطلق القاضي إشارة لنفاد صبره واستمر في تحقيقه: سيدتي، لقد وُجد الباب الأمامي نصف مفتوح. ويكاد يكون من المؤكد أن

القتلة قد دخلوا منه، ومع ذلك فإنه لم يُفتح بالقوة أبداً. هل تستطيعين اقتراح أي تفسير لذلك؟

- ربما كان زوجي قد خرج ليتمشى قليلاً قبل النوم ونسي أن يقفله عند عودته.

- وهل هذا تصرف محتمل منه؟

- جداً؛ فهو كان من أكثر الرجال شروداً.

كان على وجهها وهي تتكلم شيء من العبوس، وكأن هذه الخصلة في شخصية القتيل قد أزعجتها في بعض الأحيان.

قال المفوض فجأة: يمكننا الخروج باستنتاج واحد، فطالما أن الرجلين قد ألحا على السيد رينو لكي يرتدي ثيابه، فإن الأمر يبدو وكأن المكان الذي أرادا أخذه إليه، أي المكان الذي يخبئ فيه «السر»، كان بعيداً بعض الشيء.

أومأ القاضي وقال: نعم، بعيد.. ومع ذلك فإنه لم يكن بعيداً جداً، طالما أنه تحدث عن العودة صباحاً.

سأل بوارو: في أي وقت يغادر آخرُ القطارات بلدة ميرلنغفيل؟

- يوجد قطاران يغادر أولهما الساعة ١١,٥٠ والثاني ١٢,١٧ إلى وجهتين مختلفتين، ولكن الأرجح أنه كانت لدى الرجلين سيارة تنتظر.

وافقه بوارو وهو يبدو مذهولاً بعض الشيء: بالطبع.

أكمل قاضي التحقيق وقد تهلل وجهه: الحقيقة أن هذا قد يكون إحدى طرق تعقُّبهما. إن سيارة تحمل شخصين أجنبيين يُحتمل كثيراً أن تتم ملاحظتها. هذه نقطة ممتازة يا سيد بيكس.

وابتسم لنفسه، ولكنه عاد فتجهّم مرة أخرى وقال للسيدة رينو: لديّ سؤال آخر، هل تعرفين أحداً باسم «دوفين»؟

كررت السيدة رينو بتأمل: دوفين؟ كلا، لا أستطيع القول إنني أعرف أحداً بهذا الاسم.

- ألم تسمعي زوجك يذكر أحداً بهذا الاسم قط؟

- أبداً.

- أتعرفين امرأة اسمها الأول بيلا؟

راقب السيدة رينو عن كثب وهو يتكلم بحثاً عن أية علامة غضب أو معرفة بالمرأة، ولكنها اكتفت بهزّ رأسها بالنفي بصورة طبيعية تماماً، فاستمر في أسئلته: هل تعلمين أن زوجك استقبل ضيفة ليلة أمس؟

الآن رأى الحمرة تتصاعد بشكل طفيف في وجنتي المرأة، ولكنها أجابت برباطة جأش: لا. مَن هي؟

- سيدة.

- حقاً؟

ولكن القاضي كان مكتفياً في الوقت الحاضر بهذا القدر من الموضوع؛ فقد بدا أن من غير المحتمل أن تكون للسيدة دوبريه أية

علاقة بالجريمة، كما أنه كان حريصاً على عدم إزعاج السيدة رينو أكثر من الضروري. أشار للمفوض فاجابه بإيماءة من رأسه، ثم نهض المفوض فمضى إلى آخر الغرفة ليعود حاملاً الإناء الزجاجي الذي رأيناه في السقيفة، وأخرج منه السكين.

قال القاضي بلطف: سيدتي، هي تعرفين هذا؟

صدرت عنها صيحة خفيفة وقالت: نعم، إنه سكّيني الصغير.

ثم رأت شفرته الملطخة فأمالت رأسها إلى الخلف رعباً وقالت: أهذا... دمٌ؟

- نعم يا سيدتي. لقد قُتل زوجك بهذا السلاح.

أبعد السكين بسرعة عن الأنظار وقال: أأنت واثقة تماماً أنه هو الذي كان على طاولة زينتك ليلة أمس؟

- آه، نعم. لقد كان هدية من ابني. كان يخدم في سلاح الطيران أثناء الحرب، وقد كذب فيما يخص عمره وادعى أنه أكبر من عمره الحقيقي.

قالت ذلك بشيء من فخر الأم بولدها، وأضافت: لقد صُنع هذا الخنجر من أسلاك طائرة محطمة، وأهداني إياه ولدي كذكرى من أيام الحرب.

- فهمتُ يا سيدتي. وهذا يقودنا إلى موضوع آخر. أين هو ابنك الآن؟ من الضروري أن تُرسل له برقية دون أي تأخير.

- جاك؟ إنه في طريقه إلى بيونوس أيريس.

- ماذا؟

- نعم. لقد أبرق له زوجي يوم أمس. كان قد أرسله في عمل إلى باريس، ولكنه اكتشف بالأمس أن من الضروري له أن يمضي إلى أمريكا الجنوبية دون تأخير. وكانت إحدى السفن في سبيلها إلى مغادرة تشيربورغ إلى بيونوس أيريس ليلة أمس، وقد أبرق له ليلحق بها.

- هل لديك أية معرفة بطبيعة ذلك العمل في بيونوس أيريس؟

- لا، لا أعرف شيئاً عن طبيعته، ولكن بيونوس أيريس ليست الوجهة النهائية لابني، فهو سيسافر من هناك براً إلى سانتياغو.

هتف القاضي والمفوض في وقت واحد: سانتياغو! سانتياغو من جديد!

في تلك اللحظة، ونحن مذهولون جميعاً لذكر تلك الكلمة، اقترب بوارو من السيدة رينو. كان قبل ذلك واقفاً قرب النافذة كرجل تاه في الأحلام، وأشك في أنه قد فهم ما جرى قبل ذلك. توقف قليلاً قرب السيدة وقال وهو ينحني قليلاً: عفواً يا سيدتي، هل لي أن أتفحص معصميك؟

ومع أن السيدة قد دُهشت قليلاً من طلبه، إلاّ أنها مدت معصميها أمامه. وحول كل منهما كانت توجد علامة حمراء شديدة حيث عضّت الحبال على اللحم. وتخيلتُ -وهو يفحصهما- أن أثراً مؤقتاً من الانفعال الذي رأيته في عينيه قد اختفى، ثم قال وقد بدا

متحيراً مرة أخرى: لا بد أن ذلك قد سبب لك ألماً عظيماً.

ولكن القاضي مضى يقول بانفعال: ينبغي أن يتم الاتصال فوراً بالسيد الشاب رينو عن طريق اللاسلكي. إن من الحيوي أن نعرف أي شيء بمقدوره أن يخبرنا إياه عن هذه الرحلة إلى سانتياغو.

ثم تردد قليلاً وقال: كنتُ آمل أن يكون قريباً، بحيث يمكن لنا أن نجنّبكِ الكثير من الألم.

ثم سكت، فقالت السيدة رينو: أتعني مسألة التعرف إلى جثة زوجي؟

أومأ القاضي برأسه موافقاً، فقالت: إنني امرأة قوية يا سيدي، وأستطيع تحمل كل ما هو مطلوب مني. إنني جاهزة... الآن.

- آه، أؤكد لكِ أن لدينا مُتسعاً من الوقت حتى الغد...

قالت بنبرة منخفضة وقد عبرت وجهها نوبة ألم: أفضّل الانتهاء من ذلك الآن. هلا تكرّمتَ بمد ذراعك لإسنادي يا دكتور؟

تقدم الطبيب بسرعة، وتم إلقاء رداء على كتفي السيدة رينو، ثم نزلت المجموعة ببطء على الدرج. سبقهم المفوض بيكس بسرعة لفتح السقيفة، وما هي إلاّ لحظات حتى ظهرت السيدة رينو في مدخل السقيفة. كانت شديدة الشحوب، ولكنها عازمة مصممة. رفعت يدها إلى وجهها وقالت: لحظة يا سادتي حتى أتمالك نفسي.

أبعدت يدها ونظرت إلى الرجل الميت، وعندها خذلتها رباطة الجأش الرائعة التي جعلتها تتماسك حتى الآن. صاحت: بول... زوجي! آه، يا إلهي!

ثم مالت إلى الأمام وسقطت مغشياً عليها.

وبلحظة كان بوارو بقربها، حيث رفع جفنها وتحسس نبضها. وعندما أقنع نفسه بأنها قد فقدت الوعي حقاً تنحى جانباً، ثم أمسك بذراعي وقال: إنني مغفل يا صديقي! لئن كان في صوت امرأة يوماً حب وحزن فإنني سمعتُه الآن. لقد كانت فكرتي الصغيرة خاطئة كلها. حسناً... يجب أن أبدأ من جديد!

* * *

الفصل السادس
مسرح الجريمة

اشترك الطبيب والسيد هوتيه في حمل السيدة الغائبة عن الوعي إلى المنزل. ونظر المفوض وراءه وهو يهز رأسه، ثم تمتم مع نفسه: امرأة مسكينة. كانت الصدمة أكبر من أن تتحملها. حسناً، إننا لا نستطيع فعل شيء. والآن يا سيد بوارو، هل نزور المكان الذي ارتُكبت فيه الجريمة؟

- إذا سمحتَ يا سيد بيكس.

عبرنا من داخل المنزل، وخرجنا من الباب الأمامي. كان بوارو قد رفع بصره لينظر إلى الدرج وهو يعبر من هناك، ثم هزّ رأسه بعدم اقتناع وقال: إنه أمر لا يصدَّق بالنسبة لي أن لا يسمع الخدم شيئاً. إن صرير ذلك الدرج -مع وجود ثلاثة أشخاص ينزلونه- من شأنه إيقاظ الموتى!

- تذكر أن ذلك كان في منتصف الليل، وكانوا في أعمق فترات النوم عندها.

ولكن بوارو استمر في هزّ رأسه وكأنه لا يقبل ذلك التفسير. وعندما أصبحنا على الممشى الخارجي أمام البيت توقف لينظر إلى المنزل، وقال: ما الذي دفعهما بدايةً إلى محاولة تجربة ما إذا كان الباب الأمامي مفتوحاً؟ فقد كان هذا الاحتمال مستبعداً جداً، وكان التصرف الأولى منهما أن يجربا فوراً فتح إحدى النوافذ.

اعترض المفوض قائلاً: ولكن نوافذ الطابق الأرضي كلها محمية بقضبان حديدية.

أشار بوارو إلى نافذة في الطابق الأول وقال: تلك هي نافذة غرفة النوم التي نزلنا منها لتوّنا، أليس كذلك؟ وانظر هناك... توجد شجرة يمكن أن يكون تسلقها وصولاً إلى النافذة أسهل مهمة في العالم.

اعترف المفوض قائلاً: ربما، ولكن لم يكن بإمكانهما فعل ذلك دون أن يتركا آثاراً لأقدامهما في مسكبة الورود هنا.

رأيتُ وجاهة كلامه؛ فقد كانت تقوم على جانبي الدرج المُفضي إلى الباب الأمامي مسكبتا ورد بيضاويتان كبيرتان مزروعتان بالورود القرمزية. وكان جذع الشجرة المقصودة في الجانب البعيد من المسكبة نفسها، بحيث يكون من المستحيل الوصول إليها دون الدوس على تراب المسكبة.

أكمل المفوض قائلاً: أترى، إن آثار الأقدام لا يمكن أن تُرى على الممر أو الممشى بسبب جفاف الطقس، أما على الوجه الطيني للمسكبة فستكون الأمور مختلفة كثيراً.

ذهب بوارو قريباً من المسكبة وتفحصها بكل دقة. وكما قال بيكس، كان وجه الطين أملس تماماً، ليس عليه أي أثر.

أومأ بوارو برأسه كما لو أنه قد اقتنع، واستدرنا للمضي، ولكنه تركنا فجأة وبدأ يتفحص مسكبة الورود الثانية، ثم نادى: سيد بيكس! انظر هنا. هنا توجد لك الكثير من الآثار.

انضم إليه المفوض وهو يبتسم وقال: يا سيدي العزيز بوارو، لا شك أن هذه آثار الحذاء الثقيل للبستاني. وعلى أية حال فليست لها أية أهمية، طالما أن هذا الجانب يخلو من أية شجرة، وبالتالي لا توجد أية طريقة لدخول الطابق العلوي.

قال بوارو متظاهراً بالدهشة: صحيح. أأنت ترى -إذن- أن آثار الأقدام هذه ليست لها أهمية؟

- ليست لها أدنى أهمية أبداً.

وعندها، ولدهشتي الشديدة، قال بوارو: أنا لا أتفق معك. إن لديّ فكرة صغيرة تقول إن آثار الأقدام هذه هي أهم ما شاهدناه حتى الآن.

لم يقل السيد بيكس شيئاً، بل اكتفى بأن رفع كتفيه بشيء من اللامبالاة؛ فقد كان أكثر أدباً من أن يُعبّر عن رأيه الحقيقي، وبدلاً من ذلك سأل: هل نمضي؟

قال بوارو بمرح: بالتأكيد... يمكنني التحقق من مسألة آثار الأقدام هذه فيما بعد.

وبدل أن يمضي السيد بيكس في الممشى وصولاً إلى البوابة انعطف في ممر يتفرع عنه بزاوية قائمة إلى اليمين. وقد قادنا هذا الممر المنحدر قليلاً مُنعطِفاً إلى يمين البيت، وكان محفوفاً على جانبيه بنوع من الشجيرات. وفجأة انتهى الممر بفسحة صغيرة كان بوسع المرء أن يرى منها البحر. كان مقعدٌ قد نُصب هنا، وفي مكان لا يبعد عنه كثيراً سقيفة خربة بعض الشيء، وعلى بعد بضع خطوات منها امتدّ خطٌّ مرتب من الأغصان الصغيرة التي تُشكّل حدود أراضي الفيلا. شق السيد بيكس طريقه عبر تلك الأغصان، فوجدنا أنفسنا أمام سهول فسيحة مفتوحة. نظرتُ حولي فرأيت شيئاً أثار دهشتي فصحتُ قائلاً: ما هذا؟ إنه ملعب غولف.

أومأ بيكس برأسه وقال: لم يكتمل ملعب الغولف بعد، من المؤمل أن يكون بالإمكان افتتاحه الشهر القادم. إن مَن اكتشف الجثة صباح اليوم هم بعض الرجال الذين يعملون في الملعب.

صدرت عني شهقة؛ فإلى اليسار مني كانت حفرة طويلة غفلتُ عنها للحظات، وقرب الحفرة تمدّدت جثة رجل وجهه إلى الأسفل! ضرب قلبي بقوة للحظات، وانتابني خيال جامح بأن المأساة قد أصبحت مضاعفة. ولكن المفوض بدد أوهامي إذ تقدم إلى الأمام وهو يعبر عن انزعاجه بكل قوة: ما الذي يفعله شرطتي؟ إن لديهم أوامر صارمة بعدم السماح بدخول أحد لا يملك تخويلاً مناسباً!

أدار الرجل وجهه وقال: ولكنّ لديّ تخويلاً مناسباً.

ثم نهض واقفاً، فصاح المفوض: يا عزيزي جيرو، لم أعلم أنك وصلت. لقد كان قاضي التحقيق ينتظرك على أحرّ من الجمر.

كنتُ -أثناء كلامه- أراقب القادم الجديد بفضول شديد؛ فقد كنتُ أعرف بالاسم رجل التحري الشهير هذا الذي يعمل في دائرة الأمن في باريس، ولكنني كنتُ في غاية الاستمتاع بلقائي به شخصياً. كان طويلاً جداً، في نحو الثلاثين من عمره، ذا شعر وشارب يضرب إلى الحمرة، وهيئة عسكرية. وكان في سمته أثر للغرور، الأمر الذي يُظهر أنه كان مدركاً تماماً لأهميته. وقام بيكس بتعريفه بنا، مُقدّماً بوارو كزميل. بدا قليلٌ من الاهتمام في عيني رجل التحري وقال: إنني أعرفك بالاسم يا سيد بوارو. لقد حققت شهرة كبيرة في الأيام الخوالي، أليس كذلك؟ ولكن الأساليب قد اختلفت تماماً الآن.

قال بوارو بلطف: ومع ذلك فالجرائم ما زالت نفسها إلى حد بعيد.

رأيتُ على الفور أن جيرو كان مستعداً لاتخاذ موقف عدائي؛ فقد غضب من تقديم بوارو كزميل مساوٍ له، وشعرتُ أنه لو قُدّر له أن يعثر على أي دليل ذي أهمية فإنه سيبقيه لنفسه على الأرجح.

عاد بيكس ليقول: إن قاضي التحقيق...

ولكن جيرو قاطعه بوقاحة قائلاً: تباً لقاضي التحقيق! إن الضوء هو العامل المهم، وبعد نصف ساعة لن يبقى ضوء يساعدنا في أي مسعى عملي. إنني أعرف كل شيء عن القضية، وبوسع الناس في البيت أن ينتظروا حتى الغد، ولكن إن كان لنا أن نعثر على أي دليل على هوية القتلة فهذه هي البقعة التي سنجده فيها. أهُم شرطتك الذين كانوا يعبثون في هذه البقعة على هذا النحو؟ ظننتُ أن الشرطة أصبحوا أحرص من أن يفعلوا ذلك في هذه الأيام.

- إنهم حريصون بالفعل. إن الآثار التي تشكو منها قد تركها العمال الذين اكتشفوا الجثة.

زفر المحقق باشمئزاز وقال: أستطيع رؤية الآثار التي تركها الثلاثة حيث خرجوا من السياج... ولكنهما كانا ماكرين؛ فبوسعك أن تميز آثار الأقدام الوسطى فقط، باعتبارها أقدام السيد رينو، ولكن الآثار التي على الجانبين قد تم محوها بكل حرص. رغم أنها ما كانت لتُرى بوضوح أساساً على هذه الأرض الصلبة، ولكنهما لم يريدا المجازفة بأي خطأ.

قال بوارو: العلامات الخارجية... أهذا ما تبحث عنه؟

حدق إليه رجل التحري الآخر وقال: بالطبع.

تراءت على وجه بوارو ابتسامة خفيفة جداً. بدا وكأنه على وشك الكلام، ولكنه ضبط نفسه. انحنى إلى حيث كان رفش مُلقى، فقال جيرو: بهذا تم حفر القبر دون شك. ولكنك لن تحصل على شيء منه؛ فهو رفش رينو الخاص، والرجل الذي استخدمه كان يرتدي قفازين... ها هما.

ثم أشار بقدمه إلى حيث كان زوج من القفازات الملطخة بالتراب وقال: وهما قفازا رينو أيضاً... أو قفازا بستانيّه على الأقل. وكما قلتُ لك، إن الرجلين اللذين نفذا هذه الجريمة لم يكونا مستعدَّيْن للمجازفة أبداً. لقد طُعن الرجل بخنجره الخاص، وكان من شأنه أن يدفن برفشه الخاص. لقد كانا يراهنان على عدم ترك أية آثار! ولكنني سأغلبهما. يوجد دائماً شيء ما! وإنني مصمم على العثور عليه.

ولكن بدا من الواضح أن بوارو كان مهتماً الآن بشيء آخر، قطعة قصيرة متغيرة اللون من أنبوب رصاصي كانت قرب الرفش. لمسها برقّة بأصبعه وسأل: وهل تعود هذه أيضاً للرجل القتيل؟

وأظنني لمستُ في نبرته -وهو يسأل- أثراً لا يكاد يُحَس من السخرية.

رفع جيرو كتفيه ليشير إلى أنه لا يعرف ولا يهتم، ثم قال: ربما كانت مرمية هناك منذ أسابيع، وهي لا تهمني على أية حال.

قال بوارو بعذوبة: أما أنا فأجدها مهمة جداً.

وقد خمنتُ أنه لم يكن يريد بذلك إلاّ إزعاج رجل التحري الباريسي. ولئن كان الأمر كذلك فقد نجح في إزعاجه، فقد استدار الآخر مبتعداً بوقاحة، قائلاً إنه لا يملك وقتاً يضيعه، ثم انحنى وتابع تفتيشه الدقيق في الأرض.

وفي هذه الأثناء عاد بوارو فجأة كمن خطر له خاطر فعبر السياج وحاول فتح باب السقيفة الصغيرة الخربة. ناداه جيرو وقد التفت إليه: إنها مقفلة، ثم إنها مجرد مكان يضع فيه البستاني عدته. الرفش لم يأتِ من هنا، ولكن من سقيفة الأدوات قرب المنزل.

تمتم السيد بيكس قائلاً بحماسة: إنه رائع. لم يمض على مجيئه إلى هنا نصف ساعة، وها هو يعرف كل شيء! يا له من رجل! لا شك أن جيرو أفضل رجل تحرٍّ على قيد الحياة الآن.

ومع أنني كرهت جيرو من كل قلبي، إلاّ أنني شعرت سراً بالإعجاب به. لم أملك إلاّ أن أشعر بأن بوارو لم يميز نفسه كثيراً

حتى الآن، وقد أغاظني ذلك. بدا أنه يوجه انتباهه إلى كل أنواع المسائل الصبيانية السخيفة التي لا علاقة لها بالقضية، وقد سأل فجأة في هذا الوقت الحرج: أخبرني من فضلك يا سيد بيكس، ما معنى هذا الخط الأبيض من محلول الكلس الذي يمتد حول القبر كله؟ أهو من صنع الشرطة؟

- كلا يا سيد بوارو، إنها مسألة تخص ملعب الغولف، وهو يشير إلى أن حفرة رملية سيتم إنشاؤها هنا.

- حفرة رملية؟

التفت بوارو إليّ وقال: أهي تلك الحفرة التي تُحفر دون شكل هندسي محدد وتُملأ بالرمل ثم تُجعل لها حافة رملية هدفها الإعاقة؟

أجبتهُ بالإيجاب، فسأل: لا شك أن السيد رينو كان يلعب الغولف، أليس كذلك؟

- بلى، لقد كان لاعب غولف ماهراً. والفضل يعود له ولتبرعاته في استمرار العمل في هذا الملعب. بل كان له رأي في تصميمه أيضاً.

أومأ بوارو برأسه متأملاً، ثم قال: لم يكن خيارهما موفقاً... في هذه البقعة لدفن الجثة. فعندما يبدأ الرجال الحفر سرعان ما سينكشف كل شيء.

صاح جيرو بزهو: بالضبط، وهذا يُثبت أنهما كانا غريبين عن المنطقة. إنه دليل رائع غير مباشر.

قال بوارو بارتياب: نعم، ليس من شأن أحد ذي معرفة أن يدفن جثة هناك... ما لم يكن يريد لها أن تُكتشف. وواضح أن هذه فرضية سخيفة، أليس كذلك؟

لم يكلف جيرو نفسه حتى عناء الرد.

قال بوارو بصوت ليس فيه الكثير من الاقتناع: نعم، نعم... لا شك أنها فرضية سخيفة!

* * *

الفصل السابع

السيدة الغامضة دوبريه

ونحن نعود أدراجنا إلى البيت اعتذر السيد بيكس لتركنا قائلاً إن عليه أن يخبر قاضي التحقيق بوصول جيرو، أما جيرو نفسه فقد سُرّ بشكل واضح عندما قال بوارو إنه قد رأى كل ما يريد رؤيته. وكان آخر ما لاحظناه ونحن نغادر المكان هو جيرو وقد جثا يزحف على أربع في بحث دقيق شامل لم أجد بُداً من الإعجاب به. وقد خمّن بوارو أفكاري، ذلك أنه قال ساخراً بمجرد أن أصبحنا وحيدَيْن: لقد رأيتَ -أخيراً- رجل التحري الذي يعجبك... كلب الصيد البشري! أليس كذلك يا صديقي؟

قلتُ بحدة: إنه على الأقل يفعل شيئاً. وإن كان من شيء يمكن العثور عليه فسيعثر عليه. أما أنت...

- حسناً! أنا أيضاً وجدتُ شيئاً. قطعة من أنبوب رصاصي!

- هراء يا بوارو. أنت تعلم علم اليقين أن لا علاقة لهذه بالجريمة. إنني أعني الأشياء الصغيرة... إننا نحتاج إلى الآثار التي يمكن أن تقودنا إلى القتلة دون خطأ.

- يا صديقي، إن دليلاً تجده بطول قدمين لا يقل أهمية أبداً عن دليل آخر لا يعدو بضع مليمترات! ولكن الفكرة الرومانسية هي التي تقول إن كل الأدلة الهامة ينبغي أن تكون بالغة الصغر. أما بالنسبة لقطعة الأنبوب الرصاصي وعدم علاقتها بالجريمة فإنك تقول ذلك لأن جيرو قاله.

وعندما حاولتُ التدخل بسؤال قال بسرعة: لا، لن أقول المزيد. دع جيرو لبحثه ودعني أنا لأفكاري. إن القضية تبدو مستقيمة عادية تماماً، ومع ذلك... ومع ذلك يا صديقي فأنا لستُ مقتنعاً! وهل تدري لماذا؟ بسبب ساعة المعصم التي تُسبّق ساعتين، ثم بسبب العديد من النقاط الصغيرة الغريبة التي لا تبدو مُتسقة مع الأمر كله. فمثلاً: إن كان هدف القتلة الانتقام، فلماذا لم يطعنوا السيد رينو في فراشه وينهوا الأمر؟

ذكّرتُه قائلاً: لقد أرادوا «السر».

أزاح بوارو عن كُمّه ذرة غبار بأسلوب يدل على عدم الاقتناع وقال: حسناً، أين هذا «السر»؟ يُفترض أنه يبعد مسافة معينة، طالما أنهما أرادا منه ارتداء ملابسه. ومع ذلك فقد وُجد مقتولاً في مكان قريب، بل في مكان يكاد يكون على مرأى ومسمع ممن في البيت. وثمة أمر آخر: أهي محض مصادفة أن يُلقى سلاح مثل ذلك السكين هكذا دون اهتمام قريباً من متناول الأيدي؟

سكتَ قليلاً وهو متجهم الوجه، ثم مضى يقول: لماذا لم يسمع الخدم شيئاً؟ هل كانوا مخدرين؟ هل كان في الجريمة شريك، وهل حرص ذلك الشريك على إبقاء الباب الأمامي مفتوحاً؟ إنني

أتساءل إن...

كنا قد وصلنا إلى الممشى قرب البيت، وفجأة توقف والتفت إليّ قائلاً: يا صديقي، إنني سأدهشك... سأسرُّك. لقد أثّرت فيّ توبيخاتك تماماً؛ ولذا فسوف نتفحص بعض آثار الأقدام!

- أين؟

- في تلك المسكبة اليمنى هناك. يقول السيد بيكس إنها آثار أقدام البستاني... لنرَ إن كان الأمر كذلك. انظر، ها هو البستاني يقترب دافعاً عربته.

وبالفعل، كان رجل كهل يعبر الممشى وهو يدفع عربة محملة بالشتلات. ناداه بوارو فأسند عربته إلى الأرض وجاء يسعى نحونا.

سألتُ بوارو لاهثاً وقد عادت إليّ بعض الثقة فيه، فقد قال إن آثار الأقدام في هذه المسكبة اليمنى مهمة، وربما كانت كذلك... سألته: هل ستطلب منه فردة حذائه لتقارنها بآثار الأقدام؟

- بالضبط.

- ولكن ألن يرى أن ذلك غريب جداً؟

- لن يفكر بالأمر على الإطلاق.

لم نستطع قول المزيد إذ وصل الرجل إلينا.

- هل أردتني لشيء يا سيدي؟

- نعم. لقد كنتَ بستانياً هنا لفترة طويلة، أليس كذلك؟

- لأربع وعشرين سنة يا سيدي.

- وما هو اسمك؟

- أوغست يا سيدي.

- لقد كنتُ أبدي إعجابي بهذه الورود الرائعة؛ إنها حقاً فريدة الجمال. هل زرعتها منذ زمن طويل؟

- منذ بعض الوقت يا سيدي. ولكن حتى يحافظ المرء على منظر جميل لمسكبة ورود عليه -طبعاً- أن يستمر في زرع ورود جديدة، وقلع تلك التي انتهى عمرها، بالإضافة إلى قطف الورود القديمة باستمرار.

- لقد زرعتَ بعض الورود الجديدة يوم أمس، أليس كذلك؟ تلك الموجودة في الوسط هناك، وفي المسكبة الأخرى أيضاً.

- إن لسيدي نظراً حاداً. يستغرق قطف الورود القديمة عادةً يوماً أو بعض يوم. نعم، لقد زرعتُ عشر شتلات جديدة في كل مسكبة ليلة أمس. ولا شك أن سيدي يعرف أن المرء ينبغي أن لا يزرع الشتلات عندما تكون الشمس حارة.

كان أوغست قد افتُتن باهتمام بوارو وبدا مستعداً تماماً للثرثرة.

قال بوارو وهو يشير إلى إحدى شجيرات الورد: تلك وردة رائعة هناك... هل لك أن تقطع لي منها وردة؟

- بالتأكيد يا سيدي.

ثم خطا الرجل إلى المسكبة وقطف بحذر وردة من الشجيرة التي أشار بوارو إليها.

كان بوارو مسهباً في ما بذله من شكر، ومضى أوغست إلى عربته. قال بوارو وهو ينحني على المسكبة ليتفحص آثار الحذاء الثقيل للبستاني: أرأيت؟ الأمر في غاية البساطة.

- إنني لم أدرك...

- بأن القدم ستبقى داخل الحذاء! إنك لا تستخدم قدراتك العقلية الفذة بشكل كاف. حسناً، ماذا عن آثار الأقدام؟

قلت بعد تفحص دقيق: كل الآثار التي في المسكبة تعود لحذاء واحد.

- أتظن ذلك؟ حسناً! إنني أتفق معك.

بدا غير مهتم أبداً، وكأنه يفكر في أمر آخر. قلت له: على كل حال، هكذا تكون قد تخلصت من أمر يشغلك.

- ماذا تعني؟

- أعني أنك لن تهتم بعد الآن بمسألة آثار الأقدام.

ولكن بوارو -لدهشتي- هزّ رأسه بالنفي وقال: كلا، كلا يا صديقي. إنني أخيراً أسير في الطريق الصحيح. صحيح أن الجريمة ما تزال غامضة بالنسبة لي، ولكن كما قلتُ للسيد بيكس، فإن آثار الأقدام هذه هي أهم الأشياء في هذه القضية! يا لذلك المسكين جيرو... لن أستغرب إذا ما أغفل أمرها تماماً.

في تلك اللحظة فُتح الباب الأمامي، ونزل السيد هوتيه والمفوض على الدرج. قال القاضي: آه، سيد بوارو، لقد كنا

قادمين للبحث عنك. لقد تأخرنا قليلاً، ولكني أود القيام بزيارة للسيدة دوبريه. لا شك أنها ستكون منزعجة جداً لوفاة السيد رينو، وربما كنا محظوظين بالحصول على دليل منها، فلعلّ القتيل قد أفضى للمرأة التي استعبدته بحبها بالسر الذي أخفاه عن زوجته. إننا نعرف نقطة الضعف لدى شمشوننا، أليس كذلك؟

لم نقل المزيد، بل انتظمنا في صفين وخرجنا. مشى بوارو مع قاضي التحقيق، ومشيت أنا والمفوض على بعد خطوات منهما.

قال لي المفوض بنبرة سرية: لا شك بأن رواية فرانسوا صحيحة إلى حد بعيد. لقد اتصلت بالمركز هاتفياً، ويبدو أن السيدة دوبريه قد قامت خلال الأسابيع الستة الماضية (أي منذ وصول السيد رينو إلى ميرلينفيل) بإيداع مبالغ نقدية ضخمة في حسابها المصرفي. والمبلغ بمجموعه يصل إلى نحوٍ من مئتي ألف فرنك!

قلتُ وأنا أفكر: يا إلهي، لا بد أن ذلك يساوي نحواً من أربعة آلاف جنيه!

- بالضبط. نعم، لا يمكن أن يوجد شكٌّ في أنه كان مفتوناً بها. ولكن يبقى أن نرى إن كان قد أفضى لها بسره. إن لدى قاضي التحقيق أملاً، أما أنا فلا أكاد أشاركه رأيه.

خلال هذا الحديث كنا نمشي في الشارع نحو ذلك المفترق في الطريق حيث توقفت سيارتنا في وقت مبكر من بعد الظهر، وبعد لحظة أدركتُ أن فيلا مارغريت التي تسكنها السيدة الغامضة دوبريه هي نفسها البيت الصغير الذي أطلت منه الفتاة الجميلة.

قال المفوض وهو يومئ برأسه نحو البيت: لقد عاشت هنا لسنوات طويلة، بهدوء تام، ودون أي تدخل أو فضول. ويبدو أنها لا تملك أي صداقات أو أقارب غير المعارف الذين تعرفتْ إليهم في ميرلينفيل. إنها لا تذكر الماضي أبداً، ولا تذكر زوجها. بل إن المرء لا يعرف إن كان ميتاً أم على قيد الحياة. إن في حياتها لغزاً إن كنتَ تفهمني.

أومأت برأسي وقد تعاظم اهتمامي. ثم جازفتُ وقلت: وماذا عن... الابنة؟

- إنها شابة جميلة حقاً... متواضعة ومؤدبة وفيها كل الصفات الحسنة. إن المرء يرثي لحالها، فرغم أنها قد لا تعرف شيئاً عن الماضي إلاّ أن أي رجل يريد طلب يدها للزواج لا بد أن يطلب معلومات عنها، وعندها...

ثم رفع المفوض كتفيه بشيء من الشك اليائس، فصحتُ أنا بسخط متزايد: ولكن الذنب لن يكون ذنبها!

- نعم، ولكن ماذا يمكن للمرء أن يفعل؟ إن الرجل يهتم ببحث سوابق زوجته والتعرف إلى عائلتها.

منعني الوصول إلى باب البيت من الاستمرار في النقاش. قرع السيد هوتيه الجرس، ومضت بضع دقائق ثم سمعنا وقع خطوات في الداخل، وانفتح الباب. وعلى العتبة وقفت جميلتي التي رأيتها بعد الظهر. وعندما رأتنا غاض اللون في وجنتيها وغدا وجهها أبيض كالموتى واتسعت عيناها خوفاً. لم يكن شك في أنها كانت خائفة.

قال السيد هوتيه وهو ينزع قبعته: آنسة دوبريه... نأسف كثيراً لإزعاجكم، ولكنها مقتضيات القانون الطارئة، أتفهمينني؟ أبلغي تحياتي إلى السيدة والدتك، واسأليها إن كان بوسعها أن تتلطف بمنحي بضع دقائق لمقابلتها.

وقفت الفتاة دون حركة للحظات. كانت يدها اليسرى تضغط على جانبها، وكأنها تريد تسكين الانفعال الشديد المفاجئ لقلبها. وأخيراً سيطرت على نفسها وقالت بصوت خافت: سأذهب وأرى، تفضلوا بالدخول رجاء.

دخلتْ غرفة إلى الشمال من الصالة، وسمعنا همهمة صوتها الخافتة، ثم سمعنا بعد ذلك صوتاً آخر بنفس النبرة، ولكن في امتلائه الناضج رخامة أقوى قليلاً. قال الصوت: بالتأكيد، اطلبي منهم الدخول.

وبعد دقيقة أخرى كنا نقف وجهاً لوجه مع السيدة الغامضة دوبريه. لم تكن بمثل طول ابنتها، ولكنها كانت أكثر امتلاء. وعلى عكس ابنتها أيضاً، كان شعرها أسود مفروقاً من المنتصف، وكانت عيناها الزرقاوان نصف مخفيتين بالرموش المسدلة. ومع أنها كانت محافظة على شكلها بصورة جيدة، إلاّ أنها بالتأكيد لم تعد شابة، ولكن سحرها كان من تلك النوعية التي لا علاقة لها بالعمر.

سألت: هل أردت رؤيتي يا سيدي؟

تنحنح السيد هوتيه وقال: نعم يا سيدتي. إنني أحقق في وفاة السيد رينو. لا شك أنك سمعتِ بها؟

أومأت برأسها دون أن تتكلم، ولم تتغير تعابير وجهها.

- لقد جئنا لنسألك إن كان بوسعك أن... أن تلقي أي ضوء على الظروف التي أحاطت بها؟

- أنا؟

كانت دهشة نبرتها رائعة.

- نعم يا سيدتي. لدينا من الأسباب ما يدفعنا إلى الاعتقاد بأنك كنتِ معتادة على زيارة القتيل في بيته في بعض الليالي. هل الأمر على هذا النحو؟

تصاعد الدم إلى وجنتي السيدة الشاحبتين، ولكنها أجابت بهدوء: لا حق لك في أن تسألني مثل هذا السؤال.

- سيدتي، إننا نحقق في جريمة قتل.

- حسناً، وماذا في ذلك؟ لا علاقة لي بجريمة القتل.

- نحن لا نقول إن لك علاقة بها يا سيدتي، ولكنك كنتِ تعرفين القتيل معرفة جيدة، فهل أفضى لك بأي خطر يهدده؟

- أبداً.

- هل سبق له أن أشار -قط- إلى حياته في سانتياغو، أو أي أعداء له هناك؟

- كلا.

- ألا يمكنك -إذن- أن تساعدينا بأي شكل؟

- أخشى أن لا أستطيع. إنني لا أفهم حقاً لماذا تأتون إلي...

ألا تستطيع زوجته إخباركم بما تريدون؟

كان في صوتها أثر خفي من السخرية.

- لقد أخبرتنا السيدة رينو بكل ما تستطيعه.

قالت السيدة دوبريه: آه! إنني لأتساءل...

- عن أي شيء تتساءلين يا سيدتي؟

- لا شيء.

نظر إليها قاضي التحقيق. كان يعي بأنه في مبارزة معها، وأن أمامه خصماً عنيداً.

- هل تصرين على قولك بأن السيد رينو لم يُفضِ لك بشيء؟

- ولماذا تظن أن من المحتمل أن يكون قد أفضى لي بشيء؟

قال السيد هوتيه بقسوة محسوبة: لأن الرجل -يا سيدتي- يقول لخليلته ما لا يقوله عادة لحليلته.

قالت بعنف: "آه!"، ثم انتفضت واقفة وعيناها تقدحان شرراً وقالت: سيدي، إنك تهينني! وأمام ابنتي! لا أستطيع إخبارك شيئاً. ويرجى أن تتفضلوا بمغادرة البيت!

غدت الكلمة دون شك للسيدة، وغادرنا فيلا مارغريت كطلبة مدرسة يجللهم الحرج والعار. دمدم القاضي كلمات غاضبة مع نفسه، وبدا بوارو غارقاً في أفكاره. وفجأة تنبه من أحلام يقظته جفلاً وسأل السيد هوتيه إن كان في المنطقة فندق جيد قريب.

- يوجد فندق صغير يدعى دي بين عند طرف البلدة، على بعد بضع مئات من الأمتار في هذا الشارع. سيكون هذا مكاناً قريباً يلائم استمرارك في تحرياتك. هل سنراك صباحاً إذن؟

- نعم، شكراً لك يا سيد هوتيه.

ثم افترقنا بعد عبارات الوداع المهذبة، حيث ذهبنا أنا وبوارو نحو بلدة ميرلينفيل، وعاد الآخرون إلى فيلا جينيفييف. قال بوارو وهو ينظر إليهم: إن نظام الشرطة الفرنسي رائع جداً، والمعلومات التي يملكونها عن حياة الجميع حتى أدق التفصيلات مذهلة فعلاً. فمع أن السيد رينو لم يكد يكمل هنا ستة أسابيع من وجوده، إلاّ أنهم يعرفون تماماً كل أذواقه وشؤونه، ويستطيعون -خلال دقائق- الحصول على معلومات عن الحساب المصرفي للسيدة دوبريه، والمبالغ التي أودعت به مؤخراً! لا شك أن أرشيفهم مؤسسة هائلة. ولكن ما هذا؟

ثم التفت فجأة.

كان ثمة من يركض خلفنا في الشارع، وأدركنا أنها مارتا دوبريه جاءت حاسرة الرأس، وعندما وصلتنا صاحت بأنفاس متقطعة: إنني ألتمس عفوكما. لم... لم يكن يجدر بي أن أفعل هذا. ينبغي أن لا تخبرا أمي. ولكن، هل صحيح ما يقوله الناس من أن السيد رينو قد استدعى رجل تحرٍّ قبل أن يموت، وأن... وأنك ذلك الرجل؟

قال بوارو بلطف: نعم يا آنسة، هذا صحيح تماماً. ولكن كيف علمتِ بذلك؟

قالت مارتا خجلة: فرانسوا أخبرت خادمتنا إيميلي.

ابتسم بوارو وقال: إن السرية مستحيلة في قضية كهذه! رغم أن ذلك لا يهم. حسناً يا آنسة، ما الذي أردتِ أن تعرفيه؟

ترددت الفتاة. بدت متلهفة على الكلام وخائفة في آنٍ معاً، وفي النهاية سألت بما يشبه الهمس: هل... هل يوجد شك بأحد؟

نظر إليها بوارو بإمعان، ثم أجاب بتملص: الشك ما زال يحوم في الوقت الحاضر يا آنسة.

- نعم، أعرف. ولكن... هل يوجد أحد بالتحديد؟

- لماذا تريدين معرفة ذلك؟

بدت الفتاة وكأنها مرعوبة من السؤال. وفجأة تذكرتُ كلمات بوارو عنها في وقت مبكر من ذلك اليوم، ووصفه لها بأنها «فتاة ذات عينين قلقتين». أجابت أخيراً: لقد كان السيد رينو دائماً شديد اللطف معي، ومن الطبيعي أن أكون مهتمة.

- فهمت. حسناً يا آنسة، إن الشك يحوم حالياً حول شخصين.

- اثنين؟

كان بودي أن أُقسم على أن نبرتها حملت شيئاً من الدهشة والارتياح. أكمل بوارو قائلاً: إن اسميهما مجهولان، ولكن يُفترض أنهما تشيليّان من سانتياغو. والآن يا آنسة، ها أنت ترين ما الذي يمكن للشباب والجمال أن يفعلاه... لقد أفشيتُ أسرار المهنة من

أجلك!

ضحكت الفتاة بمرح، ثم شكرته بشيء من الخجل وقالت: ينبغي أن أعود بسرعة الآن؛ ستفتقدني أمي.

ثم استدارت وركضت عائدة في الطريق وهي تبدو كنسخة حديثة من عداءة الأساطير الإغريقية أتالانتا. حدقتُ إليها وهي تبتعد فيما قال بوارو بصوته الرقيق الساخر: يا صديقي، هل ستنزرع هنا طوال الليل... لمجرد أنك رأيت شابة جميلة أدارت رأسك؟

ضحكتُ واعتذرت، ثم قلت: ولكنها جميلة فعلاً يا بوارو. يمكن التماس العذر لأي امرئ ينسحر بجمالها.

ولكن بوارو -لدهشتي- هزّ رأسه بجدية تامة وقال: يا صديقي، لا تضع قلبك لدى مارتا دوبريه؛ فتلك الفتاة لا تناسبك! خذها نصيحة من «بابا» بوارو!

صحتُ قائلاً: لقد أكد لي المفوض أن طيبتها لا تقل عن جمالها... وأنها ملاك كامل!

علق بوارو بمرح قائلاً: إن بعضاً من أفظع المجرمين الذين عرفتهم كانوا ذوي وجوه ملائكية. إن التشوه أو الشذوذ في الخلايا الرمادية للدماغ يمكن أن يتصادف -بكل سهولة- مع وجه حسناء.

صحتُ فزعاً: بوارو، لا يمكن أن تعني أنك تشك بطفلة بريئة كهذه!

- تا تا تا! لا تنفعل يا صاحبي. أنالم أقل إنني أشكُّ فيها،

ولكن ينبغي أن تعترف بأن قلقها ولهفتها على متابعة القضية غير عادية على نحوٍ ما.

- إنني أرى أبعد منك هذه المرة؛ إذ أن قلقها ليس على نفسها... بل على أمها.

- يا صديقي! إنك كعادتك، لا ترى شيئاً أبداً. إن السيدة دوبريه قادرة تماماً على الاعتناء بنفسها دون أن تحتاج ابنتها للقلق عليها. أعترفُ بأنني كنت أُناكِفُك فقط قبل قليل، ولكنني -مع ذلك- أكرر ما قلتُه من قبل: لا تضع قلبك عند تلك الفتاة؛ فهي لا تناسبك! إنني -أنا هيركيول بوارو- أعرف ذلك. يا إلهي! لو أنني أستطيع فقط أن أتذكر أين رأيتُ ذلك الوجه؟

سألته بدهشة: أي وجه؟ وجه الفتاة؟

- كلا، بل وجه أمها.

وعندما لاحظ دهشتي أومأ برأسه بتأكيد وقال: نعم، كما أقول لك. كان ذلك منذ زمن بعيد، عندما كنتُ في الشرطة في بلجيكا. إنني لم أرَ المرأة من قبل عملياً، ولكنني رأيت صورتها... وفي معرض صلة لها بقضية ما. أكاد أتخيل...

- ماذا؟

ربما كنتُ مخطئاً، ولكنني أتخيل أنها كانت قضية جريمة قتل!

* * *

الفصل الثامن
لقاء غير متوقَّع

كنا في الفيلا في وقت مبكر من صباح اليوم التالي. ولم يمنعنا هذه المرة الحارس الذي يقف عند البوابة في الخارج، بل هو حيّانا باحترام، فعبرنا إلى المنزل. كانت الخادمة ليوني تنزل الدرج لتوها، وبدا أنها لا تعارض إمكانية الدخول في حديث قصير.

سأل بوارو عن صحة السيدة رينو، فهزّت ليوني رأسها وقالت: إنها في غاية الحزن والانزعاج... المسكينة! إنها لا تأكل شيئاً أبداً. تبدو شاحبة كالشبح، حتى لتبعث رؤيتها على الأسى. ما كنتُ لأحزنَ إلى هذا الحد على رجل خدعني مع امرأة أخرى!

أومأ بوارو برأسه متعاطفاً وقال: ما تقولينه منصف تماماً، ولكن ماذا يفعل المرء؟ إن قلب المرأة التي تحب يغفر الكثير من الصفعات. إذن لا شك أن كثيراً من مشاهد الاتهامات المتبادلة قد حدثت بينهما في الأشهر القليلة الماضية، أليس كذلك؟

هزت ليوني رأسها ثانية وقالت: أبداً يا سيدي. لم أسمع سيدتي

أبداً تتلفظ بكلمة احتجاج... أو حتى تأنيب! إن لها روح ومزاج ملاك... تختلف كثيراً عن سيدي.

- ألم يكن للسيد رينو مزاج ملاك؟

- كان أبعد ما يكون عن ذلك؛ فعندما يغضب يسمع البيت كله بالأمر. ويوم تشاجر مع السيد جاك... يا إلهي! كان بوسعك أن تسمعهما وأنت في السوق، فقد صرخا بأعلى أصواتهما!

- حقاً؟ ومتى حدثت هذه المشاجرة؟

- آه، مباشرة قبل أن يذهب السيد جاك إلى باريس. وكاد حينها يفوّت القطار. خرج من المكتبة، وأخذ حقيبته التي كان قد تركها في الصالة. وكانت السيارة في ورشة الإصلاح، فاضطر للركض إلى محطة القطار. كنتُ أنا أنظف الصالون، ورأيته يمر، وكان وجهه شاحباً... شاحباً مع وجود بقعتين حمراوين تشتعلان على خديه. لقد كان غاضباً!

كانت ليوني تستمتع كثيراً بسردها.

- وماذا كان سبب النزاع؟

اعترفت ليوني قائلة: آه، هذا ما لا أعرفه. صحيح أنهما كانا يتصايحان، ولكن أصواتهما كانت عالية جداً، وكانا يتكلمان بسرعة فائقة بحيث لا يستطيع فهمهما إلاّ من له دراية واسعة باللغة الإنكليزية. كان سيدي كالرعد طوال اليوم! كان يستحيل إرضاؤه!

جاء صوت إغلاق باب في الأعلى ليقطع على ليوني هذرها،

فهتفت وقد تذكرت واجباتها متأخرة: آه، إن فرانسوا تنتظرني! تلك العجوز، دائمة التوبيخ.

- لحظة يا آنسة. أين قاضي التحقيق؟

- لقد خرجوا لينظروا إلى السيارة في الموقف، إذ يظن السيد المفوض أنها ربما استُعملت ليلة الجريمة.

تمتم بوارو فيما اختفت الفتاة: يا لهذه الفكرة!

قلتُ له: هل ستخرج للانضمام إليهم؟

- لا، بل سأنتظر عودتهم في الصالة؛ فالجو فيها بارد في هذا الصباح الحار.

لم ترق لي تماماً هذه الطريقة البسيطة في تناول الأمور. قلتُ له: إن كنتَ لا تمانع...

ثم ترددتُ فقال بوارو: أبداً. أترغب في التحري لحسابك الخاص؟

- أحب قليلاً أن ألقي نظرة على جيرو إن كان هنا لأرى ما هو بصدده.

تمتم بوارو وهو يجلس على كرسي مريح ويغمض عينيه: كلب الصيد البشري... خذ راحتك يا صديقي. وداعاً.

خرجتُ من الباب الأمامي، وكان الجو حاراً فعلاً. استدرتُ في الممر الذي قطعناه بالأمس، وكنت أنوي دراسة مسرح الجريمة مرة أخرى بنفسي. ولكنني لم أذهب إلى تلك البقعة مباشرة، بل

انعطفتُ باتجاه الشجيرات بحيث أخرج إلى ملعب الغولف من منطقة تبعد نحواً من مئة متر إلى اليمين. كانت الشجيرات والأعشاب هنا أكثر كثافة، واضطررتُ لأكافح بالفعل كي أشق طريقي خلالها. وعندما خرجتُ أخيراً إلى الملعب كان خروجي مفاجئاً وقوياً بحيث اصطدمتُ بشدة بفتاة كانت تقف وظهرها إلى المنطقة المشجرة التي كنتُ فيها.

كان من الطبيعي أن تطلق الفتاة صيحة مكتومة، ولكنني أطلقتُ أنا الآخر صيحة دهشة. ذلك أنها كانت صديقتي في القطار، سندريلا!

كانت دهشتنا متبادلة، وصحنا في وقت واحد: أنتَ!

تمالكت الشابة نفسها قبلي وقالت: يا إلهي! ماذا تفعل هنا؟

- بل ماذا تفعلين أنتِ هنا؟

- عندما رأيتكَ آخر مرة أمس الأول كنتَ عائداً إلى وطنك إنكلترا كولدٍ طيّبٍ مطيع.

- وعندما رأيتكِ أنا آخر مرة كنتِ عائدة إلى وطنك مع أختك، كفتاة طيبة مطيعة. وبالمناسبة، كيف حال أختك؟

كافأتني بالتماعة من أسنانها وقالت: كم هو لطيف منك أن تسألني عنها! أختي بخير، شكراً لك.

- أهي هنا معك؟

قالت الفتاة اللعوب بشيء من الكرامة: لقد بقيت في البلدة.

ضحكتُ وقلت: لا أصدق أن لك أختاً، ولو كانت لك أخت لكان اسمها ديفيد!

سألتْ مبتسمة: هل تذكر اسمي؟

- سندريلا. ولكنك ستخبرينني عن اسمك الحقيقي الآن، أليس كذلك؟

هزّت رأسها بنظرة شريرة فقلت: ولا حتى عن سبب وجودك هنا؟

- آه، هذا ما تريده! أحسب أنك سمعتَ عن بعض زملاء مهنتي «يرتاحون» هنا.

- في المصايف الفرنسية باهظة التكاليف؟

- إنها أرخص من التراب إن عرفت أين تذهب.

نظرتُ إليها بإمعان وقلت: ومع ذلك لم يكن في نيتك المجيء إلى هنا عندما التقيتك قبل يومين، أليس كذلك؟

قالت الآنسة سندريلا بأسلوب وعظي: إن لكل منا خيبات أمله. والآن، لقد أخبرتك بما يكفيك؛ لا ينبغي للأولاد الطيبين أن يكونوا فضوليين. ولكنك لم تخبرني بعد ما الذي تفعله هنا؟

- أتذكرين أنني أخبرتك أن صديقي الحميم رجل تحرٍّ؟

- نعم؟

- وربما سمعتِ عن هذه الجريمة... في فيلا جينيفييف؟

حدقت إليّ. اتسعت عيناها واستدارتا، ثم قالت: لا أحسبك تعني... أنك تشترك في تلك القضية؟

أومأت برأسي بالإيجاب. ولم يكن لديّ شك في أنني قد أفحمتها. كانت مشاعرها وهي تنظر إليّ واضحة تماماً، وبقيت ساكتة لبضع لحظات تحدق إلي، ثم أومأت برأسها بتأكيد وقالت: هذا عجيب جداً! خذني في جولة... أريد رؤية كل الفظائع.

- ماذا تعنين؟

- أعني ما قلته. يا لهذا الصبي! ألم أخبرك أنني أموت حباً بالجرائم؟ لقد كنت أتطفل في المنطقة لساعات، وإن مصادفتي لك بهذه الطريقة لحظٌ رائع فعلاً. هيا، أرني كل المناظر.

- ولكن اسمعي... انتظري لحظة. لا أستطيع ذلك؛ لا يُسمح لأحدٍ بالدخول، وهم صارمون جداً في هذه المسألة.

- ألست أنت وصديقك سادة المعمعة؟

لم أكن أحب التخلي عن موضع عظمتي، ولذلك قلتُ بضعف: لماذا كل هذا الحرص؟ وما هو الذي تريدين رؤيته؟

- آه، كل شيء! المكان الذي حدثت فيه الجريمة، والسلاح، والجثة، وبصمات الأصابع، وغير ذلك من الأمور المثيرة. لم تُتح لي من قبل أية فرصة أكون فيها قريبة من جريمة قتل إلى هذا الحد. ستعيش معي التجربة طوال حياتي.

أدرتُ رأسي وقد قرفت. ما الذي يحدث لنساء هذه الأيام؟

لقد قززتني حماسة الفتاة النهمة لقصص الموت والقتل.

قالت الفتاة فجأة: انزل من برجك العاجي، ولا تُبدِ كل هذا الزهو. عندما استدعوك لهذه المهمة، هل شمخت بأنفك وقلت إنها مسألة قذرة لن تشارك فيها؟

- لا، ولكن...

- ولو كنتَ هنا في إجازة، أما كان من شأنك أن تدس أنفك وتتطفل كما أفعل أنا؟ كنتَ ستفعل ذلك بالطبع.

- إنني رجل، وأنت امرأة.

- إن فكرتك عن المرأة هي أنها تلك التي تصعد على كرسي وتصرخ إن هي رأت فأراً، وهذا كان قبل التاريخ. ولكنك سترافقني لتريني المكان، أليس كذلك؟ إن ذلك يعني الكثير بالنسبة لي.

- بأي معنى؟

- إنهم يبعدون كل الصحفيين عن المكان. يمكنني أن أعمل سبقاً صحفياً ضخماً مع إحدى الصحف. أنت لا تعرف كم يدفعون مقابل القليل من المعلومات المُستقاة من الداخل.

ترددتُ، فألحّتْ بدلال: رجاء... يا عزيزي.

استسلمتُ، وعرفتُ سراً أنني سأستمتع قليلاً بدور الدليل. ذهبنا أولاً إلى المنطقة التي اكتُشفت فيها الجثة حيث وقف رجل يتولى الحراسة، وقد حياني باحترام إذ كان يعرفني بالشكل، ولم يعترض على مرافقتي، والأغلب أنه اعتبرني مسؤولاً عنها. شرحتُ

لسندريلا كيف تم اكتشاف الجثة بالضبط، وأصغت بكل انتباه وهي تطرح بين الحين والآخر سؤالاً ذكياً، ثم حوّلنا خطانا باتجاه الفيلا. وقد تقدمتُ بشيء من الحذر، فالحقيقة أنني لم أكن حريصاً أبداً على مقابلة أحد. أخذتُ الفتاة عبر الشجيرات حتى مؤخرة المنزل حيث كانت السقيفة الصغيرة التي تحوي الجثة. تذكرت أن السيد بيكس -بعد أن أقفل السقيفة مساء أمس- ترك المفتاح مع شرطي القرية مارشو «خشية أن يطلبه السيد جيرو ونحن في المنزل». ورأيت أن من المحتمل تماماً أن يكون جيرو قد أعاده بعد استعماله للشرطي مارشو ثانية. تركت الفتاة مخفية بين الشجيرات ثم دخلتُ البيت. كان مارشو واقفاً يحرس خلف باب الصالة، وفي الداخل أصوات همهمات. قال مارشو: أيريد السيد رؤية السيد هوتيه؟ إنه في الداخل، يحقق مرة أخرى مع فرانسوا.

قلتُ بسرعة: كلا، لا أريد ذلك، ولكنني أود كثيراً أخذ مفتاح السقيفة في الخارج إن لم يكن ذلك مخالفاً للتعليمات.

- بالتأكيد يا سيدي.

ثم أخرجه وقال: ها هو. لقد أصدر السيد هوتيه أوامر بأن توضع كل التسهيلات تحت تصرفكما. ولكنك ستعيده إليّ عندما تنتهي منه، هذا كل ما في الأمر.

- بالطبع.

شعرت بمتعة الرضا إذ أدركتُ أنني -في عين مارشو على الأقل- لا أقِلّ أهمية عن بوارو. كانت الفتاة بانتظاري، وقد هتفت بفرح عندما رأت المفتاح في يدي: لقد حصلتَ عليه إذن؟

قلتُ ببرود: بالطبع، ولكن مع ذلك فإن ما أفعله غير نظامي.

- لقد كنتَ في غاية اللطف، ولن أنسى لك ذلك. هيا... إنهم لا يستطيعون رؤيتنا من البيت، أليس كذلك؟

أمسكتُها عن تقدمها المتلهف وقلت: انتظري لحظة. لن أوقفك إن كنتِ تريدين حقاً الدخول، ولكن هل تريدين ذلك فعلاً؟ لقد رأيتِ القبر، والأراضي المحيطة، وسمعت كل تفصيلات القضية. ألا يكفيك ذلك؟ سيكون دخولك هنا مسألة فظيعة وكريهة.

نظرت إليّ للحظة بتعبير لم أستطع فهمه تماماً، ثم ضحكت وقالت: أنا أحب الفظائع. هيا.

وصلنا صامتين إلى باب السقيفة، وفتحتها ودخلنا. مشيتُ إلى الجثة، ورفعتُ عنها الغطاء كما فعل بيكس عصر أمس. أفلت من شفتي الفتاة صوت شهقة صغيرة، فالتفتُّ ونظرتُ إليها. كان في وجهها رعب الآن، وتلاشت كلياً تلك المعنويات العالية الهادئة لديها. إنها لم تختر الإصغاء لنصيحتي، وقد نالت الآن عقابها على ترك تلك النصيحة. لم أحس بأي شفقة تجاهها؛ إذ ينبغي الآن أن تكمل ما بدأَتْه. قلبتُ الجثة بهدوء وقلت: أترين. لقد طُعن في الظهر.

قالت بصوت لا يكاد يُسمع: بماذا؟

أشرتُ برأسي نحو الإناء الزجاجي وقلت: بذلك الخنجر.

فجأة ترنحت الفتاة، ثم وقعت كومة واحدة، فقفزت لمساعدتها.

- لقد أغمي عليكِ، لنخرج من هنا. كان ذلك كثيراً عليك.

تمتمت: ماء... بسرعة، ماء.

تركتها واندفعت إلى المنزل، ومن حسن حظي أن أحداً من الخدم لم يكن موجوداً، واستطعتُ أن آخذ كأساً من الماء دون أن يلاحظني أحد. وخلال بضع دقائق عدتُ إليها. كانت الفتاة ممددة كما تركتها، ولكن بضع رشفات من الماء أعادتها إلى وعيها تماماً. صاحت وهي ترتعد: خذني من هنا... آه، بسرعة، بسرعة!

أسندتها بذراعي ثم قدتها إلى الخارج حيث الهواء الطلق، وقامت بإغلاق الباب خلفها، ثم أخذت نفساً عميقاً وقالت: الآن أفضل. آه، لقد كان الأمر رهيباً! لماذا تركتني أدخل؟

شعرتُ بأن هذا السؤال أنثوي تماماً بحيث لم أستطع منع نفسي من الابتسام. والحقيقة أنني لم أستغرب انهيارها في سرّي؛ فقد أثبت ذلك أنها ليست متبلدة المشاعر إلى الدرجة التي ظننتُها. وهي لم تكن في نهاية الأمر أكثر من طفلة كبيرة، وربما كان فضولها من النوع الطائش. قلتُ لها بلطف: لقد حاولت جهدي منعك.

- أحسب أنك حاولت بالفعل. حسناً، إلى اللقاء.

- اسمعي، لا يمكنك أن تذهبي بهذا الشكل... بمفردك. فما زلتِ لا تستطيعين ذلك. إنني أصر على مرافقتك حتى ميرلينفيل.

- هراء... لقد أصبحت ممتازة تماماً الآن.

- وماذا لو أغمي عليك ثانية؟ كلا، سآتي معك.

عارضت ذلك بكل قوة، ولكنني نجحتُ -في النهاية- بإقناعها بالسماح لي بمرافقتها حتى ضواحي البلدة. وهكذا عدنا أدراجنا على

نفس الطريق السابق، فمررنا ثانية بالقبر وانحرفنا وصولاً إلى الشارع. وعند بداية خط المحلات المتفرقة توقفَتْ ومدت لي يدها قائلة: وداعاً، وشكراً جزيلاً لك على قدومك معي.

- أأنت واثقة أنك على ما يرام الآن؟

- تماماً، أشكرك. آمل أن لا تقع في متاعب لأنك أريتني الأمور.

نحيتُ هذه الفكرة دون مبالاة، فقالت: حسناً، وداعاً.

- وداعاً. إن كنتِ تقيمين هنا فسنلتقي ثانية.

ابتسمت لي وقالت: نعم، وداعاً.

- انتظري لحظة، لم تعطني عنوانك.

- آه، إنني أقيم في فندق دو فار. إنه فندق صغير ولكنه جيد تماماً، تعال لزيارتي غداً.

قلت بشيء من الحرج الذي لم يكن ضرورياً: سآتي.

ثم راقبتها وهي تغيب عن ناظري، وعدتُ أدراجي إلى الفيلا. تذكرتُ أنني لم أقفل باب السقيفة ثانية، ولكن أحداً لم يلاحظ تلك الغلطة لحسن الحظ. وبعد أن أقفلت الباب أخذتُ المفتاح وأعطيته لشرطي البلدة، وقد خطر لي فجأة -وأنا أقوم بذلك- أنني لا أعرف بعد اسم سندريلا رغم أنها أعطتني عنوانها.

* * *

الفصل التاسع
السيد جيرو يجد بعض الأدلة

حين دخلت الصالة وجدتُ قاضي التحقيق مشغولاً باستجواب البستاني أوغست. حياني بوارو والمفوض بابتسامة من الأول وانحناءة احترام من الثاني، وكانا حاضرين للتحقيق، ووجدت لي مقعداً بهدوء. كان السيد هوتيه يبذل كل جهده ويدقق في أقل الصغائر، ولكنه لم ينجح في الحصول على أي شيء ذي أهمية.

وقد اعترف أوغست بأن قفازي البستنة كانا قفازيه، وأنه كان يرتديهما عندما يتعامل مع بعض أنواع النباتات التي تكون سامة لبعض الناس. وقال إنه لا يستطيع الجزم حول آخر مرة استعمل فيها قفازيه، وأنه لم يفقدهما بالتأكيد. أين يحتفظ بهما؟ مرة هنا ومرة هناك. وعادة ما يوجد الرفش في السقيفة الصغيرة التي تستخدم للأدوات. هل كانت تُقفل؟ بالطبع كانت تُقفل. وأين يُحتفظ بالمفتاح؟ يكون المفتاح في الباب طبعاً، فلم يكن فيها شيء ذو قيمة يمكن أن يُسرق. ومن كان يتوقع قدوم مجموعة من قطاع الطرق أو القتلة؟ لم تكن مثل هذه الأمور تحدث في أيام السيدة فيكومتيس.

أشار السيد هوتيه إلى أنه قد أنهى استجوابه فانسحب العجوز وهو يتذمر إلى أقصى مدى. وعندما كان يدلي بشهادته كنتُ أتفحصه بإمعان، إذ تذكرتُ إصرار بوارو الغريب على آثار الأقدام في مسكبة الورود. ورأيت أنه إما شخص لا علاقة له بالجريمة أو أنه ممثل بارع. وفجأة خطرت لي فكرة وهو يخرج من الباب فصحت: اعذرني يا سيد هوتيه، ولكن هل تسمح لي بطرح سؤال واحد عليه؟

- بالتأكيد يا سيدي.

التفتُّ إلى أوغست وقد شجعني جواب القاضي وقلت: أين تضع حذاءك؟

دمدم العجوز قائلاً: في قدميّ، وهل من مكان آخر؟

- ولكن عندما تأوي إلى فراشك ليلاً؟

- تحت سريري.

- ولكن من ينظفه؟

- لا أحد. ولماذا يُنظّف؟ هل تراني أتنزه على الشاطئ كالفتيان؟ في أيام الأحد أرتدي حذاء الخروج، ولكن فيما عدا ذلك...

ثم رفع كتفيه بشيء من اللامبالاة.

هززتّ رأسي مُحبطاً. وقال القاضي: حسناً، إننا لم نتقدم كثيراً. لا شك أننا مكتوفو الأيدي حتى يصل جواب البرقية من سانتياغو. هل رأى أحد منكم جيرو؟ إن هذا الرجل ينقصه الأدب بالتأكيد! يخطر لي فعلاً ان أرسل في طلبه و...

- لا حاجة لأن ترسل.

فاجأنا الصوت الهادئ. كان جيرو واقفاً في الخارج ينظر إلينا من خلال النافذة، وقد قفز بخفة إلى الغرفة وتقدم إلى الطاولة قائلاً: ها أنذا، في خدمتك. أرجو قبول اعتذاري على عدم ظهوري في وقت أبكر.

قال القاضي بشيء من الاضطراب: أبداً، أبداً!

استمر الآخر قائلاً: إنني بالطبع رجل تحرٍّ فقط، ولا أعرف شيئاً عن الاستجوابات. ولو كنت أقوم باستجواب لكنت قمت به دون وجود نوافذ مفتوحة، فبوسع كل من يقف في الخارج أن يسمع كل ما يدور. ولكن لا بأس.

احمر وجه السيد هوتيه غضباً. وبدا واضحاً أنه لن يكون حب بين قاضي التحقيق ورجل التحري المسؤول عن القضية، فقد كره كل منهما الآخر منذ البداية. وربما كانت الأمور ستجري على نفس المنوال في أية حالة أخرى؛ فجيرو يرى أن كل قضاة التحقيق مغفلون، والسيد هوتيه الذي يأخذ نفسه على محمل الجد لا بد أن يجد أسلوب جيرو المستخف الهازئ مهيناً تماماً.

قال القاضي بشيء من الحدة: حسناً، لا شك أنك كنت تستخدم وقتك للخروج بالعجائب! إنك تحتفظ لنا بأسماء القتلة، أليس كذلك؟ وكذلك المكان المحدد الذي هم فيه الآن؟

أجاب السيد جيرو دون أن تحركه سخرية القاضي: أنا أعرف على الأقل من أين جاؤوا.

أخرج جيرو من جيبه شيئين صغيرين ووضعهما على الطاولة، فتجمّعنا حولها. كان الشيئان في غاية البساطة: عقب لفافة تبغ وعود ثقاب لم يُستعمل. استدار رجل التحري إلى بوارو وقال: ماذا ترى هناك؟

كان في نبرته شيء يكاد يكون قاسياً، وقد جعلني ذلك أحمرُّ غضباً. ولكن بوارو بقي غير متأثر، حيث رفع كتفيه وقال: عقب لفافة وعود ثقاب.

- وبماذا يوحي لك ذلك؟

رفع بوارو يديه وقال: لا يوحي لي بشيء.

قال جيرو بنبرة قناعة: آه! إنك لم تدرس هذه الأشياء. هذا ليس عود ثقاب عادياً... ليس في هذا البلد على الأقل. إنه شائع تماماً في أمريكا الجنوبية. ومن حسن الحظ أنه لم يتم إشعاله، وإلاّ لما كنتُ قد ميّزتُه. من الواضح أن أحد الرجلين قد رمى عقب لفافته وأشعل غيرها فوقع منه عود ثقاب وهو يقوم بذلك.

قال بوارو: والعود الآخر؟

- أي عود؟

- العود الذي أشعل به لفافته، هل وجدتَه أيضاً؟

- لا.

- ربما لم تبحث بكل دقة إذن.

- لم أبحث بدقة؟!

بدا للحظة أن جيرو كان على وشك الانفجار غضباً، ولكنه بذل جهداً ليسيطر على نفسه وقال: أرى أنك تحب المزاح يا سيد بوارو. ولكن على أية حال، بثقاب أو بلا ثقاب، فإن عقب اللفافة سيكون كافياً. إنها لفافة من أمريكا الجنوبية ذات ورق بنكهة السوس.

أومأ بوارو برأسه، وتكلم المفوض قائلاً: ربما كان عقب اللفافة والثقاب عائدين للسيد رينو. تذكّر أنه لم يعد من أمريكا الجنوبية إلاّ منذ عامين.

أجاب الآخر بثقة: كلا، لقد فتشتُ أساساً في أغراض السيد رينو، وما يستخدمه من تبغ وثقاب يختلف تماماً عن هذا.

سأله بوارو: ألا ترى غريباً أن يأتي هذان الغريبان غير مجهزين بسلاح ولا بقفازات ولا برفش، وأن يجدا كل هذه الأشياء جاهزة بمثل هذه السهولة؟

ابتسم جيرو بشيء من الفوقية وقال: لا شك أن ذلك غريب. والحقيقة أنه لم يكن ليُفسَّر لولا النظرية التي أمتلكها.

قال السيد هوتيه: آه! شريك داخل المنزل؟

قال جيرو بابتسامة غريبة: أو خارجه.

- ولكن لا بد أن أحداً قد هيأ لهما سبيل الدخول. لا يمكننا الافتراض بأنهما وجدا الباب مفتوحاً نتيجة حسن طالع لا مثيل له؟

- لقد تم فتح الباب لهما، ولكن ربما كان قد فُتح من الخارج بنفس السهولة... من قبل شخص لديه المفتاح.

- ولكن من الذي كان يمتلك مفتاحاً؟

رفع جيرو كتفيه حيرة وقال: بالنسبة لهذا السؤال فإنه ليس من شأن أحد يمتلك المفتاح أن يعترف بذلك إذا ما أمكنه السكوت. ولكن ربما كان لدى العديد من الأشخاص مفتاح. السيد جاك رينو الابن مثلاً... صحيح أنه في طريقه إلى أمريكا الجنوبية، ولكن ربما كان قد فقد مفتاحاً، أو ربما سُرق منه. والبستاني... فقد عمل هنا لسنوات عديدة. وربما كان لإحدى الخادمات الشابات صديق. من السهل أخذ طبعة للمفتاح وعمل نسخة منه. توجد الكثير من الاحتمالات... كما يوجد شخص آخر أرى أن من المحتمل كثيراً أن يكون لديه مثل هذا المفتاح.

- من هذا؟

قال جيرو: السيدة دوبريه.

قال القاضي: إيه! أوقد سمعتَ بذلك؟

قال جيرو بهدوء: إنني أسمع كل شيء.

قال السيد هوتيه فرِحاً بقدرته على إظهار معرفته المتفوقة: أمر واحد يمكنني أن أقسم أنك لم تسمع به.

ثم مضى يقصّ عليه قصة الزائرة الغامضة في الليلة التي سبقت الجريمة. كما أشار إلى الشيك الذي كُتب لدوفين، وأخيراً سلّم لجيرو الرسالة الموقعة باسم «بيلا».

قال جيرو: هذا كله مثير جداً، ولكن نظريتي لا تتأثر بذلك.

- وما هي نظريتك؟

- أفضّل في الوقت الحاضر أن لا أقولها. تذكّر أنني ما زلت في بداية تحرياتي.

قال بوارو فجأة: قل لي شيئاً واحداً يا سيد جيرو. إن نظريتك تأخذ بعين الاعتبار مسألة فتح الباب، ولكنها لا تفسر لماذا تم إبقاؤه مفتوحاً. ألم يكن من الطبيعي بالنسبة إليهما عندما غادرا المنزل أن يغلقا الباب خلفهما؟ لو قُدّر لشرطي البلدة أن يأتي بالمصادفة إلى البيت -كما يفعل عادة للاطمئنان على أن كل شيء على ما يرام- لكان بالإمكان أن يُكشفا ويُمسكا على الفور.

- ياه! لقد نسياه. أضمن لك أنها كانت غلطة منهما.

وعندها -ولدهشتي- نطق بوارو بنفس الكلمات تقريباً التي قالها للمفوض بيكس مساء أمس: **أنا لا أتفق معك**. إن ترك الباب مفتوحاً كان نتيجة لأحد أمرين اثنين: إما التخطيط أو الضرورة، وأية نظرية لا تأخذ هذه الحقيقة بعين الاعتبار محكوم عليها بالفشل.

نظرنا جميعاً إلى بوارو الضئيل بكثير من الدهشة. وكنتُ قد رأيتُ أن الاعتراف بالجهل الذي أدلى به مضطراً بخصوص مسألة الثقاب لا بد أن يُشعره بشيء من المهانة، ولكن ها هو مقتنع بنفسه كدأبه دائماً، يتكلم مع جيرو بكل فوقية دون أن يرف له جفن.

فتل جيرو شاربه وهو ينظر إلى صديقي بأسلوب ساخر بعض

الشيء ثم قال: أنت لا تتفق معي، أليس كذلك؟ حسناً، ما الذي يثير انتباهك بشكل خاص في هذه القضية؟ دعنا نسمع وجهات نظرك.

- شيء واحد يبرز أمامي باعتباره مهماً. قل لي يا سيد جيرو، ألم يلفت نظرك في هذه القضية شيء مألوف لك؟ ألا تُذكّرك هذه القضية بشيء؟

- تذكرني بشيء؟ مألوف؟ لا أستطيع القول فوراً. مع أنني لا أظن ذلك.

قال بوارو بهدوء: أنت مخطئ. لقد ارتُكبت من قبل جريمة تكاد تكون مشابهة تماماً لهذه.

- متى؟ وأين؟

- آه، هذا مع الأسف ما لا أذكره حالياً، ولكنني سأفعل. كنتُ آمل أن تستطيع أنت مساعدتي في ذلك.

زفر جيرو باستغراب وقال: لقد وقعت الكثير من القضايا على يد رجال مُقنَّعين، ولا أستطيع تذكر تفصيلاتها كلها؛ فالجرائم يشبه بعضها بعضاً بشكل أو بآخر.

اتخذ بوارو فجأة سمتَ المُحاضر وخاطبنا جميعاً قائلاً: يوجد شيء اسمه اللمسة الفردية. إنني أتحدث إليكم الآن عن سيكولوجيا الجريمة. السيد جيرو يعرف تمام المعرفة أن لكل مجرم طريقته الخاصة الفريدة، وأن الشرطة عندما يُستدعَون للتحقيق في حادث سطو -مثلاً- يستطيعون في كثير من الأحيان أن يخمّنوا بذكاء هوية الفاعل، وذلك -ببساطة- من خلال الأساليب الفريدة التي اتبعها.

(وإن من شأن المفتش جاب أن يقول لك نفس الكلام يا هيستنغز). إن الإنسان حيوان يفتقر للتفرد، فهو غير متفرد ضمن القانون في حياته اليومية المحترمة، وغير متفرد بنفس الدرجة خارج القانون. وإذا ما ارتكب رجلٌ جريمةً فإن أية جريمة أخرى يرتكبها ستشبه جريمته الأولى كثيراً. إن قضية ذلك القاتل الإنكليزي الذي تخلص من زوجاته واحدة بعد الأخرى عن طريق إغراقهن في الحمّام تُعتبر خير دليل على ما نقوله، ولو أنه اتبع أساليب مختلفة فلربما كان قد نجا من الكشف حتى يومنا هذا. ولكنه أطاع دواعي الطبيعة البشرية، قائلاً لنفسه إن ما نجح مرة سينجح كل مرة، ولذلك دفع ثمن افتقاره إلى التفرد والإبداع.

زمجر جيرو قائلاً: وما العبرة في كل هذا؟

- العبرة هي أنك عندما تجد جريمتين متشابهتين تماماً في التخطيط والتنفيذ فإنك تجد خلفهما عقلاً واحداً. أنا أبحث عن ذلك العقل يا سيد جيرو، وسوف أجده. إن لدينا هنا دليلاً حقيقياً... دليلاً سيكولوجياً. ربما كنتَ تعرف كل شيء عن لفافات التبغ وأعواد الثقاب يا سيد جيرو، أما أنا -هيركيول بوارو- فإنني أعرف عقل الإنسان.

بقي جيرو غير متأثر أبداً.

استمر بوارو قائلاً: وحتى أرشدك فإنني سأقول لك أيضاً حقيقة ربما لا تُقال لك. إن ساعة المعصم الخاصة بالسيدة رينو كانت في اليوم الذي أعقب المأساة تُسبق ساعتين.

حدق إليه جيرو وقال: ربما كانت معتادة على أن تُسبق؟

- هذا ما قيل لي بالفعل.

- ماذا في الأمر إذن؟

- ومع ذلك فإن الساعتين وقتٌ طويل. ثم إن لدينا مسألة آثار الأقدام في مسكبة الورود.

ثم أومأ برأسه إلى النافذة المفتوحة. فخطا جيرو خطوتين متلهفتين ونظر من النافذة وقال: ولكنني لا أرى أية آثار أقدام؟

قال بوارو وهو يُعدّل رزمة كتب على الطاولة: نعم، لا توجد أية آثار.

وللحظة اكتسب وجه جيرو غضباً يكاد يكون قاتلاً. خطا خطوتين باتجاه مُعذّبه، ولكن باب الصالة فُتح في تلك اللحظة وأعلن مارشو قائلاً: لقد وصل السكرتير السيد ستونور لتوه من إنكلترا. هل يمكنه الدخول؟

* * *

الفصل العاشر

غابرييل ستونور

كان الرجل الذي دخل الغرفة الآن رجلاً مهيباً؛ فقد كان بالغ الطول ذا جسم رياضي مفتول ووجه وعنق برونزيين تماماً، الأمر الذي جعله يسيطر على المجتمعين، وحتى جيرو بدا أمامه عليلاً شاحباً. وعندما عرفتُ غابرييل ستونور بشكل أفضل أدركتُ أنه كان شخصية غير عادية أبداً؛ فهو إنكليزي بالولادة، ولكنه طاف أنحاء العالم، فاصطاد الوحوش في أفريقيا، وسافر في كوريا، وربّى المواشي في كاليفورنيا، وتاجر في جزر البحر الجنوبي.

وقد اختارت عينه التي لا تخطئ السيد هوتيه فقال له: قاضي التحقيق في هذه القضية؟ تسعدني معرفتك يا سيدي. إنها مسألة فظيعة. كيف حال السيدة رينو؟ هل تتحمل الضغوط بشكل جيد؟ لا بد أنها كانت صدمة رهيبة لها.

قال السيد هوتيه: نعم، فظيعة... فظيعة. اسمح لي أن أقدم لك السيد بيكس، مفوض شرطتنا، والسيد جيرو من دائرة الأمن. وهذا السيد هو هيركيول بوارو. وقد أرسل السيد رينو في طلبه، ولكنه

وصل متأخراً بحيث لم يستطع فعل شيء لتجنب المأساة. وهذا صديق للسيد بوارو، السيد هيستينغز.

نظر ستونور إلى بوارو بشيء من الاهتمام وقال: أرسل في طلبك إذن؟

سأله السيد بيكس: ألم تعرف أن السيد رينو كان يفكر باستدعاء رجل تحرٍّ؟

- أنا لم أكن أعلم، ولكن الأمر لا يدهشني أبداً.

- لماذا؟

- لأن الرجل كان قلقاً خائفاً، ولا أعرف سبب ذلك كله. لم يكن يفضي إليّ بشيء. لم نكن على تلك الدرجة من التفاهم، ولكنه كان قلقاً... وبشدة.

قال السيد هوتيه: هممم! ولكنك لا تعرف السبب؟

- هذا ما قلته يا سيدي.

- اعذرني يا سيد ستونور، ولكن يجب أن نبدأ ببعض الأسئلة الشكلية. ما هو اسمك؟

- غابرييل ستونور.

- منذ متى وأنت سكرتير للسيد رينو؟

- منذ نحو عامين، منذ وصل من أمريكا الجنوبية. قابلتُه لدى صديق مشترك لنا، فعرض عليّ الوظيفة. وقد كان رئيساً ممتازاً أيضاً.

- هل تحدث معك كثيراً عن حياته في أمريكا الجنوبية؟

- نعم، نوعاً ما.

- هل تعرف إن كان قد ذهب إلى سانتياغو؟

- ذهب إليها عدة مرات على ما أظن.

- ألم يذكر أية حادثة خاصة حدثت هناك... أي شيء يمكن أن يكون قد أثار بعض الحقد ضده؟

- أبداً.

- هل تكلم عن أي سر اطّلع عليه أثناء إقامته هناك؟

- لا أذكر وجود شيء من ذلك. ولكن في هذا الصدد كان في حياته لغز؛ فأنا لم أسمعه أبداً يتحدث عن صباه مثلاً، أو عن أي حادث سبق وصوله إلى أمريكا الجنوبية. أحسب أنه من فرنسيي كندا بالولادة، ولكنني لم أسمعه أبداً يتكلم عن حياته في كندا. كان بوسعه أن يسكت ليصبح كالأخرس عندما يروق له ذلك.

- إذن فحسب معلوماتك لم يكن له أعداء، وأنت لا تستطيع إعطاءنا أي مؤشر لوجود أي سرٍّ لديه قد يكون حصوله عليه سبباً في مقتله؟

- هذا صحيح.

- سيد ستونور، هل سبق لك أن سمعت قط باسم دوفين في معرض العلاقة مع السيد رينو؟

- دوفين، دوفين...

كرر الاسم متأملاً ثم قال: لا أظنني سمعتُ به... ومع ذلك يبدو مألوفاً.

- هل تعرف سيدة، صديقة للسيد رينو، اسمها الأول بيلا؟

هزّ السيد ستونور رأسه مرة أخرى وقال: بيلا دوفين؟ أهذا هو اسمها الكامل؟ أمر غريب. أنا واثق أنني أعرفه، ولكنني -في هذه اللحظة- لا أذكر في أي سياق.

تنحنح القاضي وقال: لعلك تفهم يا سيد ستونور... إن القضية كما يلي: ينبغي أن لا تكون لديك أية تحفظات. ربما كنتَ من خلال شعور بالتقدير للسيدة رينو (التي فهمتُ أنك تُكنُّ لها كل تقدير ومحبة) ربما... في الحقيقة!

بدا أن السيد هوتيه قد دخل في الجملة ولم يعد يعرف كيف ينهيها، ولكنه قال أخيراً: ينبغي أن لا تكون لديك أية تحفظات إطلاقاً.

حدق إليه السيد ستونور وقد بدأ خيط من الفهم يلوح له، وقال بلطف: لم أفهمك تماماً. أين هو مكان السيدة رينو من هذا الأمر؟ إنني أُكِنُّ احتراماً بالغاً وحباً لتلك السيدة، فهي من نوع رائع غير عادي، ولكنني لا أفهم تماماً كيف يمكن لتحفظاتي أو غيرها أن تؤثر عليها.

- إلاّ إذا ثبت أن هذه المدعوة بيلا دوفين كانت شيئاً أبعد من مجرد صديقة لزوجها؟

- آه! فهمتك الآن. ولكنني أراهن بكل ما لدي على أنك

مخطئ؛ فالرجل لم يكن ينظر مجرد نظر لأية امرأة. كان يحب زوجته حباً جماً، وقد كانا أكثر زوجين محبين عرفتهما.

هز السيد هوتيه رأسه بلطف وقال: سيد ستونور، إن لدينا دليلاً مُطلقاً... رسالة حب من هذه المرأة بيلا للسيد رينو، تتهمه فيها بأنه ملّ منها. وفوق ذلك فلدينا دليل إضافي على أن السيد رينو كان وقت وفاته على علاقة بامرأة فرنسية، سيدة تدعى السيدة دوبريه التي تستأجر الفيلا المجاورة.

ضاقت عينا السكرتير وقال: لحظة يا سيدي... إنك تسير في طريق خاطئ. لقد عرفتُ بول رينو، وإن ما كنت تقوله لتوك مستحيل تماماً. يوجد تفسير آخر دون ريب.

رفع القاضي كتفيه حيرة وقال: أي تفسير آخر يمكن أن يكون؟

- ما الذي قادكم إلى الاعتقاد بأنها علاقة حب؟

- كانت السيدة دوبريه معتادة على زيارته ليلاً، وفوق ذلك فمنذ مجيء السيد رينو إلى فيلا جينيفييف قامت السيدة دوبريه بإيداع مبالغ ضخمة من المال في المصرف نقداً. ويبلغ إجمالي المبلغ نحواً من أربعة آلاف جنيه بعملتكم البريطانية.

قال ستونور بهدوء: أحسب أن هذا صحيح. لقد حوّلتُ أنا هذه المبالغ نقداً بناء على طلب منه، ولكنها لم تكن علاقة غرامية.

- وماذا تكون غير ذلك؟

قال ستونور وهو يضرب الطاولة بقبضته: ابتزاز، هذا هو الأمر.

صاح القاضي وقد اهتز رغماً عن نفسه: آه!

كرر السيد ستونور: ابتزاز. لقد كان الرجل يُحلَب... وبمعدلات عالية أيضاً! أربعة آلاف في غضون شهرين. وووه! لقد أخبرتكم قبل قليل أنه كان لدى رينو لغز، والواضح أن هذه السيدة تعرف عن ذلك اللغز ما يكفي لتهدده به.

صاح المفوض بانفعال: هذا ممكن، ممكن بالتأكيد.

زمجر ستونور قائلاً: ممكن؟ بل هو أكيد. أخبروني، هل أخبرتم السيدة رينو عن بدعة العلاقات الغرامية هذه؟

- لا يا سيد ستونور. لم نرغب بأن نسبب لها أسى إن كان بالإمكان تجنب ذلك.

- الأسى؟ إن من شأنها أن تضحك منكم. لقد قلتُ لكم إنها والسيد رينو كانا زوجين لا مثيل لحبهما.

قال السيد هوتيه: آه، هذا يذكّرني بنقطة أخرى. هل أفضى لك السيد رينو بشيء بخصوص شروط وصيته؟

- أنا أعرف كل شيء عنها؛ فقد أخذتها بنفسي إلى محاميه بعد أن صاغها. وأستطيع إعطاءكم اسم محاميه إن أردتم رؤيتها، فهي عنده هناك. كانت وصية بسيطة تماماً: نصف أمواله في صندوق ائتمان لصالح زوجته طوال حياتها، والنصف الآخر لابنه، وتوجد بعض المنح الأخرى. أحسب أنه ترك لي ألف جنيه.

- متى كُتبت تلك الوصية؟

- منذ نحو سنة ونصف.

- ألن يدهشك كثيراً يا سيد ستونور أن تعلم أن السيد رينو قد كتب وصية أخرى قبل أقل من أسبوعين؟

بدا أن ستونور قد دُهش كثيراً وقال: لا علم لي بذلك. وكيف كانت؟

- لقد ترك ثروته الهائلة كلها لزوجته دون تحفظ، وليس من ذكر لابنه.

أطلق ستونور صفرة طويلة وقال: أعتبر هذا إجراء قاسياً بحق الولد. إن والدته تحبه كثيراً بالطبع، ولكن سيبدو الأمر للعالم وكأنه نقص ثقة عند الوالد بابنه. سيكون ذلك جارحاً لكرامته نوعاً ما. ومع ذلك فإن هذا يثبت ما قلته لكم من أن رينو وزوجته كانا على أفضل حال.

قال السيد هوتيه: بالتأكيد، بالتأكيد. ربما كان علينا أن نعيد النظر بأفكارنا في عدة نقاط. لقد أبرقنا طبعاً إلى سانتياغو، ونتوقع الرد في أية لحظة، والأغلب أن يصبح كل شيء بعد ذلك واضحاً جلياً. ومن جانب آخر، فإذا كان اقتراحك الخاص بالابتزاز صحيحاً فيجب أن تكون السيدة دوبريه قادرة على إعطائنا معلومات قيّمة.

تدخل بوارو بملاحظة قائلاً: سيد ستونور، هل كان السائق الإنكليزي، ماسترز، في خدمة السيد رينو منذ فترة طويلة؟

- لأكثر من سنة.

- أتعرف إن كان قد سبق له قط أن كان في أمريكا الجنوبية؟

- إنني واثق تماماً أنه لم يكن هناك أبداً؛ فقبل أن يأتي للعمل لدى السيد رينو كان يعمل لسنوات طويلة مع عائلة أعرفها جيداً في غلوسترشير.

- إذن فأنت تستطيع أن تضمن أنه فوق الشبهات؟

- بكل تأكيد.

بدا بوارو مصعوقاً بعض الشيء.

في غضون ذلك استدعى القاضي مارشو وقال له: أبلغ تحياتي للسيدة رينو وقل لها إنني سأسعد بالتحدث معها لبضع دقائق. وقل لها أن لا تزعج نفسها، فسأنتظرها في الطابق العلوي.

انتظرنا بضع دقائق، ثم فُتح الباب -لدهشتنا- ودخلت السيدة رينو شاحبة شحوب الموتى في ثياب حدادها.

قدم السيد هوتيه لها كرسياً وهو يعتذر بشدة، فشكرته بابتسامة. كان ستونور يمسك بإحدى يديها في إشارة تعاطف بليغة، وبدا واضحاً أن الكلمات قد خانته. التفتت السيدة رينو إلى السيد هوتيه وقالت: أكنت ترغب في سؤالي عن شيء؟

- بعد إذنك يا سيدتي. لقد فهمتُ أن زوجك كان كندياً فرنسياً بالولادة. هل يمكنك أن تخبريني شيئاً عن شبابه ونشأته؟

هزّت رأسها وقالت: لقد كان زوجي دائماً متحفظاً في الكلام عن نفسه يا سيدي. أعرف أنه جاء من الشمال الغربي، ولكن يُخيَّل إليّ أنه مرّ بطفولة تعِسة، لأنه لم يهتم أبداً بالحديث عن تلك الفترة.

لقد كنا نعيش حياتنا كلياً في الحاضر والمستقبل.

- هل كان في حياته الماضية أي لغز؟

ابتسمت السيدة رينو قليلاً وهزت رأسها قائلة: إنني واثقة من عدم وجود شيء رومانسي كهذا يا سيدي.

ابتسم السيد هوتيه أيضاً وقال: صحيح، ينبغي أن لا نمضي في مثل هذه الميلودراميات. بقي شيء واحد آخر...

ثم تردد قليلاً، فتدخل ستونور باندفاع قائلاً: لقد دخلت أذهانَهم فكرةٌ غريبة جداً يا سيدة رينو. إنهم يتخيلون أن السيد رينو كان على علاقة سرية بسيدة تدعى دوبريه، وهي تسكن قريباً من هنا.

توهج اللون القرمزي في وجنتي السيدة رينو. رفعت رأسها بقوة، ثم عضت شفتها ووجهها يضطرب. وقف ستونور ينظر إليها مدهوشاً، ولكن السيد بيكس انحنى إلى الأمام وقال بلطف: إننا نأسف إذ نسبب لك الألم يا سيدتي، ولكن هل لديكِ أي سبب للاعتقاد بأن السيدة دوبريه كانت عشيقة لزوجك؟

وبنشيج من الألم دفنت السيدة رينو وجهها بين يديها، وتقبض كتفاها كما لو أنهما تشنجا. وأخيراً رفعت رأسها وقالت بصوت كسير: ربما كانت كذلك.

لم أرَ في حياتي أبداً شيئاً يعادل الذهول الذي بدا على وجه ستونور؛ فقد فوجئ أيّما مفاجأة!

* * *

الفصل الحادي عشر

جاك رينو

لا أستطيع تخمين ما كان يمكن أن يتطور إليه الحديث، ذلك أن الباب فُتح بعنف في تلك اللحظة ودخل شاب طويل الغرفة.

وللحظة أحسستُ إحساساً غريباً بأن الرجل الميت قد بُعث حياً من جديد، ثم لاحظتُ أن هذا الرأس الأسود لم يقربه الشيب، وأن مَن دخل الغرفة علينا بهذا القدر من قلة الاحتفاء لم يكن سوى صبي. ذهب مباشرة إلى السيدة رينو باندفاع لم يتنبه لحضور الآخرين.

- ماما!

- جاك!

وبصرخة منها احتضنته وقالت: يا حبيبي! ولكن ما الذي أتى بك إلى هنا؟ كان يُفترض أن تُبحر على متن السفينة أنزورا من تشيربورغ قبل يومين؟

ثم استعادت فجأة إحساسها بوجود الآخرين فالتفتت بشيء من الفخر وقالت: هذا ابني يا سادتي.

قال السيد هوتيه وهو يجيب الشاب على انحناءة التحية: آهاه! لم تسافر إذن على متن أنزورا؟

- لا يا سيدي. كنتُ سأشرح لكم لتوي، فقد تأخرت السفينة أنزورا لفترة أربع وعشرين ساعة بسبب مشكلات في محركاتها. وكان من المفترض أن أغادر ليلة أمس بدلاً من ليلة أمس الأول، ولكن حدث أن اشتريت صحيفة مسائية ورأيت فيها تقريراً عن ال... عن المأساة الفظيعة التي نزلت بنا...

تهدج صوته واغرورقت عيناه بالدموع وقال: أبي المسكين، أبي المسكين!

كررت السيدة رينو وهي تحدق إليه كأنها في حلم: "لم تبحر إذن؟". ثم تمتمت بإشارة تدل على السأم التام، وكأنها تتكلم مع نفسها: على كلٍّ، لم يعد الأمر يهمُّ... الآن.

قال السيد هوتيه وهو يشير إلى كرسي: تفضل بالجلوس رجاء يا سيد رينو. إنني عميق الأسف بشأنك؛ لا بد أنها كانت صدمة عنيفة لك أن تتلقى الخبر بتلك الطريقة. ولكن من حسن الحظ كثيراً أنك لم تسافر. فأنا آمل أن تستطيع إعطاءنا المعلومات التي نحتاجها لنحلّ أمر هذا اللغز.

- أنا تحت تصرفك يا سيدي... اسألني أية أسئلة تريدها.

- بدايةً فهمتُ أن هذه الرحلة كانت بناء على طلب من أبيك، أليس كذلك؟

- تماماً يا سيدي. فقد تلقيتُ برقية تطلب مني التوجه دون

تأخير إلى بيونوس أيريس، ومن هناك عبر الأنديز إلى فالبارايزو، ثم المضي إلى سانتياغو.

- آه! وما هو الغرض من تلك الرحلة؟

- ليست لدي أية فكرة.

- ماذا؟

- نعم. انظر، هذه هي البرقية.

أخذها القاضي وقرأ بصوت عالٍ:

توجه فوراً إلى تشيربورغ، وهناك السفينة أنزورا ستبحر الليلة إلى بيونوس أيريس. وجهتك النهائية سانتياغو. ستنتظرك تعليمات أخرى في بيونوس أيريس. لا تتلكأ. الأمر في غاية الأهمية.

رينو

- ألم تكن بينكما مراسلات سابقة حول هذه المسألة؟

هزّ جاك رينو رأسه بالنفي وقال: هذه هي الإشارة الوحيدة لهذا الأمر. أعرف -طبعاً- أن لوالدي الكثير من المصالح في أمريكا الجنوبية نتيجة قضائه وقتاً طويلاً هناك، ولكنه لم يُثر أبداً أي موضوع عن إرسالي إلى هناك.

- لقد مكثتَ في أمريكا الجنوبية زمناً طويلاً يا سيد رينو، أليس كذلك؟

- كنت هناك وأنا طفل. ولكنني تلقيت تعليمي في إنكلترا،

وقضيت معظم عطلاتي الصيفية فيها، ولذلك فإن ما أعرفه حقاً عن أمريكا الجنوبية أقل بكثير مما قد يظن الناس. لقد اندلعت الحرب عندما كنتُ في السابعة عشرة.

- وقد خدمت في سلاح الجو البريطاني، أليس كذلك؟

- بلى يا سيدي.

أومأ السيد هوتيه برأسه ومضى في تحقيقه وفق السياق الذي أصبح الآن معروفاً تماماً. وجواباً عن الأسئلة أعلن جاك رينو دون لبس أنه لا يعرف عن أية عداوة يمكن أن يكون أبوه قد اكتسبها في مدينة سانتياغو أو غيرها من مدن أمريكا الجنوبية، وأنه لم يلاحظ تغيراً في سلوك أبيه مؤخراً، وأنه لم يسمعه أبداً يشير إلى سر لديه. وقال إنه اعتبر مهمته إلى أمريكا الجنوبية مهمة تتعلق بمصالح العمل.

وفيما توقف السيد هوتيه لحظة تدخل صوت جيرو الهادئ: أود يا سيادة القاضي طرح بعض الأسئلة الخاصة بي.

قال القاضي ببرود: بالتأكيد يا سيد جيرو، إن كنتَ ترغب بذلك.

حرف جيرو كرسيه قليلاً نحو الطاولة وقال: هل كنتَ على علاقة طيبة بوالدك يا سيد رينو؟

أجاب الولد بعنجهية: طبعاً كنتُ على علاقة طيبة معه.

- أتؤكد ذلك جازماً؟

- نعم.

- ألم تكن بينكما خلافات صغيرة؟

رفع جاك كتفيه وقال: يمكن لكل واحد أن تكون له خلافات في الرأي من آنٍ لآخر.

- بالطبع، بالطبع. ولكن إذا كان لأحدهم أن يؤكد بأنك تشاجرتَ مع أبيك شجاراً عنيفاً ليلة مغادرتك إلى باريس، فإن ذلك الشخص يكون كاذباً دون شك، أليس كذلك؟

اعترف الشاب قائلاً: لقد... لقد تجادلنا قليلاً بالفعل.

- آه، تجادلتما! وهل استخدمتَ في غمرة ذلك الجدال هذه العبارة: "عندما تموت يمكنني أن أصنع ما أشاء"؟

- ربما كنت قد قلتها، لا أدري.

- وهل قال أبوك رداً على ذلك: "ولكنني لم أمت بعد!". الأمر الذي أجبتَ عليه قائلاً: "أتمنى لو أنك كنتَ ميتاً!".

لم يجب الصبي. عبثت يداه بعصبية ببعض الأشياء أمامه على الطاولة، فقال جيرو بحدة: إنني أطلب منك جواباً من فضلك يا سيد رينو.

وبهتاف غاضب قذف الشاب بسكّين فتح رسائل إلى الأرض وقال: وما أهمية ذلك؟ ربما كان من الأفضل أن تعرف. نعم، لقد تشاجرتُ مع أبي. وأظنني قلتُ كل تلك الأشياء. لقد كنتُ غاضباً جداً بحيث لا أستطيع حتى تذكر ما قلته! كنت أتميز غضباً... بل ربما كدتُ أقتله في تلك اللحظة... هيا، استفد من هذا التصريح!

ثم عاد ليستند إلى ظهر كرسيه محمرَّ الوجه متحدياً.

ابتسم جيرو، ثم حرك كرسيه قليلاً إلى الخلف وقال: هذا كل ما لديّ. لا شك أن ترغب في استئناف استجوابك يا سيد هوتيه.

قال السيد هوتيه: آه، نعم... بالضبط. وماذا كان موضوع مشاجرتكما؟

- هذا ما أمتنعُ عن ذكره.

اعتدل السيد هوتيه في كرسيه وقال بغضب: سيد رينو، ليس من المسموح أن تستهين بالقانون! ماذا كان موضوع المشاجرة؟

بقي الشاب رينو ساكتاً، ووجهه الصبياني نكد متجهم. ولكن صوتاً آخر تكلم، صوت هيركيول بوارو الهادئ الواثق: أنا أخبرك إن أحببتَ يا سيدي.

- هل تعرف؟

- أعرف بالتأكيد. لقد كان موضوع المشاجرة هو الآنسة مارتا دوبريه.

التفت رينو بشدة وقد صعق، وتقدم القاضي بجسمه إلى الأمام وقال: هل الأمر كذلك أيها السيد؟

أومأ جاك رينو برأسه واعترف قائلاً: نعم. إنني أحب الآنسة دوبريه، وأتمنى الزواج منها. وعندما أخبرتُ والدي بالأمر اشتعل غضباً على الفور. ومن الطبيعي أنني لم أتحمل سماع الإهانة للفتاة التي أحبها، ولذلك فقدت أنا أيضاً أعصابي.

نظر السيد هوتيه إلى السيدة رينو وقال: أكنت تعرفين بأمر هذا ال... تعلُّق يا سيدتي؟

أجابت ببساطة: كنت أخشاه.

صاح الصبي: أمي، أنت أيضاً! إن طيبة مارتا لا تقل عن جمالها. ماذا لديك ضدها؟

- ليس عندي شيء ضد الآنسة دوبريه بأي شكل. ولكنني أفضّل أن تتزوج امرأة إنكليزية، فإن لم يكن من الفرنسية بدٌّ فلا ينبغي أن تكون فتاة لها أمٌّ ذات سوابق مريبة!

تبدت في صوتها بوضوح ضغينتُها على المرأة، وكان بوسعي أن أفهم تماماً بأنها تلقت صفعة مريرة إذ أظهر ابنها الوحيد دلائل على حبه لابنة غريمتها.

مضت السيدة رينو مخاطبة القاضي: ربما كان عليّ أن أخبر زوجي بالموضوع، ولكنني كنتُ آمل أن يكون الأمر مجرد غزل بين فتى وفتاة سرعان ما ينتهي إذا لم يأبه له أحد. إنني ألوم الآن نفسي على صمتي، ولكن زوجي -كما قلت لكم- كان يبدو شديد القلق متبرماً ومختلفاً عما عهدته بحيث حرصتُ تماماً على عدم إزعاجه بهمٍّ جديد.

أومأ السيد هوتيه وقال: عندما أخبرتَ والدك بنواياك تجاه الآنسة دوبريه، هل فوجئ؟

- لقد بدا مصعوقاً تماماً. ثم أمرني بكل حزم أن أقتلع من رأسي أية فكرة من هذا القبيل؛ لأنه لن يوافق على زواج كهذا. انزعجتُ

وسألته ما الذي يملكه ضد الآنسة دوبريه. ولم يستطع أن يعطيني جواباً مقنعاً على ذلك، ولكنه تكلم بمفردات مسيئة عن اللغز الذي يحيط بحياة الأم وابنتها. أجبته بأنني سأتزوج مارتا وليس سوابقها، ولكنه أسكتني بصراخه وبرفضٍ تام لمناقشة المسألة بأي شكل، قائلاً إن عليّ أن أترك الأمر كله. وقد جعلني هذا الظلم والتعسف أفقد صوابي... خاصة وأنه هو شخصياً بدا دائماً وكأنه يبذل كل ما في وسعه ليعنى بالفتاة وأمها، وكان يقترح دوماً دعوتهما إلى البيت. فقدت صوابي وتشاجرنا بكل عنف، وقد ذكّرني أبي بأنني معتمد كلياً عليه، ولا شك أن تلك العبارة حول فعلي ما أشاء بعد موته كانت جواباً على ذلك...

قاطعه بوارو بسؤال سريع: كنتَ تعرف إذن وصية والدك؟

أجاب الفتى: كنت أعرف أنه ترك نصف ثروته لي، والنصف الآخر في صندوق ائتمان لوالدتي يؤول إليّ بعد وفاتها.

قال القاضي: أكمل قصتك.

- بعد ذلك أخذ كلٌّ منا يصيح بالآخر بغضب جنوني، حتى أدركتُ فجأة أنني أكاد أُفوّت قطاري إلى باريس. واضطررتُ للركض إلى المحطة، وأنا ما أزال في حالة غضب شديد. ولكن ما أن أصبحتُ بعيداً حتى هدأت. كتبتُ إلى مارتا وأخبرتها بما حدث، وقد هدّأني جوابها أكثر فأكثر؛ فقد أشارت إلى أن كل ما علينا أن نفعله هو أن نبقى صامدين، وأن المعارضة لا بد أن تستسلم لإرادتنا في النهاية، وأن حبنا لا بد أن يُمتحَن ويصمد، وعندما يفهم والداي بأن الأمر ليس مجرد ولهٍ خفيف من طرفي فلا بد أنهما سيرقّان لنا.

لم أكتب لها طبعاً عن الاعتراض الشديد لوالدي عليها، وسرعان ما أدركتُ أنني لن أفيد قضيتي بشيء عن طريق العنف.

- حسناً، لننتقل إلى موضوع آخر. هل تعرف اسم دوفين يا سيد رينو؟

- دوفين؟ دوفين؟

انحنى والتقط ببطء سكين فتح الرسائل الذي رماه إلى الأرض. وعندما رفع رأسه التقت عيناه بعيني جيرو اللتين تراقبانه، وقال: دوفين؟ لا، لا يمكنني القول إنني أعرفه.

- هل لك أن تقرأ هذه الرسالة يا سيد جيرو؟ وقل هل لديك أية فكرة عن الشخص الذي أرسلها لوالدك؟

أخذ جاك رينو الرسالة وقرأها بإمعان ووجهه يحمرُّ وهو يقرأ. قال بانفعال وسخط ظاهر: أهي موجهة لوالدي؟

- نعم. وجدناها في جيب ردائه.

- هل...

ثم تردد وغمز بطرف عينه باتجاه أمه، ففهم القاضي قصده وقال: حتى الآن... لا. هل تستطيع أن تعطينا أية إشارة للكاتب؟

- ليست لدي أية فكرة أبداً.

تنهد القاضي وقال: قضية شديدة الغموض. حسناً، أظننا نستطيع الآن استبعاد الرسالة كلياً. أين وصلنا؟ آه، سلاح الجريمة.

أخشى أن يؤلمك هذا الموضوع يا سيد رينو. فقد فهمتُ أنه كان هدية منك لوالدتك. أمر محزن جداً... مؤلم جداً.

مال جاك رينو بجسمه إلى الأمام، وكان وجهه الذي احمرّ أثناء قراءة الرسالة قد أصبح شاحباً جداً الآن، وقال: هل تعني أن سكين فتح الرسائل المصنوعة من أسلاك الطائرات كانت هي السلاح الذي... الذي قُتل به والدي؟ ولكن ذلك مستحيل! أداة صغيرة كتلك!

- مع الأسف يا سيد رينو، ولكن ذلك صحيح تماماً! كانت أداة صغيرة مثالية لهذا الغرض؛ فهي حادة وسهلة التناول.

- أين هي؟ هل أستطيع رؤيتها؟ أما تزال في ال... في الجثة؟

- آه لا، لقد انتُزعت. هل تود رؤيتها؟ للتأكد؟ ربما كان ذلك أفضل، رغم أن السيدة رينو قد تعرفت إليها. ومع ذلك لا بأس... سيد بيكس، هل تسمح بأن تتعبك بإحضارها؟

- بالتأكيد. سأحضرها فوراً.

قال جيرو بهدوء: ألن يكون من الأفضل أن تأخذ السيد رينو إلى السقيفة؟ لا شك أنه يرغب برؤية جثة أبيه.

قام الفتى برعدة نفي، وقال القاضي الذي يروق له دوماً معارضة جيرو: ليس الآن، سيتلطف السيد بيكس بإحضارها إلى هنا.

غادر المفوض الغرفة، وعبر ستونور إلى جاك وضغط على يده

تشجيعاً. كان بوارو قد نهض وأخذ يُعدّل شمعدانيين لاحظتْ عينه المدربة أنهما كانا مائلين قليلاً. وكان القاضي يقرأ الرسالة الغامضة بإمعان للمرة الأخيرة متمسكاً بيأس بنظريته الأولى عن الغيرة والطعن في الظهر. وفجأة فتح الباب بقوة ودخل المفوض مسرعاً.

- سيدي القاضي، سيدي القاضي!

- نعم، ما الأمر؟

- الخنجر! لقد اختفى!

- ماذا... اختفى؟

- تبخر تماماً... لا أثر له. وإناء الزجاج الذي كان فيه فارغ!

صحتُ أنا: ماذا؟ مستحيل! لقد رأيته هذا الصباح...

ثم ماتت الكلمات على شفتي. ولكن أنظار الغرفة كلها كانت قد تحولت إليّ. صاح المفوض: ما الذي تقوله؟ هذا الصباح؟

قلتُ ببطء: لقد رأيته هناك هذا الصباح... قبل نحو ساعة ونصف بالتحديد.

- أَذَهبتَ إلى السقيفة إذن؟ كيف حصلتَ على المفتاح؟

- طلبته من شرطي البلدة.

- وذهبتَ إلى هناك؟ لماذا؟

ترددت، ولكنني قررتُ في النهاية أنّ أفضل إجراء هو أن أحكي ما يتلجلج في صدري. قلت: سيد هوتيه، لقد ارتكبتُ غلطة كبرى يجب علي أن أطلب منك غفرانها.

- أكمل أيها السيد.

قلتُ (متمنياً لو كنت في أي مكان غير هذا المكان): حقيقة الأمر هي أنني التقيتُ شابة أعرفها، وقد أظهرَتْ رغبة شديدة برؤية كل ما يمكن رؤيته، وقد... وقد... وباختصار فقد أخذت المفتاح وأريتُها الجثة.

صاح القاضي ساخطاً: آه! لقد ارتكبتَ خطأً جسيماً بذلك يا كابتن هيستنغز. هذا كله شاذ تماماً... ما كان لك أن تسمح لنفسك بارتكاب هذه الحماقة.

قلتُ بخنوع: أعرف. لا يمكن لأي شيء تقوله مهما قسا أن يوازي غلطتي.

- هل أنت الذي دعوت السيدة للقدوم إلى هنا؟

- لا بالتأكيد. لقد التقيتها بمحض المصادفة... إنها فتاة إنكليزية صدف وجودها في ميرلينفيل، رغم أنني لم أعرف بذلك حتى لقائي غير المتوقع بها.

قال القاضي وقد هدأ قليلاً: حسناً، حسناً. لقد كان هذا تصرفاً شاذاً تماماً، ولكن لا شك أن هذه السيدة شابة وجميلة. يا لطيش الشباب!

ثم تنهد عجباً. ولكن المفوض الأقل رومانسية والأكثر عملية تابع الموضوع: ولكن ألم تقفلا الباب ثانية بعد خروجكما؟

قلتُ بتمهل: هنا مكمن الخطأ، وهذا ما ألوم نفسي عليه بشدة.

فقد خافت صديقتي من المنظر، بل كاد يغمى عليها، فأحضرت لها بعض الماء، وألححتُ عليها بعد ذلك أن أرافقها إلى البلدة. وفي غمرة انفعالي نسيت إعادة إقفال الباب، ولم أقفله إلاّ بعد أن عدتُ إلى الفيلا.

قال المفوض ببطء: إذن فقد بقي الباب مفتوحاً لمدة عشرين دقيقة على الأقل...

ثم سكت، فقلتُ له: بالضبط.

قال متأملاً: عشرون دقيقة.

قال القاضي وقد عادت إليه شدته: أمر مُنكَر تماماً، لا سابقة له!

فجأة تكلم صوت آخر، فقد سأل جيرو: أتراه منكراً يا سيادة القاضي؟

- طبعاً، بالتأكيد.

قال الآخر بهدوء: إنني أراه رائعاً!

صعقني تماماً هذا الحليف المفاجئ. سأله القاضي وهو يتفحصه بإمعان من زاوية عينه: تجده رائعاً يا سيد جيرو؟

- بالضبط.

- ولماذا؟

- لأننا نعرف الآن أن القاتل أو أحد شركائه قد كان قرب

الفيلا منذ نصف ساعة فقط، وبهذه المعلومة سيكون من الغريب أن لا نضع أيدينا عليه بسرعة.

كان في صوته نبرة تهديد. أضاف قائلاً: لقد جازف كثيراً للحصول على ذلك الخنجر. ربما خاف أن تُكتشف عليه بصمات أصابع.

التفت بوارو إلى بيكس وقال: ألم تقولوا إنه لا وجود لبصماتٍ عليه؟

رفع جيرو كتفيه بلامبالاة وقال: ربما لم يكن القاتل واثقاً من ذلك.

نظَر بوارو إليه وقال: أنت مخطئ يا سيد جيرو. لقد لبس القاتل قفازات، ولذلك لا بد أنه واثق من الأمر.

- أنا لا أقول إنه القاتل. ربما كان شريكاً له لا يعرف تلك الحقيقة.

كان الكاتب الذي يعمل تحت إمرة القاضي يلملم أوراقه عن الطاولة فيما خاطبَنا القاضي قائلاً: لقد انتهى عملنا هنا. هل لك يا سيد رينو أن تصغي إلى إفادتك وهي تتلى عليك. لقد حاولتُ عامداً أن أُبقي الإجراءات غير رسمية قدر الإمكان. القضية الآن بين اليدين الماهرتين للسيد جيرو الشهير، ولا شك أنه سيحقق من النتائج ما يبرر شهرته. والحقيقة أنني أعجب كيف لم يستطع حتى الآن إلقاء القبض على القتلة! دعيني يا سيدتي أعبّر مرة أخرى عن عميق تعاطفي. أتمنى لكم يوماً طيباً أيها السادة.

ثم غادر يرافقه كاتبه والمفوض.

أخرج بوارو ساعته الضخمة من جيبه ونظر إليها، ثم قال: دعنا نعُد إلى الفندق لتناول الغداء يا صديقي، وسوف تروي لي بالتفصيل فضائحك التي ارتكبتَها صباح اليوم. لا أحد يلاحظنا... لا حاجة لتوديع أحد.

خرجنا من الغرفة بهدوء. كان قاضي التحقيق قد انطلق لتوه بسيارته، وكنت أنزل الدرج عندما أوقفني صوت بوارو: دقيقة يا صديقي.

ثم أخرج ببراعة متر القياس الذي يحتفظ به وتقدم بكل جدية ليقيس معطفاً معلقاً في الصالة. لم أكن قد رأيت المعطف هناك من قبل، وخمّنتُ أنه إما معطف السيد ستونور أو معطف جاك رينو. بعد ذلك أعاد بوارو متر القياس إلى جيبه بابتسامة اقتناع صغيرة ولحق بي إلى الهواء الطلق.

* * *

الفصل الثاني عشر

بوارو يوضح بعض النقاط

سألت بوارو بفضول ونحن نمشي في الشارع الحار بخطى متمهلة: لماذا قِستَ ذلك المعطف؟

أجاب صديقي بهدوء: لكي أرى طوله بالطبع!

أغاظني جوابه. إن عادة بوارو (التي لا يُرجى شفاؤها) في تحويل كل أمر مهما صغر إلى لغز لم تكن تفشل أبداً في إزعاجي. عدتُ إلى الصمت، ورحتُ أتابع سلسة أفكارٍ خاصة بي. عادت إلى ذاكرتي الآن كلمات معينة لم أدقق فيها كثيراً عندما قيلت، وهي كلمات السيدة رينو لابنها، عادت محملة بمغزى جديد. كانت قد قالت: "إذن فأنت لم تبحر؟". ثم أضافت: "**على كلٍّ، لم يعد الأمر يهمُّ. . . الآن**".

ما الذي عنته بذلك؟ كانت تلك الكلمات مهمة... آسرة بغموضها. أيمكن أن تكون عارفة بأكثر مما ظننا؟ لقد أنكرت كل معرفة بالمهمة الغامضة التي أوكلها زوجها إلى ابنه. ولكن هل كانت حقاً أقل جهلاً مما زعمت؟ أكان بوسعها أن تنير لنا الطريق لو أرادت،

وهل كان صمتها جزءاً من خطة مسبقة وُضعت بكل عناية؟

كلما أمعنت في ذلك تفكيراً اقتنعتُ أكثر بأنني على صواب. لقد كانت السيدة رينو تعرف أكثر مما اختارت قوله، وبسبب دهشتها لرؤية ابنها فضحت نفسها -بشكل عابر- بزلة لسان. شعرتُ أنني مقتنع بأنها إن لم تكن تعرف القتلة، فهي تعرف -على الأقل- الدافع خلف الجريمة. ولكن لا بد أن اعتبارات قوية جداً تجعلها تبقى صامتة.

قطع بوارو أفكاري قائلاً: إنك تفكر بعمق يا صديقي. ما الذي يأسر اهتمامك إلى هذا الحد؟

أخبرته وأنا واثق من أسبابي، رغم توقعي أن يقوم بازدراء شكوكي. ولكنه -لدهشتي- أومأ برأسه متأملاً وقال: أنت مُحقٌ تماماً يا هيستنغز. كنتُ واثقاً من البداية أنها تخفي شيئاً، وقد ارتبتُ إما بأن تكون هي من حثّ على الجريمة ودفع إليها أو أن تكون قد رضيت بها وسكتت عنها.

صحتُ قائلاً: أوَقد شككتَ بها؟

- بالتأكيد؛ فهي تستفيد استفادة هائلة... والحقيقة أنها المستفيدة الوحيدة وفقاً لهذه الوصية الجديدة. ولذلك فقد برزت منذ البداية كمحلٍ للشبهات. ولعلكَ لاحظتَ أنني اغتنمتُ فرصة مبكرة لأتفحص رسغيها؛ فقد رغبتُ أن أتوثق من أية إمكانية في أن تكون قد كممت وربطت نفسها. ولكنني رأيت على الفور عدم وجود أي تلاعب في الأمر، فقد شُدَّت الحبال عملياً إلى حدٍّ جعلها تنغرس في لحم يديها. وقد أدى ذلك إلى استبعاد إمكانية إقدامها

على ارتكاب الجريمة بمفردها. ولكن بقيت -مع ذلك- إمكانية أن تكون ساكتة راضية عن الجريمة، أو أن تكون هي المحرضة عليها مع شريك لها. وفوق ذلك فإن القصة التي روتها كانت مألوفة تماماً بالنسبة لي. الرجلان المُقنّعان اللذان لم تستطع تمييزهما، وذكر «السر»... لقد سمعتُ (أو قرأتُ) كل هذه الأمور من قبل. وقد أكدت لي معلومةٌ صغيرةٌ أخرى أنها لم تكن تقول الحقيقة... **ساعة اليد يا هيستنغز، ساعة اليد!**

ها قد عدنا لتلك الساعة من جديد! كان بوارو ينظر إليّ بشكل غريب، ثم قال: أرأيت يا صديقي؟ هل فهمت؟

أجبته بمزاج متعكر: لا، لا أنا رأيت ولا فهمت. إنك تدبر كل هذه الألغاز التعِسة، ولا فائدة من استيضاحك عن معناها. أنت تحب دائماً ترك إخفاء بعض الأمور حتى اللحظة الأخيرة.

قال بوارو مبتسماً: لا تغضب يا صديقي، سأشرح لك إن رغبت. ولكن لا تقل كلمة واحدة لجيرو، هل فهمت؟ إنه يعاملني كعجوز لا أهمية له... وسوف نرى! لقد قمتُ بإعطائه إشارة للأمر من باب الإنصاف، فإن هو اختار أن لا يعمل وفقها فهذه غلطته هو.

أكدتُ لبوارو أن بوسعه الاعتماد على تكتمي، فقال: حسناً! دعنا إذن نستعمل خلايا دماغنا الرمادية. قل لي يا صديقي، في أي وقت وقعت المأساة برأيك؟

قلتُ مدهوشاً: في نحو الثانية ليلاً بالطبع. لعلك تذكر أن السيدة رينو أخبرتنا أنها سمعت دقات الساعة بينما كان الرجلان في الغرفة.

- بالضبط، وبناء على قوة هذه الشهادة فقد قبلتَ أنت وقاضي التحقيق والسيد بيكس وكل الآخرين بهذا الموعد دون نقاش. أما أنا -هيركيول بوارو- فأقول إن السيدة رينو كذبت. **لقد حدثت الجريمة قبل ذلك بساعتين على الأقل.**

- ولكن الأطباء...

- لقد قال الأطباء بعد فحص الجثة إن الوفاة قد وقعت قبل فترة تتراوح بين عشر ساعات وسبع ساعات من فحصهم لها. يا صديقي، لقد كان من الضروري جداً -لسبب ما- أن تبدو الجريمة وكأنها حدثت في وقتٍ لاحق عن الوقت الذي ارتُكبت فيه فعلاً. ألم تسمع بالساعات والمنبهات التي تتحطم بحيث تُعطي الوقت الدقيق لارتكاب الجرائم؟ فحتى لا تبقى مسألة الوقت متعلقة بشهادة السيدة رينو وحدها، قام أحدهم بتقديم الساعة بقدر ساعتين ثم ضربها بشدة بالأرض. ولكن السحر انقلب على الساحر كما يحدث غالباً؛ فقد تحطم زجاج الساعة، ولكن محركها بقي يعمل. لقد كانت مناورة خطيرة جداً من طرفهم، ذلك أنها استرعت انتباهي فوراً لنقطتين: الأولى هي أن السيدة رينو كانت تكذب، والثانية هي أنه كان يوجد -دون ريب- سبب حيوي لتأخير موعد الجريمة.

- ولكن أي سبب هذا؟

- آه، هذا هو السؤال! إن اللغز كله يكمن في ذلك، وأنا لا أستطيع بعد أن أفسر السبب. توجد فكرة واحدة فقط تطرح نفسها عليّ باعتبارها ذات صلة ممكنة بذلك.

- ألا وهي؟

- لقد غادر آخر القطارات بلدة ميرلنينفيل في الساعة الثانية عشرة وسبع عشرة دقيقة.

أكملتُ أنا فكرته قائلاً ببطء: فإذا ما استقر الرأي على أن الجريمة قد حصلت في الثانية ليلاً فإن كل من يغادر في ذلك القطار يكون قد أمّن لنفسه عذراً لا يمكن دحضه بالغياب عن مسرح الجريمة وقت وقوعها!

- بالضبط يا هيستنغز! لقد فهمتَها!

قفزت وقلت: ولكن يجب أن نسأل في المحطة! من المؤكد أن ملاحظة رجلين أجنبيين غادرا في ذلك القطار ما كانت لتفوت العاملين في المحطة! يجب أن نذهب إلى هناك فوراً!

- أتظن ذلك يا هيستنغز؟

- بالطبع... دعنا نذهب الآن.

هدّأ بوارو حماستي بلمسة منه لذراعي وقال: اذهب إذا كنت تريد ذلك يا صديقي... ولكن إذا ذهبتَ فلا تسأل عن صفات شخصين أجنبيين.

حدقتُ إليه فقال بشيء من نفاد الصبر: أتصدق كل ذلك الهراء يا صديقي؟ الرجلان المقنّعان وبقية المسرحية!

أدهشتني كلماته إلى الحد الذي لم أعرف معه كيف أجيبه. ولكنه مضى يقول بهدوء: ألم تسمعني أقول لجيرو إن كل تفصيلات هذه الجريمة مألوفة لدي؟ إن هذا يفترضُ أحد أمرين، إما أن يكون

العقل الذي خطط للجريمة الأولى قد خطط لهذه أيضاً، أو أن تقريراً صحفياً عن جريمة شهيرة قد بقي حياً -لاشعورياً- في ذهن قاتلنا بحيث أملى عليه تفصيلات الجريمة. وسوف أكون قادراً على الجزم بشأن ذلك بعد...

ثم توقف. كنتُ أستعيد العديد من القضايا في ذهني، ثم قلت له: ولكن ماذا عن رسالة رينو؟ لقد أشارت بوضوح إلى سر، وإلى سانتياغو!

- لا ريب أنه كان في حياة السيد رينو سر... هذا ما لا يمكن الشك فيه، ولكن كلمة سانتياغو برأيي هي طُعم مُضلّل، يتم رميها في طريقنا دوماً لنبتعد عن الهدف الحقيقي. ومن الممكن أن تكون قد استُخدمت بنفس الطريقة مع السيد رينو لتمنعه من تركيز شكوكه على مكان أقرب إليه تماماً. آه، تأكد يا هيستنغز أن الخطر الذي كان يتهدده لم يكن في سانتياغو، بل كان أقرب بكثير من ذلك، هنا في فرنسا.

كان يتكلم بكل جدية، وبقدر من التأكيد لم أستطع معه إلاّ الاقتناع. ولكنني طرحتُ اعتراضاً واحداً وأخيراً: وماذا عن عود الثقاب وعقب اللفافة قرب الجثة؟

أضاء وجهَ بوارو شيءٌ من المتعة وقال: لقد أُلقيا هناك! أُلقيا عمداً بحيث يجدهما جيرو أو واحد من أشباهه! آه، إن جيرو يتقن عمله كما يصنع كلب صيد ماهر. لقد دخل مسروراً جداً بنفسه، وقد زحف على بطنه ساعات ليأتي قائلاً: "انظروا ماذا وجدت". ثم قال لي: "ماذا ترى هنا؟". أما أنا فقد أجبته بكل صدق عميق: "لا شيء".

فضحك جيرو، جيرو العظيم، وفكر في نفسه قائلاً: "إنه مغفل هذا العجوز!". ولكننا سنرى...

إلاّ أن عقلي عاد إلى الحقائق الرئيسية وقلت: إذن فإن كل تلك القصة عن رجلين مُقنّعين...

- زائفة.

- ما الذي حدث حقاً؟

رفع بوارو كتفيه حيرة وقال: بإمكان شخص واحد أن يخبرنا بذلك... السيدة رينو! ولكنها لن تتكلم، ولن تحركها التهديدات والتوسلات. تلك امرأة ذات شخصية بارزة يا هيستنغز. لقد أدركتُ منذ أن رأيتُها أنني سأضطر للتعامل مع امرأة غير عادية. وكما أخبرتك، فإنني ملتُ في البداية للشك في أنها معنية بالجريمة، وبعد ذلك غيرتُ رأيي.

- ما الذي جعلك تغير رأيك؟

- حزنها التلقائي الحقيقي لدى رؤيتها لجثة زوجها. بوسعي أن أُقسم بأن الألم في تلك الصرخة التي أطلقتها كان حقيقياً.

قلت متأملاً: نعم؛ لا يخطئ المرء في إدراك هذه الأمور.

- اعذرني يا صديقي، ولكن يمكن للمرء أن يخطئ دائماً. انظر إلى ممثلة عظيمة، ألا تتأثرُ وتحزن عندما تراها تمثل دور الحزن والألم؟ نعم، مهما كان انطباعي وشعوري قوياً، فإنني أحتاج إلى دليل إضافي قبل أن أسمح لنفسي بأن أقتنع بشيء أراه. بوسع مجرم

عظيم أن يكون ممثلاً عظيماً. وفي هذه الحالة لا أبني قناعتي على انطباعي الخاص، بل على الحقيقة التي لا يمكن إنكارها، وهي أن السيدة رينو قد أغمي عليها فعلاً. لقد رفعتُ جفنيها وجسستُ نبضها. لم يكن في ذلك خداع... كانت إغماءتها حقيقية، ولذلك فقد اقتنعتُ بأن ألمها كان حقيقياً وليس مُتصنّعاً. وفوق ذلك كانت أمامنا نقطة إضافية صغيرة لا أهمية لها، وهي أنه لم يكن من الضروري بالنسبة للسيدة رينو أن تُظهر كل هذا الحزن الكبير؛ إذ كانت قد تعرضت أصلاً لنوبة الحزن المفاجئ عند تلقيها لنبأ وفاة زوجها، وما كانت بها حاجة لإظهار نوبة حزن عنيفة أخرى لرؤية جثته. كلا، لم تكن السيدة رينو قاتلةَ زوجها. ولكن لماذا كذبت؟ لقد كذبت بشأن الساعة، وكذبت بشأن الرجلين المُقنّعين... وكذبت بشأن أمر ثالث. قل لي يا هيستنغز، ما هو تفسيرك للباب المفتوح؟

قلت بشيء من الحرج: أحسب أن ذلك كان هفوة؛ فقد نسوا أن يقفلوه.

هزّ بوارو رأسه، ثم تنهد وقال: هذا تفسير جيرو، ولكنه لا يقنعني. إن خلف ذلك الباب المفتوح معنىً لا أستطيع سبر غوره في الوقت الراهن. شيء واحد أنا متأكد منه إلى حدٍّ بعيد... إنهم لم يغادروا المنزل من خلال الباب، بل من النافذة.

- ماذا؟

- بالتأكيد.

- ولكن لم تكن في المسكبة تحت النافذة آثار أقدام.

- نعم، وكان ينبغي أن تكون فيها آثار! اسمع يا هيستينغز، لقد قام البستاني أوغست -كما سمعتَه يقول- بزرع الورود في كلا المسكبتين مساء ذلك اليوم. وفي إحدى المسكبتين توجد آثار لحذائه الضخم... أما في الأخرى فلا يوجد شيء! هل فهمتني؟ لقد مرّ البعضُ من هناك، وقد أرادوا أن يموهوا على آثارهم، فقاموا بتسوية سطح التربة باستخدام شُعْب مما يستخدمه البستانيون.

- ومن أين حصلوا على الشُعْب؟

قال بوارو بنفاد صبر: ومن أين حصلوا على الرفش وعلى قفازات البستاني؟ ليس في ذلك صعوبة.

- ومع ذلك، ما الذي يجعلك تظن أنهم غادروا من ذلك الطريق؟ الأرجح أن يكونوا قد دخلوا من النافذة وغادروا من الباب؟

- هذا ممكن بالطبع، ومع ذلك فلدي فكرة قوية بأنهم غادروا من النافذة.

- أحسب أنك مخطئ.

- ربما يا صديقي.

أخذتُ أفكر، مستعرضاً ميادين التخمين الجديدة التي فتحتها أمامي استنتاجات بوارو. تذكرتُ عجبي من إشاراته الغامضة إلى مسكبة الورود وساعة اليد. لقد بدت ملاحظاته وقتها غير ذات معنى، وها أنا الآن أدرك لأول مرة كيف استطاع -من خلال مجموعة أحداث بسيطة- أن يكشف ببراعة كثيراً من الغموض الذي يلف

القضية. عبّرتُ عن إعجابي المتأخر بقدرات صديقي، ثم قلتُ وأنا أفكر: ولكن رغم معرفتنا بالكثير مما لم نكن نعرفه، إلاّ أننا لم نقترب من حل لغز قاتل السيد رينو.

قال بوارو بمرح: بل نحن في الحقيقة بعيدون كثيراً عن ذلك.

بدا أن هذه الحقيقة تمنحه رضا غريباً إلى الحد الذي جعلني أحدق إليه عجباً، أما هو فنظر إليّ وابتسم.

فجأة أنارت عقلي فكرة فقلت: بوارو... السيدة رينو! إنني أفهم الأمر الآن. لا بد أنها تتستر على أحد.

ومن الهدوء الذي استقبل به بوارو ملاحظتي عرفتُ أن الفكرة قد خطرت له من قبل. قال متأملاً: نعم. تتستر على أحد... أو تحمي أحداً، أحد هذين الأمرين.

ثم أومأ لي طالباً مني الصمت ونحن ندخل الفندق.

* * *

الفصل الثالث عشر
الفتاة ذات العينين المتلهفتين

تناولنا الغداء بشهية رائعة. أكلنا بصمت لفترة، ثم قال بوارو بلؤم: حسناً، وماذا عن فضائحك! ألن ترويها لي؟

شعرت بوجهي يحمرّ، وقلت: آه، أتعني صباح اليوم؟

سعيتُ لتبنّي نبرة غير مهتمة على الإطلاق، ولكنني لم أكن نداً لبوارو. فخلال دقائق معدودة استطاع معرفة القصة كلها مني، وكانت عيناه تومضان أثناء ذلك، ثم ما لبث أن قال: حسناً، قصة رومانسية جداً. وما هو اسم تلك الفتاة الفاتنة؟

اضطررتُ للاعتراف بأنني لا أعرف، فقال: وهذا يزيد الأمر رومانسية! أول لقاء في القطار القادم من باريس، والثاني هنا. ألا يقول المثل إن الرحلات تنتهي بتلاقي العشاق؟

- لا تكن لئيماً يا بوارو.

- بالأمس كانت الآنسة دوبريه، واليوم الآنسة... سندريلا! من ستكون غداً يا ترى؟

- أنت تقول كل ذلك لإغاظتي. الآنسة دوبريه فتاة رائعة الجمال، وأنا معجب بها كثيراً... لا يهمني أن أعترف بذلك. أما الأخرى فلا شأن لها... ولا أحسبني سأراها ثانية أبداً.

- ألا تخطط لرؤية الفتاة ثانية؟

كانت كلماته الأخيرة أقرب إلى السؤال، وقد أدركتُ تلك الحدة التي نظر بها إليّ. وانتصب أمام عيني اسم «فندق دو فار» وكأنه كُتب بأحرف كبيرة من نار، وسمعتُ ثانية صوتها وهي تقول: "تعال لزيارتي" وإجابتي لها بحرج قائلاً إنني سآتي. ولكني أجبتُ بوارو بكثير من عدم الاهتمام: لقد دعتني لزيارتها، غير أني لن أزورها بالطبع.

- ولماذا «بالطبع»؟

- لأنني لا أريد ذلك.

- لقد قلتَ لي إن الآنسة سندريلا تقيم في فندق دانغليتير، أليس كذلك؟

- بل هي تقيم في فندق دو فار.

- صحيح، لقد نسيت.

عبرتْ لحظة من الشك ذهني، فمن المؤكد أنني لم أذكر لبوارو أي فندق. نظرتُ إليه عبر الطاولة فشعرت بالاطمئنان؛ فقد كان يقطع خبزه إلى مربعات صغيرة مرتبة وهو مستغرق جداً بذلك. لا بد أنه تخيل أنني ذكرتُ له مكان إقامة الفتاة.

شربنا القهوة في الخارج ونحن نواجه البحر. ودخن بوارو واحدة من لفافاته الصغيرة تلك، ثم سحب ساعته من جيبه وقال: إن القطار المغادر إلى باريس ينطلق في الساعة الثانية وخمس وعشرين دقيقة. يجب أن أذهب.

صحتُ قائلاً: إلى باريس؟

- نعم، هذا ما قلتُه يا صديقي.

- أتذهب إلى باريس؟ لماذا؟

أجاب بكل جدية: لأبحث عن قاتل السيد رينو.

- أوَتظنُّه في باريس؟

- بل أنا متأكد أنه ليس هناك، ومع ذلك فهناك ينبغي أن أبحث عنه. إنك لا تفهمني، ولكنني سأشرح الأمر كله لك في الوقت المناسب. صدقني، إن هذه الرحلة لباريس ضرورية. لن أغيب طويلاً؛ سأعود غداً في أغلب الاحتمالات، ولا أرى ضرورة لقدومك معي. ابقَ هنا وراقب لي جيرو، وعزّز أيضاً صداقتك مع السيد رينو الإبن.

- لقد ذكّرتَني. كنت أريد سؤالك كيف عرفت بأمره وأمر الآنسة دوبريه؟

- يا صديقي... إنني أعرف الطبيعة البشرية. ما لك إلاّ أن تجمع فتى مثل الشاب رينو مع فتاة جميلة كالآنسة دوبريه حتى تكون النتيجة حتمية تقريباً. ثم لدينا موضوع المشاجرة، وهي إما أن تكون بسبب المال أو بسبب المرأة، وعندما تذكرتُ وصف ليوني

لغضب الفتى قررتُ أنها المرأة وليس المال. وهكذا رميت تخميني، وكنتُ مصيباً.

- أكنتَ تشك أساساً في أنها تحب الشاب رينو؟

ابتسم بوارو وقال: على أية حال فقد رأيت أن لها عينين قلقتين. هكذا أرى الآنسة دوبريه دوماً، باعتبارها الفتاة ذات العينين القلقتين.

كان صوته جاداً جهماً إلى الحد الذي أثار فيّ شيئاً من عدم الارتياح، فقلت له: ماذا تعني بذلك يا بوارو؟

- يخيل لي يا صديقي أننا سنعرف ذلك قبل أن يمر وقت طويل، ولكن يجب أن أنطلق.

قلتُ وقد نهضت: سآتي لتوديعك.

- لا، لن تفعل شيئاً كهذا، إنني أمنعك.

كان حاسماً إلى حدٍّ جعلني أحدق إليه بدهشة. ولكنه أضاف بتأكيد: إنني أعني ما أقول يا صديقي، وداعاً.

شعرت بشيء من الفراغ بعد أن تركني بوارو. تمشيت حتى شاطئ البحر وراقبت الناس يسبحون دون أن أشعر بحماسة للانضمام إليهم. خُيل إليّ أن ساندريلا يمكن أن تكون بينهم ولكنني لم أجد أثراً لها. مشيت على غير هدى فوق الرمل باتجاه الطرف الآخر من البلدة. خطر لي أن من اللباقة أن أسأل عن الفتاة، وأن ذلك سيوفر عليّ المتاعب في نهاية الأمر، فإذا ما زرتها فسينتهي الأمر عند ذلك

الحد، ولن تكون بي حاجة لإقلاق نفسي بشأنها من بعد، أما إن لم أذهب بتاتاً فمن الممكن أن تأتي هي وتسأل عني في الفيلا.

وهكذا تركت الشاطئ ودخلتُ البلدة. وسرعان ما وجدت فندق دو فار، وكان ذا مبنى متواضع جداً. وقد كان عدم معرفتي لاسم الفتاة مسألةً مزعجة جداً، وحفاظاً على كرامتي قررتُ دخول الفندق والبحث هناك، فربما وجدتها في البهو. دخلتُ ولكنني لم أجد لها أثراً. انتظرتُ بعض الوقت حتى غلبني نفاد الصبر فأخذت موظف الاستقبال جانباً ودسستُ في يده خمسة فرنكات وقلت: أريد رؤية شابة تقيم هنا. فتاة إنكليزية صغيرة الجسم سمراء... لست متأكداً من اسمها.

هزّ الرجل رأسه بالنفي وبدا وكأنه يكتم ضحكة، ثم قال: لا تقيم هنا مثل هذه الفتاة التي تصفها.

- ولكنها قالت لي إنها تقيم هنا.

- لا بد أن سيدي قد أخطأ... أو أن الأرجح أن السيدة هي التي أخطأت، طالما أن سيداً آخر كان يسأل عنها.

صحتُ بدهشة: ما هذا الذي تقوله؟

- نعم يا سيدي. لقد سأل عنها سيد وأعطى نفس الأوصاف التي تقولها.

- كيف كان شكله؟

- كان سيداً ضئيل الجسم، حسن الثياب، شديد التأنق، بالغ

النظافة، وشاربه منتصب تماماً، وكان ذا رأس غريب الشكل وعينين خضراوين.

بوارو! لذلك إذن رفض أن يسمح لي بمرافقته إلى المحطة. يا لهذه الوقاحة! كان الأولى به أن لا يتدخل في شؤوني. أيحسب أنني بحاجة إلى من يرعاني؟

غادرتُ بعد أن شكرتُ الرجل وأنا في حيرة من أمري شديدَ الانزعاج من صديقي الفضولي. من الواضح أنها أخطأت في ذكر اسم الفندق من باب الإهمال. ثم خطرت لي فكرة أخرى: أكان ذلك إهمالاً، أم أنها احتفظت عامدة باسمها وأعطتني عنواناً خاطئاً؟

ومع زيادة تفكيري بالأمر كان اقتناعي يزداد بصحة تخميني الأخير هذا. لم تكن الفتاة راغبة -لسبب أو لآخر- بجعل تلك المعرفة تتطور إلى صداقة. ومع أن هذه الفكرة تحديداً كانت فكرتي التي قصدتها أنا قبل نصف ساعة فقط، إلاّ أن تغيير المواقع هذا لم يرُقْ لي. كان الأمر كله غير مُرضٍ أبداً، فذهبتُ إلى فيلا جينيفييف بمزاج نكد تماماً. لم أدخل البيتَ نفسه، بل مضيت في الممر إلى ذلك المقعد الخشبي قرب السقيفة وجلست هناك مُعكّر المزاج.

وقد شغلتني عن أفكاري أصوات قريبة مني. وخلال لحظات أدركت أن تلك الأصوات لم تكن من الحديقة التي أجلس فيها ولكن من الحديقة المجاورة لفيلا مارغريت، وأنها أصوات تقترب بسرعة. سمعت صوت فتاة تتحدث وميّزتُ فيه صوت الجميلة مارتا وهي تقول: يا عزيزي، أهذا صحيح حقاً؟ هل انتهت كل مشكلاتنا؟

أجابها جاك رينو: أنت تعرفين ذلك يا مارتا. لا يمكن لشيء أن يفرّقنا الآن يا حبيبتي. لقد زالت آخر العقبات أمام اقتراننا... لا يمكن لشيء أن يأخذك مني.

تمتمت الفتاة: ولا أي شيء؟ آه يا جاك، جاك... أنا خائفة.

كنتُ قد تحركتُ بهدف المغادرة، مدركاً أنني كنت أسترق السمع دون قصد مني. وعندما وقفتُ على قدميّ لمحتهما من خلال ثغرة في السياج. كانا يقفان معاً قبالتي، وقد أمسك الشاب بيد الفتاة وعيناه مثبتتان في عينيها. وقد بدا الاثنان زوجاً رائعاً، الفتى الأسمر المفتول، والفتاة البيضاء الحسناء. بدا أنهما خُلقا كل لصاحبه وهما يقفان هناك سعيدين رغم المأساة الفظيعة التي خيمت على حياتهما.

ولكن وجه الفتاة كان قلقاً، وبدا أن جاك رينو قد ميّز ذلك وهو يمسك بيدها فسألها: ولكن ممّ أنت خائفة يا حبيبتي؟ وما الذي عساه يخيف... الآن؟

ثم رأيتُ في عينيها تلك النظرة التي تحدّث عنها بوارو، وهي تتمتم بصوت منخفض لم أكد أسمعه: إنني خائفة... عليك.

لم أسمع جواب الشاب رينو؛ إذ أن انتباهي قد انصرف إلى شكل غير طبيعي على بعد مسافة على السياج. بدا لي غصن بني اللون هناك، وهو أمر أقل ما يقال عنه أنه غريب في مثل هذا الوقت المبكر من الصيف. تحركتُ نحوه لأتبين أمره، ولكن الغصن تحرك مع تقدمي وانسحب بسرعة، وما لبثت أن أدركتُ أنه جيرو يضع أصبعه على شفتيه طالباً مني الصمت. ثم تقدمني طالباً مني الحذر،

واستدار حول السقيفة حتى أصبحنا بعيدين عن مسامع الشابين. سألتُه: ماذا كنتَ تفعل هناك؟

- كنتُ أفعل ما كنتَ أنت تفعله بالضبط... الإصغاء.

- ولكنني لم أكن هناك عن عمد!

- آه! أما أنا فكنت متعمداً.

وكعادتي أُعجبت بالرجل وأنا أكرهه. نظر إليّ من رأسي حتى أخمص قدمي بشيء من النفور المزدري وقال: لقد عقّدتَ المسائل بتدخُّلك. ربما كان بالإمكان أن أسمع شيئاً مفيداً هناك. ماذا فعل صاحبك المستحاثّة العجوز؟

أجبته ببرود: لقد ذهب السيد بوارو إلى باريس.

طقطق جيرو بأصابعه ازدراء وقال: لقد ذهب إلى باريس إذن، أليس كذلك؟ حسناً، هذا أمر جيد. كلما أطال المكوث هناك كان ذلك أفضل. ولكن ماذا يظن أنه سيجد هناك؟

حسبتُ أنني ميّزت في نبرته أثراً ضئيلاً من عدم الارتياح. شددت جسمي وقلت له بهدوء: هذا ما لا يُسمح لي قوله.

حدق جيرو إلي بحدة وقال بوقاحة: ربما كان له من العقل ما يمنعه من إخبارك أنت بذلك. طاب مساؤك، إنني مشغول. ثم استدار وغادر دون حفاوة.

بدت الأمور ساكنة ثابتة في فيلا جينيفييف. كان من الواضح أن جيرو غير راغب بصحبتي، وبدا مؤكداً -مما رأيته- أن جاك رينو

لا يريد مثل هذه الصحبة أيضاً. عدتُ إلى البلدة واستمتعت بقليل من السباحة، ثم رجعتُ إلى الفندق. وقد نمتُ مبكراً وأنا أتساءل فيما إذا كان الغد سيأتي لنا بشيء جديد مهم.

وقد كنت غير مستعد أبداً لما جاء به اليوم التالي. فقد كنتُ أتناول إفطاري في قاعة الطعام عندما عاد إليّ النادل منفعلاً بعد أن كان يتحدث في الخارج مع شخص ما. تردد للحظات وهو يعبث بمنديله بارتباك ثم قال بسرعة: فليعذرني سيدي، ولكنك يا سيدي على علاقة بقضية فيلا جينيفيف، أليس كذلك؟

قلتُ له بلهفة: بلى، لماذا؟

- ألم يسمع سيدي بالخبر؟

- أي خبر؟

- بأن جريمة قتل أخرى قد وقعت هناك الليلة الماضية!

- ماذا؟

تركتُ إفطاري وأخذت قبعتي بسرعة وركضت بأسرع ما أستطيع. جريمة قتل أخرى... وبوارو بعيد، يا لهذا الشؤم! ولكن من الذي قُتل؟ دخلتُ البوابة مسرعاً، فوجدتُ مجموعة من الخدم على الممشى يتكلمون ويشيرون بأيديهم. أمسكتُ بفرانسوا وقلت: ما الذي حدث؟

- آه يا سيدي... جريمة أخرى! أمر فظيع! لقد حلت اللعنة بهذا البيت. نعم، لعنة! لن أقضي ليلة أخرى تحت سقف هذا

البيت أبداً. ربما كان الدور القادم عليّ؛ من يدري؟

ثم تمتمت بالدعاء، فصحتُ قائلاً: نعم، ولكن من الذي قُتل؟

- وأنى لي أن أعرف؟ رجل غريب، وجدوه هناك في السقيفة... حيث لا يبعد مئة متر عن المكان الذي وجدوا فيه سيدي المسكين. وليس هذا فحسب. فقد طُعن طعناً... طُعن في قلبه بنفس الخنجر!

* * *

الفصل الرابع عشر
الجثة الأخرى

التفتُّ دون انتظار سماع المزيد وركضت في الممر إلى السقيفة. تنحى الحارسان هناك جانباً ليسمحا لي بالدخول، فدخلت وأنا على درجة عالية من الانفعال. كان الضوء خافتاً، وكانت السقيفة مجرد غرفة خشبية بُنيت كيفما اتفق بغرض وضع الأشياء والأدوات القديمة فيها. كنت قد دخلتُ بحماسة، ولكني توقفتُ عند العتبة مسحوراً بالمشهد أمامي.

كان جيرو جاثياً على يديه وركبتيه وبيده مصباح جيب صغير يستخدمه في فحص كل بوصة على الأرض. رفع بصره متجهماً لدى دخولي، ثم ارتخى وجهه قليلاً بشيء من الازدراء المرح وقال وهو يشير بالمصباح إلى الزاوية البعيدة: ها هو هناك.

عبرتُ السقيفة إلى الجثة. كان الميت يتمدد بشكل مستقيم على ظهره، وكان متوسط الطول أسمر البشرة في نحو الخمسين من عمره. وقد ارتدى بدلة بنية غامقة أنيقة أُحسن تفصيلها، وربما كانت من قماش جيد، ولكنها لم تكن جديدة. كان وجهه متشنجاً بشكل

فظيع، وإلى الجانب الأيسر من صدره، فوق القلب تماماً، برزت قبضة خنجر سوداء لامعة. وقد ميّزتُها، إذ كانت لنفس الخنجر الذي رأيته في الإناء الزجاجي صباح أمس!

قال جيرو: أتوقع حضور الطبيب في أية لحظة، رغم أننا لا نكاد نحتاجه؛ فلا شك في سبب وفاة الرجل.. لقد طُعن وصولاً إلى القلب، ولا ريب أن الوفاة قد حصلت على الفور.

- متى وقعت؟ ليلة أمس؟

هزّ جيرو رأسه وقال: أشك في ذلك. إنني لا أعتمد كثيراً على الدليل الطبي، ولكن الرجل قد توفي دون شك منذ أكثر من اثنتي عشرة ساعة. متى قلتَ إنك رأيت هذا الخنجر آخر مرة؟

- في نحو الساعة العاشرة من صباح أمس.

- إذن فأنا أميل إلى القول إن الجريمة ارتكبت بعد ذلك بوقت قصير.

- ولكن الناس كانوا يروحون ويجيئون من أمام هذه السقيفة.

ضحك جيرو بشكل كريه وقال: أنت عجيب في توقعاتك! من قال لك إنه قُتل في هذه السقيفة؟

شعرت بارتباك شديد وقلت: إنني... إنني افترضتُ ذلك.

- آه، يا لرجل التحري الممتاز! انظر إليه. هل يسقط رجل طُعن حتى قلبه على هذا الشكل... بكل ترتيب وقد اجتمع قدماه معاً ورُتّبت يداه إلى جانبيه؟ كلا. ثم هل يمكن لرجل أن يتمدد على ظهره

ويسمح بأن يُطعن دون أن يرفع يداً للدفاع عن نفسه؟ هذا سخيف، أليس كذلك؟ ولكن انظر هنا... وهنا...

ثم أضاء المصباح على موقعين في الأرض، ورأيتُ آثاراً غريبة شاذة على التراب الناعم، فيما مضى جيرو قائلاً: لقد سُحب بعد موته إلى هذا الموضع، وكان ذلك نصف سحب ونصف حمل من قبل شخصين. إن آثارهما لا تظهر على الأرض الصلبة في الخارج، أما هنا فقد حرصا على محوها، ولكن أحد الشخصين كان امرأة يا صديقي الشاب.

- امرأة؟

- نعم.

- ولكن إذا كانت الآثار قد مُحيت، فكيف عرفت؟

- ذلك أن آثار الحذاء النسوي تبقى بارزة رغم كل المحو. وكذلك بسبب هذه.

ثم انحنى وسحب شيئاً عن قبضة الخنجر ورفعه إليّ لأراه. وكان ذلك شعرة سوداء طويلة من شعر النساء شبيهة بتلك التي أخذها بوارو عن الكرسي في المكتبة.

ثم أعاد لفها على قبضة الخنجر من جديد بابتسامة سخرية وقال: سنترك الأمور كما هي قدر الإمكان؛ فهذا يُفرح قاضي التحقيق. حسناً، هل لاحظتَ أي شيء آخر؟

اضطررتُ لهزّ رأسي بالنفي، فقال جيرو: انظر إلى يديه.

نظرتُ إليهما. كانت أظافره مكسورة وقد تغير لونها، وكان جلد يديه ثخيناً قاسياً. ولكنني لم أكد أفهم من ذلك ما كنتُ أحب فهمه. نظرتُ إلى جيرو فقال مجيباً نظرتي: إنهما ليستا يدي سيدٍ مهذب، وعلى العكس من ذلك فإن ملابسه ملابس رجل غني. وهذا غريب، أليس كذلك؟

وافقته قائلاً: غريب جداً.

- كما أن أياً من ملابسه لا يحمل علامة. ما الذي نستنتجه من ذلك؟ لقد كان هذا الرجل يحاول تمرير نفسه كشخص آخر غير هويته الحقيقية. كان يتظاهر.. لماذا؟ هل كان يخاف من شيء؟ أكان يحاول النجاة عن طريق إخفاء هويته؟ لا نعرف بعد، ولكننا نعرف شيئاً واحداً... وهو أنه كان حريصاً على إخفاء هويته بقدر حرصنا على اكتشافها.

ثم نظر إلى الجثة ثانية وقال: وكما كان الأمر من قبل، فلا توجد بصمات على قبضة الخنجر. لقد لبس القاتل قفازات مرة أخرى.

سألته بلهفة: أتظن إذن أن القاتل واحد في كلا الجريمتين؟

أصبح جيرو غامضاً وقال: لا تلقِ بالاً لما أظنه. سوف نرى... مارشو!

ظهر شرطي البلدة على الباب وقال: سيدي؟

- لماذا لم تأتِ السيدة رينو؟ لقد أرسلتُ في طلبها منذ أكثر من ربع ساعة.

- إنها قادمة في الممر يا سيدي، وابنها معها.

- جيد، ولكنني أريد كلاً منهما على انفراد.

حيّاه مارشو واختفى ثانية. وبعد لحظات عاد للظهور مع السيدة رينو وقال: ها هي السيدة.

تقدم جيرو بانحناءة لبقة وقال وهو يقودها عبر الغرفة: من هنا يا سيدتي.

ثم وقف فجأة جانباً وقال: ها هو الرجل. هل تعرفينه؟

وفيما كان يتكلم، كانت عيناه النفاذتان تخترقان وجهها سعياً لقراءة ما في ذهنها وملاحظة أي مؤشر في سلوكها.

ولكن السيدة رينو بقيت هادئة تماماً، بل شعرتُ أنها كانت هادئة أكثر مما ينبغي. نظرتْ إلى الجثة دون اهتمام يُذكر، وبالتأكيد دون أية إشارة لانفعال أو تعرُّف. ثم قالت: لا، لم أره أبداً في حياتي. إنه غريب تماماً بالنسبة لي.

- أأنت متأكدة؟

- متأكدة تماماً.

- ألا تميّزين فيه واحداً من المجرمَين اللذين قاما بالاعتداء عليكم مثلاً؟

بدا وكأنها تتردد، وكأن الفكرة قد فاجأتها، ثم قالت: لا أظن ذلك؛ لقد كانت لهما لحىً بالطبع... ويرى قاضي التحقيق أنها كانت

لحى زائفة... ولكن مع ذلك، كلا.

بدت الآن وكأنها قد عزمت أمرها بالتأكيد إذ أضافت: إنني متأكدة أنه لم يكن أياً من الاثنين.

- حسناً يا سيدتي، هذا كل ما هناك.

خرجت منتصبة الرأس والشمس تلتمع على الخيوط الفضية في شعرها. جاء بعدها جاك رينو، وقد فشل هو الآخر في التعرف على الرجل بأسلوب طبيعي تماماً.

اكتفى جيرو بالابتسام، ولا أستطيع الجزم إن كان مسروراً أم متألماً. نادى مارشو قائلاً: هل الأخرى هنا؟

- نعم يا سيدي.

- أدخلها إذن.

كانت «الأخرى» هي السيدة دوبريه. دخلت ساخطة تحتج بكل حماسة: إنني أعترض أيها السيد! هذا تصرف غير مقبول! ما علاقتي أنا بكل هذا؟

قال جيرو بقسوة: سيدتي، أنا لا أحقق بجريمة قتل واحدة، بل بجريمتين! وحسب معلوماتي فإنك ربما كنتِ قد ارتكبتِ الجريمتين.

صاحت قائلة: كيف تجرؤ على قول ذلك؟ كيف تجرؤ على إهانتي بمثل هذا الاتهام الاعتباطي؟ إنه كلام مقزّز!

- مقزز، أليس كذلك؟ وماذا عن هذه؟

انحنى وأخذ الشعرة ثانية ورفعها قائلاً: هل ترين هذه يا سيدتي؟

اقترب منها وقال: هل تسمحين لي أن أرى إن كانت تنسجم مع شعرك؟

قفزت إلى الخلف صارخة وقد ابيضّ وجهها حتى شفتيها وقالت: أقسم أنها زائفة. لا أعرف شيئاً عن الجريمة... عن أيٍّ من الجريمتين. وكل من يقول غير ذلك كاذب! آه، يا إلهي، ماذا أفعل؟

قال جيرو ببرود: هدئي من روعك يا سيدتي. لم يتهمك أحد بشيء بعد، ولكن من الأفضل أن تجيبي عن أسئلتي دون مزيد من الضجة.

- سأجيب عمّا تريده يا سيدي.

- انظري إلى الرجل الميت. هل سبق لك أن رأيتِه قط؟

تقدّمتْ وقد أخذ شيء من اللون يعود إلى وجهها، نظرت إلى الجثة بقدر من الاهتمام والفضول، ثم هزّت رأسها وقالت: لا أعرفه.

بدا من المستحيل الشك فيها؛ فقد خرجت الكلمات بكل طبيعية. أشار لها جيرو بالانصراف بإيماءة من رأسه، وسألته بصوت خافت: هل ستتركها تذهب؟ أهذا إجراء حكيم؟ من المؤكد أن تلك الشعرة من رأسها.

قال جيرو بجفاء: لا أحتاج لمن يعلمني مهنتي... إنها تحت المراقبة، لا رغبة لي باعتقالها بعد.

ثم حدّق إلى الجثة متجهم الوجه، وفجأة سأل: أتظن أن هذا شكل إسباني؟

نظرت إلى الوجه بإمعان ثم قلت: لا، إنه فرنسي بالتأكيد.

ابتسم جيرو بغير اقتناع وقال: نفس الشيء هنا.

وقف هناك دقيقة، ثم نحّاني جانباً بإشارة آمرة منه وعاد مرة أخرى ليجثو على ركبتيه ويمضي في بحثه في أرضية السقيفة. كان رائعاً لا يفوته شيء. مضى يفحص الأرض بوصة بوصة، يقلب الأحواض ويتفحص الأكياس القديمة. انكب على صرة قرب الباب، ولكن اتضح أنها مجرد معطف وبنطال باليين، فرماها ثانية وهو يزمجر. جذب انتباهه زوج من القفازات القديمة، ولكنه هزّ رأسه في النهاية وألقاهما جانباً. ثم عاد إلى الأحواض فقلبها واحداً واحداً بالترتيب. وفي النهاية نهض واقفاً وهزّ رأسه متأملاً. بدا حائراً، وأحسبه نسي وجودي.

ولكن في تلك اللحظة سُمعت في الخارج أصوات وجلبة، وجاء صاحبنا القديم قاضي التحقيق مسرعاً مع السيد بيكس والطبيب خلفهما. صاح السيد هوتيه: هذا غريب جداً يا سيد جيرو. جريمة أخرى! إننا لم نصل إلى أصل هذه القضية. إن في هذا الأمر لغزاً عميقاً، ولكن من هو الضحية هذه المرة؟

- هذا بالضبط ما لا يستطيع أحدٌ إخبارنا به يا سيدي؛ لم يتم التعرف إليه.

سأل الطبيب: أين الجثة؟

تنحى جيرو جانباً وقال: هناك في الزاوية. لقد طُعن وصولاً إلى القلب كما ترى، وبالخنجر الذي سُرق صباح أمس. ويخيل لي أن الجريمة قد ارتُكبت بعد وقت قصير من سرقة الخنجر... ولكن هذا الأمر من اختصاصك أنت. بوسعك الإمساك بالخنجر كما تشاء... فليس عليه بصمات.

جثا الطبيب فوق الجثة فيما التفت جيرو إلى قاضي التحقيق وقال: مشكلة عويصة، أليس كذلك؟ ولكنني سأحلُّها.

قال القاضي وهو يفكر: لم يتعرف أحد إلى الجثة إذن. أيمكن أن يكون أحد القاتلَيْن؟ ربما كانا قد تشاجرا معاً.

هزّ جيرو رأسه وقال: إن الرجل فرنسي... بوسعي أن أُقسم على ذلك.

ولكن في تلك اللحظة قاطعهما الطبيب الذي كان يقعي على عقبيه وعليه سمات الحيرة: هل قلتَ إنه قُتل صباح أمس؟

أجابه جيرو: لقد حددتُ ذلك من سرقة الخنجر. ربما كان قد قُتل في وقت لاحق من النهار طبعاً.

- في وقت لاحق؟ هراء! لقد مضى على موت هذا الرجل ما لا يقل عن ثمان وأربعين ساعة، وربما أكثر.

تبادلنا النظرات وقد صعقتنا الدهشة.

* * *

الفصل الخامس عشر

صورة

كانت كلمات الطبيب مدهشة بحيث فوجئنا بها جميعاً. فها هنا رجل طُعن بخنجر نعرف أنه سُرق قبل أربع وعشرين ساعة فقط، ومع ذلك يؤكد الطبيب جازماً أنه قد مات منذ ثمان وأربعين ساعة على الأقل! كان الأمر كله خيالياً إلى أبعد الحدود.

وقد كنا نستفيق من دهشتنا التي سببها إعلان الطبيب عندما جيء إليّ ببرقية، وكانت قد أُرسلت من الفندق إلى الفيلا. فتحتها فوجدتُ أنها من بوارو يبلغني فيها بعودته في القطار الذي يصل ميرلينفيل في الساعة الثانية عشرة وثمان وعشرين دقيقة.

نظرتُ إلى ساعتي فوجدت أنه لم يبقَ من الوقت إلاّ ما يسمح بأن أذهب دون استعجال إلى المحطة لاستقباله هناك، وشعرت أنه من المهم جداً أن يعرف بوارو فوراً بالتطورات الجديدة المذهلة للقضية. وفكرتُ بأن من الواضح أن بوارو لم يجد صعوبة في العثور على ما يبحث عنه في باريس؛ فسرعة عودته تثبت ذلك. لقد كانت بضع ساعات كافية. وتساءلت كيف سيتلقى بوارو الخبر المثير الذي سأبلغه به.

تأخر القطار بضع دقائق، وأخذتُ أمشي على غير هدى على رصيف المحطة، حتى خطر لي أن أمضي بعض الوقت في طرح بعض الأسئلة حول من غادر ميرلينفيل في آخر قطار ليلة المأساة.

اقتربت من كبير الحمالين، وكان رجلاً بادي الذكاء، ولقيت بعض الصعوبة في إقناعه بالدخول في الموضوع. أكد بحماسة أن الأمر كان عاراً على الشرطة؛ أن يُسمَح لمثل هؤلاء القتلة أو قُطّاع الطرق بأن يفلتوا من العقاب. ألمحتُ إلى وجود احتمال بأن يكون القتلة قد غادروا في قطار منتصف الليل، ولكنه نفى تلك الفكرة بكل جزم قائلاً إنه كان سيلاحظ وجود غريبين، وكان واثقاً من ذلك. وقال إن نحواً من عشرين شخصاً فقط غادروا في ذلك القطار، وما كان ليفشل في ملاحظة وجود غرباء بينهم.

لا أدري ما الذي وضع الفكرة في رأسي -وربما كان السبب هو القلق العميق الذي ميّز نبرات مارتا دوبريه- ولكنني سألته فجأة: ماذا بالنسبة للشاب جاك رينو... ألم يغادر بذلك القطار؟

- لا أظن يا سيدي؛ فلن يكون من السهل أن يصل المرء ثم يغادر ثانية خلال ربع ساعة.

حدّقتُ إلى الرجل وقد كادت تفوتني أهمية كلماته. ثم استوعبتها، فقلت وقلبي ينبض بقوة: أتعني أن السيد جاك رينو وصل مارلينفيل في تلك الليلة؟

- نعم يا سيدي. وصل في آخر قطار قادم من الجهة الأخرى، قطار الساعة الثانية عشرة إلاّ ثلثاً.

اضطرمت الأفكار في رأسي. هذا إذن هو سبب قلق مارتا الحاد؛ لقد كان جاك رينو في ميرلينفيل ليلة وقوع الجريمة. ولكن لماذا لم يقل ذلك؟ لماذا قادنا -على العكس من ذلك- للاعتقاد بأنه بقي في تشيربورغ؟ ولدى تذكري لسحنته الصبيانية الصريحة لم أكد أستطيع حمل نفسي على تصديق أية علاقة له بالجريمة. ولكن لماذا هذا التكتم على دوره في أمر حيوي كهذا؟ كان شيء واحد مؤكداً، وهو أن مارتا كانت تعلم منذ البداية. ومن هنا كان قلقها، وسؤالها المتلهف لبوارو إن كانت الشكوك تحوم حول شخص معين.

قطع وصول القطار تأملاتي، وسرعان ما كنتُ أحيي بوارو. كان الرجل متألقاً، متهلل الوجه عالي الصوت، وقد نسي تحفظي الإنكليزي فعانقني بحرارة على الرصيف قائلاً: يا صديقي العزيز، لقد نجحت... نجحتُ نجاحاً باهراً!

- حقاً؟ يسعدني سماع ذلك. هل سمعتَ آخر الأنباء هنا؟

- وكيف لي أن أسمع شيئاً؟ حصلتْ تطورات إذن، أليس كذلك؟ لا شك أن جيرو الشجاع قد قام باعتقال أحدهم؟ أو باعتقال الكثير منهم؟ سأجعله يبدو مغفلاً! ولكن أين تأخذني يا صديقي؟ ألن نذهب إلى الفندق؟ من الضروري أن أصلح من شأن شاربيّ فقد تهدلا بشكل مقيت بسبب حرارة السفر، كما لا يوجد شك في وجود غبار على معطفي، وربطتي تحتاج إلى تعديل...

قاطعتُ احتجاجاته قائلاً: يا عزيزي بوارو... لا تُلقِ بالاً لذلك كله. يجب أن نذهب إلى الفيلا فوراً. لقد وقعت جريمة قتل أخرى!

لم يسبق لي أبداً أن رأيت رجلاً مصعوقاً لهذا الحد؛ فقد فغر فاه، وتلاشت كل ثقته المرحة، وحدق إلي فاتحاً فمه ثم قال: ماذا تقول؟ جريمة قتل أخرى؟ آه، لقد أخطأتُ تماماً... لقد فشلت. ويمكن أن يسخر جيرو مني... وستكون له أسباب وجيهة!

- ألم تكن تتوقع ذلك إذن؟

- أنا؟ لم أتوقع شيئاً كهذا أبداً. إنه يدمر نظريتي... يدمر كل شيء. إنه... آه، كلا!

توقف فجأة وأخذ ينقر بأصبعه على صدره وقال: مستحيل. لا يمكن أن أكون مخطئاً! إن الحقائق المأخوذة بشكل منهجي، وبترتيبها الصحيح، لا تسمح إلاّ بتفسير واحد. لا بد أن أكون على صواب... إنني فعلاً على صواب!

- ولكن...

قاطعني قائلاً: انتظر يا صديقي. لا بد أن أكون محقاً، ولذلك فإن جريمة القتل الجديدة هذه مستحيلة ما لم... ما لم... آه، انتظر، أرجوك لا تقل كلمة واحدة.

سكت لبضع لحظات ثم استعاد سمته المعتاد وقال بصوت هادئ واثق: إن الضحية رجل في أوسط العمر، وقد عُثر على جثته في السقيفة المقفولة قرب مسرح الجريمة، وقد مضى على وفاته ثمان وأربعون ساعة على الأقل. والأرجح أنه طُعن بطريقة تشبه طريقة طعن السيد رينو، وإن لم يكن بالضرورة في ظهره.

جاء دوري أنا لأفتح فمي دهشة... وقد فتحته! فطوال معرفتي

ببوارو لم يقم بأي شيء بهذا القدر من الإدهاش. وقد انتابني شكٌ لم أجد منه بُداً، فصحت: بوارو، أنت تسخر مني. لقد سمعتَ بالأمر كله من قبل قطعاً.

أدار نظرته الجدية إليّ بشيء من التأنيب وقال: هل يمكن أن أقوم بأمر كهذا؟ أؤكد لك بأنني لم أسمع بشيء أبداً. ألم تلاحظ الصدمة التي سبّبها لي خبرك؟

- ولكن كيف عرفت بكل هذا بالله عليك؟

- ما قلتُه صحيح إذن؟ لقد عرفتُ ذلك. إنها الخلايا الرمادية الصغيرة يا صديقي، خلايا الدماغ الرمادية! هي التي أخبرتني. فبهذه الطريقة دون غيرها يمكن أن توجد جريمة قتل أخرى. والآن أخبرني بكل شيء. لو ذهبنا إلى الشمال من هنا أمكننا أن نأخذ طريقاً مختصراً إلى الفيلا عبر ملعب الغولف يفضي بنا إلى مؤخرة فيلا جينيفييف بشكل أسرع.

وبينما مشينا في الطريق الذي اقترحه رويت له كل ما أعرفه. وقد استمع بوارو بكل انتباه، ثم قال: أتقول إن الخنجر كان في الجرح؟ هذا غريب. أأنت واثق أنه نفس الخنجر؟

- واثق تماماً؛ وهذا ما يجعل الأمر مستحيلاً.

- ليس في الأمر مستحيل... ربما كان يوجد خنجران.

رفعتُ حاجبيّ وقلت: من المؤكد أن ذلك مستبعد جداً، فستكون تلك مصادفة غريبة جداً ومستهجنة.

- أنت تتكلم كالعادة دون تفكير يا هيستنغز. إن من شأن

سلاحين متماثلين أن يكونا مُستبعدَيْن في بعض القضايا، ولكن ليس في هذه القضية. إن هذا السلاح كان هدية حرب صُنعت بطلب من جاك رينو. ولو فكرتَ بالأمر جيداً لرأيت أن من المستبعد فعلاً أن يكون قد طلب صنع خنجر واحد فحسب، بل المحتمل تماماً أن يكون قد طلب صنع خنجر آخر لاستخدامه هو.

عارضتُه قائلاً: ولكن أحداً لم يذكر شيئاً كهذا.

- يا صديقي العزيز، عندما يعمل المرء في قضية ما، فإنه لا يأخذ في حسبانه الأشياء التي «ذُكرَتْ» فقط. فليس من سبب لذكر الكثير من الأمور التي ربما كانت مهمة. وبالمقابل يوجد عادةً سببٌ وجيه جداً لعدم ذكر مثل هذه الأمور. يمكنك أن تختار واحداً من هذين الدافعين.

بقيت ساكتاً، وقد تأثرتُ رغماً عني بما قاله. وبعد بضع دقائق كنا عند السقيفة الشهيرة. وجدنا كل أصدقائنا هناك، وبعد تبادل عبارات المجاملة بدأ بوارو مهمته. وقد أثارت طريقة بوارو اهتمامي بعد أن راقبتُ جيرو وهو يؤدي مهمته. ولكن بوارو اكتفى بإلقاء نظرة سريعة على ما يحيط به، وكان الشيء الوحيد الذي تفحصه هو المعطف والبنطال الباليان قرب الباب. ارتسمت ابتسامة ازدراء على شفتي جيرو، فقام بوارو برمي الصرة ثانية وكأنه لاحظ ابتسامة جيرو، ثم سأل: أهي ملابس البستاني القديمة؟

أجابه جيرو: بالضبط.

جثا بوارو قرب الجثة، وكانت أصابعه سريعة تعرف طريقها. تفحص نسيج الثياب، وأقنع نفسه بعدم وجود علامات عليها. وقد

أولى عناية خاصة للحذاء، وللأظافر المكسورة المتسخة. وبينما هو يفحص الأظافر نظر إلى جيرو بحدة وقال: هل رأيتَ هذه؟

أجابه الآخر ووجهه ما يزال غامضاً: نعم، رأيتها.

وفجأة تصلب بوارو ونادى: دكتور ديوران!

تقدم الطبيب قائلاً: نعم؟

- توجد رغوة على الشفتين، هل لاحظتَها؟

- أعترف بأنني لم ألاحظ ذلك.

- ولكنك تلاحظها الآن؟

- آه، بالتأكيد.

نظر بوارو إلى جيرو ثانية وقال: لا شك أنك لاحظتَها، أليس كذلك؟

لم يجبه جيرو، ومضى بوارو في عمله. كان الخنجر قد سُحب من الجرح ووُضع في إناء زجاجي قرب الجثة. وقد فحصه بوارو، ثم تفحص الجرح بإمعان. وعندما رفع بصره كانت عيناه منفعلتين تشُعّان بذلك البريق الأخضر الذي أعرفه جيداً. قال بوارو: إن هذا لجرحٌ غريب! إنه لم ينزف؛ فلا توجد على الملابس بقعة دم واحدة. كل ما في الأمر أن شفرة الخنجر قد تغير لونها قليلاً. ما رأيك يا سيدي الطبيب؟

- لا أستطيع القول إلاّ أن ذلك شاذ جداً.

- ولكنه ليس شاذاً أبداً. إنه بسيط تماماً؛ فقد طُعن الرجل بعد أن مات.

ثم هدّأ بوارو الأصوات التي ارتفعت بإشارة من يده وقال: إن السيد جيرو يتفق معي، أليس كذلك يا سيدي؟

ومهما يكن اعتقاد جيرو فإنه تقبّل الوضع دون أن يحرك ساكناً. وقد أجاب بهدوء وبشيء كاد يرقى إلى الازدراء: أتفق معك بالتأكيد.

سُمعت تمتمات الدهشة والاهتمام من جديد، وصاح القاضي: ولكن يا لهذه الفكرة؛ أن يُطعن رجل بعد موته! إنه تصرف وحشي لم نسمع به من قبل! ربما كان ذلك نتيجة كراهية شديدة.

قال بوارو: كلا، يخيل إليّ أن ذلك قد تم بأعصاب باردة تماماً... لإعطاء انطباع.

- أي انطباع؟

قال بوارو تخميناً: الانطباع الذي كاد يُخلّفه ذلك.

كان السيد بيكس يفكر، ثم سأل: كيف قُتل الرجل إذن؟

- هو لم يُقتل، بل لقد مات. وقد مات -إن لم أكن مخطئاً- من نوبة صَرَع!

سبّب قول بوارو ضجة صاخبة من جديد. وجثا الدكتور ديوران قرب الجثة مرة أخرى وقام بفحص دقيق، وأخيراً نهض واقفاً وقال: سيد بوارو، إنني أميل إلى الاعتقاد بأنك على حق في تأكيدك. لقد انخدعتُ بداية؛ إذ أن الحقيقة التي لا جدال فيها بأن الرجل قد طُعن بخنجر حرفَتْ انتباهي عن كل المؤشرات الأخرى.

كان بوارو بطل تلك الساعة. وقد هنأه القاضي بفيض من

العبارات التي أجاب بوارو عليها بلباقة، ثم اعتذر بحجة أننا لم نتناول غداءنا بعد، وأنه يريد إصلاح ما أفسدته رحلته. وعندما كنا نهم بمغادرة السقيفة اقترب منا جيرو وقال بصوته الهادئ الساخر: شيء واحد آخر يا سيد بوارو. لقد وجدنا هذه ملتفة على مقبض الخنجر... شعرة امرأة.

- آه! شعرة امرأة؟ أية امرأة يا ترى؟

قال جيرو: "هذا ما أتساءل عنه أنا أيضاً"، ثم غادرَنا بانحناءة.

قال بوارو متأملاً ونحن نسير إلى الفندق: لقد كان جيرو مُصِرّاً. إنني أتساءل في أي اتجاه يريد تضليلي؟ شعرة امرأة... همم!

أكلنا بشهية، ولكنني وجدتُ بوارو شارداً قليل الانتباه إلى حدٍّ ما. وبعد ذلك صعدنا إلى غرفة جلوسنا، وهناك رجوته أن يخبرني شيئاً عن رحلته الغامضة إلى باريس.

- حُباً وكرامة يا صديقي. لقد ذهبتُ إلى باريس لأعثر على هذه.

أخرج من جيبه قصاصة صغيرة قديمة من صحيفة، وكانت عبارة عن صورة لامرأة. أعطاني إياها، وانطلقت مني آهة تعجب.

- هل ميّزتَها يا صديقي؟

أومأت برأسي بالإيجاب. فمع أن الصورة كانت مأخوذة منذ سنوات طويلة كما هو واضح، ورغم أن الشعر كان ذا تسريحة

مختلفة، إلاّ أن الشبه كان أكبر من أن تُخطئه العين. قلت بانفعال: السيدة دوبريه!

هزّ بوارو رأسه مبتسماً وقال: هذا ليس صحيحاً تماماً يا صديقي. لم تكن تسمي نفسها بهذا الاسم في تلك الأيام. هذه صورة للسيدة الشهيرة بيرولدي!

السيدة بيرولدي! وتذكرت بلمح البصر القصة كلها. تلك المحاكمة بتهمة القتل التي أثارت اهتماماً عالمياً.

قضية بيرولدي!

* * *

الفصل السادس عشر

قضية بيرولدي

قبل نحو عشرين سنة من بدء قصتنا الحالية وصل السيد آرنولد بيرولدي (وهو من مدينة ليون) إلى باريس بصحبة زوجته الحسناء وابنتهما الصغيرة التي كانت مجرد طفلة. كان السيد بيرولدي شريكاً ثانوياً في شركة لبيع المرطبات، وهو رجل بدين في أواسط العمر، متعلقٌ بمباهج الحياة، ومحبٌ لزوجته الجميلة، وليس فيه إجمالاً ما يميزه على الإطلاق. كانت الشركة التي يسهم فيها الرجل لا تدرُّ على الشريك الثانوي دخلاً كبيراً رغم عملها الجيد. وقد كان لأسرة بيرولدي شقة صغيرة عاشوا فيها حياة متواضعة في البداية.

ولكن بالرغم من عدم وجود ما يميز السيد بيرولدي، إلاّ أن زوجته كانت مُطَعَّمة بمسحة من الرومانسية. ففوق شبابها وجمالها، وهبها الله سحراً فريداً في شخصيتها. وقد أثارت السيدة بيرولدي فوراً ضجة في المنطقة التي حلّت بها، خاصة عندما بدأ الهمس يدور بأن لغزاً ما يحيط بمولدها. فقد أفادت الشائعات أنها ابنة غير شرعية لدوق روسي كبير، فيما أكدت شائعات أخرى أنها ابنة نبيل نمساوي، وأن

الزواج كان شرعياً، رغم أن الأم كانت مغمورة مما لا يعطي لها أو لابنتها حقاً في وراثة اللقب. ولكن جميع الروايات اتفقت على نقطة واحدة، وهي أن جين بيرولدي موضوعٌ للغز مثير.

وكان من بين أصدقاء عائلة بيرولدي محامٍ شاب اسمه جورج كونو. وسرعان ما بدا واضحاً أن الحسناء جين قدّ استعبدت قلب هذا الشاب. وقد شجعت السيدة بيرولدي المحامي الشاب في الخفاء، ولكنها حرصت دوماً على تأكيد إخلاصها التام لزوجها الكهل. ومع ذلك فإن الكثير من المناكفين لم يترددوا في التصريح بأن كونو الشاب كان عشيقها... وأنه لم يكن العشيق الوحيد!

وبعد أن مضى على إقامة أسرة بيرولدي في باريس ثلاثة أشهر، ظهر في المشهد شخص آخر هو السيد هيرام تْراب، وهو مواطن أمريكي بالغ الثراء. وما أن تعرّف السيد تراب إلى السيدة بيرولدي الفاتنة الغامضة حتى وقع ضحية غرامها، وكان إعجابه بها واضحاً، رغم محافظته الشديدة على دواعي الاحترام.

في هذه الأثناء أصبحت السيدة بيرولدي أكثر صراحة وإفضاء بأسرارها بحيث تحدثت أمام العديد من الأصدقاء عن قلقها البالغ على زوجها، وشرحت ذلك بأنه قد تورط في العديد من الخُطط ذات الطبيعة السياسية، كما أشارت إلى بعض الأوراق المهمة التي أودعت عنده لحفظها، والتي تتعلق «بسرٍّ» أوروبي بالغ الأهمية. وقالت إن الأوراق قد أودعت عنده لتضليل من يبحثون عنها، ولكن السيدة بيرولدي كانت تشع بالكثير من القلق بعد أن لاحظت تحركاتٍ للعديد من الأعضاء المهمين في «الدائرة الثورية» في باريس.

وفي الثامن والعشرين من تشرين الثاني وقعت الضربة. فقد دُهشت المرأة التي تأتي يومياً لتنظف وتطبخ لأسرة بيرولدي إذ وجدت باب الشقة مفتوحاً على مصراعيه. وعندما سمعت أنّاتٍ ضعيفة تصدر من غرفة النوم دخلتها لتجد مشهداً مرعباً. كانت السيدة بيرولدي ممددة على الأرض وقد أوثقت يداها وقدماها وهي تُطلق أنّات ضعيفة بعد أن تمكنت من نزع الكمامة عن فمها. وعلى السرير كان السيد بيرولدي متمدداً وسط بركة دم وقد انغرست سكينٌ في قلبه.

كانت رواية السيدة بيرولدي واضحة تماماً. فقد صحت من نومها فجأة لترى رجلين مُقنَّعين مُنكبّين عليها، وقد أوثقاها وكمّما فمها بعد أن منعاها من الصراخ، ثم طلبا من السيد بيرولدي «السر» الشهير. غير أن الرجل الشجاع رفض نهائياً الخضوع لمطالبهما، مما أغضب واحداً منهما فقام بطعنه بشكل هائج في قلبه. ثم أخذ الاثنان مفاتيح القتيل وفتحا الخزنة في زاوية الغرفة، وأخذا معهما كومة من الأوراق. وقد كان كلا الرجلين بلحية طويلة، ويضعان أقنعة، ولكن السيدة بيرولدي أكدت أنهما روسيان.

وقد أثارت القضية اهتماماً شديداً لدى الجمهور. ومضى الوقت دون أن يتم العثور على أي من الرجلين، وما أن بدأ الاهتمام العام بالقضية يتلاشى حتى حدث تطور مثير: فقد اعتُقلت السيدة بيرولدي واتُّهمت بقتل زوجها. وعندما بدأت المحاكمة أثارت اهتماماً واسعاً من جديد؛ إذ كان في شباب المتهمة وجمالها وتاريخها الغامض ما يكفي لجعل القضية مدار الألسن.

وقد ثبت بما لا يقبل الشك بأن والدَي السيدة بيرولدي كانا

زوجين محترمين عاديين من تجار الفواكه يعيشان في ضواحي ليون. أما قصص الدوق الروسي، وعلاقات الغرام، والمؤامرات السياسية، وكل القصص الأخرى المتداولة، فقد تم تتبع جذورها وصولاً إلى السيدة بيرولدي نفسها! وقد عُرضت قصة حياتها كلها على الملأ دون رحمة، ووُجد دافع الجريمة في شخص السيد هيرام تراب. وقد بذل السيد تراب كل ما يمكنه للتستر على الموضوع، ولكنه اضطر -بعد تعرضه لاستجوابات مضنية لا ترحم- إلى الاعتراف بأنه أحب السيدة، وأنه كان سيطلب منها الزواج به لو كانت حرة. ولقد جعلت حقيقة كون علاقتهما روحية محضة القضية أكثر صعوبة على المتهمة، فبعد أن حُرمت السيدة بيرولدي من أن تصبح عشيقة للرجل بسبب طبيعته الشريفة أخذت تفكر بمخطط وحشي للتخلص من زوجها الكهل المغمور لتصبح زوجة الأمريكي الغني.

وطوال المحاكمة واجهت السيدة بيرولدي مُتهِميها بكل برود ورباطة جأش، ولم تتبدل روايتها أبداً. واستمرت تعلن بعناد أنها من بيت ملكي، وأنها قد استُبدلت بابنة بائعي الفاكهة وهي طفلة. ورغم سخافة هذه الادعاءات وتهافتها إلاّ أن عدداً كبيراً من الناس قد صدّق صحتها دون نقاش. ولكن الادعاء العام كان صارماً؛ فقد أعلن أن قصة «الروسيين» المُقنّعين كانت خرافة، وأكد أن الجريمة قد ارتُكبت من قبل السيدة بيرولدي وعشيقها جورج كونو. وقد تم إصدار مذكرة اعتقال بحق جورج كونو، ولكنه كان من الحكمة بحيث اختفى عن الأنظار. وقد أظهرت الأدلة أن الحبال التي كانت توثق السيدة بيرولدي كانت مرتخية إلى الحد الذي كان بوسعها معه أن تحرر نفسها.

وبعد ذلك، وعند قرب انتهاء المحاكمة جاءت للمدعي العام رسالة وُضعت في بريد باريس من جورج كونو. ورغم أن الرسالة لم تُشر إلى مكان كونو إلاّ أنها احتوت على اعتراف كامل بالجريمة. فقد اعترف أنه وجّه فعلاً الطعنة القاتلة بناء على تحريض السيدة بيرولدي، وأن الجريمة قد تم التخطيط لها بينهما. فبعد أن صدّق أن زوجها كان يسيء معاملتها، وبعد أن أفقده حبها صوابه وهو يعتقد أنها تبادله ذلك الحب، فقد خطط للجريمة ووجّه ضربته التي ستحرر المرأة التي يحبها من رباط كريه. وقد علم الآن لأول مرة بأمر السيد هيرام تراب، وأدرك أن المرأة التي يحبها قد خانته؛ إذ لم تكن تريد التحرر من أجله هو، بل لكي تتزوج الأمريكي الغني! لقد استخدمته كمخلب قط، والآن -في حمأة غضبه وغيرته- انقلب وأدانها، معلناً أنه كان يعمل منذ البداية بتحريض منها.

وبعد ذلك برهنت السيدة بيرولدي على أنها المرأة البارزة التي لا شك بإمكاناتها. فقد تخلت دون تردد عن دفاعها السابق واعترفت أن الروسيين كانا من محض اختراعها وأن القاتل الحقيقي هو جورج كونو الذي أفقده الحب صوابه وارتكب الجريمة مهدداً إياها إن لم تسكت عن ذلك بالانتقام منها شرّ انتقام. وقد أرعبتها تهديداته فوافقت... بالإضافة إلى خوفها -إن هي قالت الحقيقة- من اتهامها بالرضا الضمني عن الجريمة. ولكنها رفضت بإصرار المضي في العلاقة بعد ذلك مع قاتل زوجها، قائلة إن هذا الموقف من طرفها هو السبب الذي دفعه لكتابة الرسالة ليتهمها بالجريمة. وقد أقسمت بأغلظ الأيمان أن لا علاقة لها بالتخطيط للجريمة، وأنها استيقظت في تلك الليلة المشهودة لتجد جورج كونو فوق رأسها والسكين الملطخة بالدم في يده.

كانت القضية مجازفة لا تُعرف نتائجها. إذ لا تكاد رواية السيدة بيرولدي تُصدّق. ولكن خطابها لهيئة المحلفين كان خطاباً فريداً في براعته. فقد تحدثت والدموع تنهمر من عينيها عن طفلتها، وعن كرامة المرأة لديها، وعن رغبتها في الحفاظ على سمعتها دون تلويث من أجل ابنتها. اعترفت أنها ربما كانت مسؤولة أخلاقياً عن الجريمة باعتبار أن جورج كونو كان عشيقها... ولكنها أقسمت بالله أن الأمر لا يعدو ذلك! وقالت إنها تعرف أنها ارتكبت غلطة كبرى بعدم إدانتها لكونو أمام القانون، ولكنها أعلنت بصوت كسير بأن ذلك كان شيئاً يصعب على أية امرأة أن تفعله، فقد أحبته! فهل كان بوسعها أن تُسلِمه بيدها للمقصلة؟ قالت إنها مذنبة في الكثير من الأمور، ولكنها بريئة من الجريمة الفظيعة المنسوبة إليها.

وكائناً ما كان الأمر، فقد كسبت بلاغتها وشخصيتها الجولة، وتمت -وسط مشهد مثير منقطع النظير- تبرئة السيدة بيرولدي.

ورغم كل مساعي الشرطة لم يتم العثور على أثر لجورج كونو. أما السيدة بيرولدي فلم يعد يُسمع عنها شيء، فقد أخذت طفلتها وغادرت باريس لتبدأ حياة جديدة.

* * *

الفصل السابع عشر
مزيد من التحريات

لقد رويت قصة قضية بيرولدي بأكملها. وبالطبع فإن ذاكرتي لا تحتفظ بكل التفصيلات، ومع ذلك فقد تذكرتُ القضية على نحو كبير من الدقة؛ فهي قد أثارت الكثير من الاهتمام وقتها، وحظيت بتغطية كاملة من الصحافة البريطانية، بحيث لا يحتاج الأمر من ذاكرتي جهداً كبيراً لتذكر التفصيلات البارزة من جديد.

وبدا لي للحظة -في غمرة حماستي- أن تلك القضية توضح الأمر كله. إنني أعترف بتلقائيتي وتسرعي، وبوارو يستنكر دائماً عادتي في القفز إلى استخلاص نتائج قبل الأوان، ولكنني أرى أن لدي مبرراً قوياً في هذه الحالة. لقد أذهلتني الطريقة الرائعة التي برر بها هذا الاكتشاف وجهةَ نظر بوارو في القضية، فقلت له: إنني أهنئك يا بوارو.. أنا أفهم كل شيء الآن.

أشعل بوارو واحدة من لفافاته الصغيرة بدقته المعهودة، ثم رفع بصره إليّ وقال: بما أنك تفهم كل شيء الآن يا صديقي، فما هو بالضبط الذي تفهمه؟

- أن السيدة دوبريه -أو بيرولدي- هي بالطبع التي قتلت السيد رينو. إن تشابه القضيتين يثبت ذلك دون أي شك.

- أتظن إذن أن السيدة بيرولدي قد بُرّئت خطأً، وأنها في الواقع كانت راضية عن قتل زوجها؟

فتحتُ عينيّ على اتساعهما وقلت: بالطبع! ألا ترى أنت ذلك؟

مشى بوارو إلى نهاية الغرفة، ثم عدّل أحد الكراسي وهو شارد الذهن وقال متأملاً: نعم، هذا رأيي. ولكن لا «بالطبع» في المسألة يا صديقي. إن السيدة بيرولدي بريئة من الناحية الفنية.

- ربما كانت بريئة من تلك الجريمة، ولكن ليس من هذه.

جلس بوارو ثانية ونظر إليّ وقد بدا عليه التأمل أكثر من أي وقت مضى، ثم قال: إذن فأنت تعتقد جازماً يا هيستنغز بأن السيدة دوبريه قتلت السيد رينو؟

- نعم.

- لماذا؟

رمى إليّ بذلك السؤال بشكل مفاجئ أدهشني فقلتُ متلعثماً: لماذا؟ لماذا؟ آه، لأنها...

ثم توقفت. فأومأ بوارو برأسه لي وقال: أترى، لقد وصلتَ فوراً إلى حائط مسدود. لماذا تقتل السيدة دوبريه (وسأسميها بهذا الاسم للوضوح)... لماذا عساها تقتل السيد رينو؟ لا نستطيع أن

نجد أثراً لأي دافع. إنها لا تستفيد من وفاته، ولو نظرنا إليها في كلا الحالتين كعشيقة أو كمُبتزّةٍ له، فإن في موته خسارة لها. لا يمكنك أن تجد جريمة قتل دون دافع. لقد كانت الجريمة الأولى مختلفة... فقد كان لدينا هناك حبيب غني مستعد للقفز والحلول محل زوجها.

قلت معترضاً: المال ليس الدافع الوحيد للقتل.

وافقني بوارو بهدوء: هذا صحيح. يوجد دافعان آخران، أحدهما الجريمة العاطفية. ودافع نادر ثالث، وهو القتل من أجل فكرة، وهو ما ينطوي على شكل من أشكال الاضطراب العقلي لدى المجرم. إن جنون القتل، وبعض أنواع التعصب الأسود تنتمي إلى هذه الفئة. ويمكننا هنا استبعاد هذا النوع.

- ولكن ماذا عن الجريمة العاطفية؟ أتستطيع استبعاد ذلك؟ إن كانت السيدة دوبريه عشيقة للسيد رينو، وإن وجدت أن حبه لها يتراجع، أو إن اشتدت غيرتها لأي سبب، ألا يمكن أن تهاجمه في لحظة غضب؟

هزّ بوارو رأسه وقال: إنْ (وانتبِهْ لاستخدامي لأداة «إنْ») إنْ كانت السيدة دوبريه عشيقة للسيد رينو فإنه لم يُتَح له من الوقت ما يمل به منها. وفي كل الأحوال فأنت أسأت الحكم على شخصيتها. إنها امرأة تستطيع التظاهر بضغوط عاطفية عظيمة؛ إنها ممثلة رائعة. ولكن إذا ما نظرنا إلى حياتها دون انخداع بالعواطف لوجدنا أن حياتها تُكذّب مظهرها. فلو درسنا حياتها لرأينا أنها كانت طوال الوقت من النوع البارد الذي يحسب الأمور جيداً لدوافعه وتصرفاته. فهي لم تسكت وتتواطأ على قتل زوجها لتربط حياتها بحياة عشيقها الشاب

ذاك، بل كان هدفها الأمريكي الغني الذي ربما لم تكن تأبه له على الإطلاق. فإذا ما ارتكبت جريمة فإنها ستفعل ذلك دوماً من أجل الكسب، وهنا لم يوجد أي كسب. وفوق ذلك، كيف تفسر مسألة حفر القبر؟ لقد كان ذلك من عمل رجل.

قلتُ وأنا غير راغب بالتخلي عن رأيي: ربما كان لديها شريك.

- سأنتقل إلى اعتراض آخر. لقد تحدثتَ عن التشابه بين الجريمتين، فأين يكمن ذلك التشابه يا صديقي؟

حدقتُ إليه مدهوشاً وقلت: ما هذا يا بوارو؟ أنت الذي تحدثتَ أصلاً عن ذلك! قصة الرجلين المُقنّعين، و«السر»، والأوراق!

ابتسم بوارو قليلاً وقال: لا تسخط هكذا أرجوك. أنا لا أتنصل من أي شيء قلتُه. إن التشابه بين القضيتين يجعلهما مرتبطتين معاً على نحو حتمي، ولكن فكّر الآن بشيء غريب جداً: ليست السيدة دوبريه هي التي أخبرتنا بالقصة (ولو كانت هي لكان الأمر كله في غاية البساطة) ولكنها السيدة رينو. فهل هما متفقتان؟

قلتُ ببطء: لا أستطيع تصديق ذلك. وإذا كانت متفقة معها فإنها تكون أكمل ممثلة عرفها العالم.

قال بوارو بصبر نافد: آه، ها قد عدتَ إلى العاطفة السطحية لا إلى المنطق! إن كان ضرورياً لمجرمة أن تكون ممثلة كاملة، فلك أن تعتبرها كذلك. ولكن هل هذا ضروري؟ لا أحسب أن السيدة رينو متفقة مع السيدة دوبريه لأسباب عديدة، بعضها سبق أن ذكرتها لك،

والأسباب الأخرى تتحدث عن نفسها. ولذلك فبعد أن نستبعد هذه الفرضية نكون قد اقتربنا كثيراً من الحقيقة.

صحتُ قائلاً: بوارو، ماذا تعرف بعد؟

- يا صديقي، يجب أن تقوم أنت باستنتاجاتك الخاصة. لقد تأمن لك «الوصول إلى الحقائق». ركّز خلاياك الرمادية واستخدم عقلك. ليس مثل جيرو، بل مثل هيركيول بوارو!

- ولكن هل أنت متأكد؟

- يا صديقي، لقد كنتُ مغفلاً من عدة نواحٍ، ولكنني أخيراً أرى بوضوح.

- وهل تعرف كل شيء؟

- لقد اكتشفتُ ما أرسل السيد رينو في طلبي لاكتشافه.

- وهل تعرف القاتل؟

- أعرف قاتلاً واحداً.

- ماذا تعني؟

- نحن نتحدث في موضوعين متضاربين. لدينا هنا جريمتان لا جريمة واحدة، وقد حللتُ الأولى منهما، أما الثانية... حسناً، سأعترف بأنني لستُ واثقاً بشأنها!

- ولكن حسبتك قلتَ إن الرجل الذي كان في السقيفة قد مات ميتة طبيعية؟

أطلق بوارو أصوات نفاد صبره المعتادة وقال: ما زلت لا تفهم المقصود. يمكن أن تكون لدى المرء جريمة دون قاتل، ولكن من الضروري لجريمتين أن توجد جثتان.

رأيتُ أن ملاحظته كانت تفتقر تماماً إلى الوضوح فنظرتُ إليه ببعض اللهفة، ولكنه بدا طبيعياً تماماً. وفجأة وقف ومشى نحو النافذة ثم قال: ها هو.

- من؟

- السيد جاك رينو. لقد أرسلت له رسالة إلى الفيلا أطلب منه فيها القدوم إلى هنا.

غيّر ذلك مجرى أفكاري، وسألتُ بوارو إن كان يعلم بأن جاك رينو قد كان في ميرلينفيل ليلة الجريمة. كنت آمل أن أمسك بصديقي الضئيل الذكي نائماً، ولكنه كان كالعادة يعرف كل شيء، إذ كان قد سأل هو الآخر في المحطة. وقد علق على ذلك قائلاً: ولا شك أننا لم نتفرد بهذه الفكرة يا هيستنغز، فربما أجرى جيرو الممتاز تحرياته هو الآخر.

- هل تظن... ولكن كلا، فمن شأن ذلك أن يكون فظيعاً جداً!

نظر بوارو إليّ متسائلاً، ولكنني لم أقل المزيد. كانت قد خطرت في ذهني لتوّها فكرة مفادها أن سبع نساء على علاقة مباشرة أو غير مباشرة بالقضية (وهن السيدة رينو والسيدة دوبريه وابنتها والزائرة الغريبة المجهولة والخادمات الثلاث)، ولكن بالرغم من ذلك فلا يوجد -باستثناء أوغست العجوز الذي لا يكاد يُحسب- إلاّ

رجل واحد، وهو جاك رينو. ولا بد أن من حفر القبر كان رجلاً!

لم يتح لي من الوقت ما أطوّر به الفكرة الفظيعة التي خطرت لي، ذلك أن جاك رينو دخل الغرفة.

حياه بوارو بأسلوب عملي وقال: تفضل بالجلوس يا سيدي. إنني آسف جداً لإزعاجك، ولكن لعلك تفهم أنني لا أجد الكثير من الترحيب في الفيلا؛ فأنا والسيد جيرو لا نرى الأمور من منظار واحد. هو لم يكن بالغ التهذيب معي، ولعلك تفهم أنني لا أريد للاكتشافات الصغيرة التي قد أتوصل إليها أن تفيده بأي شكل.

قال الفتى: تماماً يا سيد بوارو. إن ذلك الرجل جيرو قاسٍ سيء الخلق، وسيسعدني أن أرى أحداً يتغلب عليه.

- هل لي إذن أن أطلب منك معروفاً صغيراً؟

- بالتأكيد.

- سأطلب منك أن تذهب إلى محطة القطار وتستقل قطاراً إلى المحطة التالية على خط السكة، وهي محطة أبالاك. وهناك اسأل في غرفة الودائع إن كان شخصان أجنبيان قد أودعا حقيبةً ليلة الجريمة. إنها محطة صغيرة، ولا شك أنهم سيتذكرون. هل لك أن تقوم بذلك؟

قال الفتى وقد احتار في الأمر رغم استعداده للمهمة: بالطبع.

- إن لدينا -أنا وصديقي- عملاً في مكان آخر. سينطلق قطارٌ بعد ربع ساعة، وسأطلب منك أن لا تعود إلى الفيلا، إذ لا أريد

لجيرو أن يعرف شيئاً عن مهمتك.

- حسناً، سأذهب مباشرة إلى المحطة.

نهض واقفاً، ولكن صوت بوارو أوقفه: دقيقة يا سيد رينو، توجد قضية واحدة صغيرة تحيرني: لماذا لم تذكر للسيد هوتيه هذا الصباح أنك كنت في ميرلينفيل ليلة ارتكاب الجريمة؟

غدا وجه جاك رينو قرمزياً وبذل جهداً ليسيطر على نفسه، ثم قال: لقد أخطأتَ يا سيد بوارو؛ فقد كنتُ في تشيربورغ كما أخبرتُ قاضي التحقيق صباح اليوم.

نظر إليه بوارو وقد ضاقت عيناه حتى غدتا كعيني قطة ولم تعد تظهر منهما إلاّ التماعةٌ للّون الأخضر، ثم قال: إذن فإن الغلطة التي ارتكبتُها في هذا الأمر فريدة من نوعها... ذلك لأن موظفي المحطة يشاركونني فيها حيث يقولون إنك وصلتَ في قطار الثانية عشرة إلاّ ثلثاً.

تردد جاك رينو للحظة، ثم حزم أمره وقال: وماذا لو أنني جئت؟ لا أحسب أنك ستتهمني بالمشاركة في قتل والدي؟

طرح سؤاله بشيء من العجرفة وقد ألقى رأسه إلى الخلف، فقال بوارو: أود لو أسمع منك إيضاحاً للسبب الذي جاء بك هنا.

- هذا أمر بسيط للغاية. فقد أتيت لرؤية خطيبتي، الآنسة دوبريه. إذ كنتُ على وشك السفر في رحلة طويلة لا أعلم متى أعود منها، ورغبتُ في رؤيتها قبل سفري لأؤكد لها حبي الذي لن يتغير.

قال بوارو وعيناه لا تفارقان وجه الفتى: وهل رأيتَها؟

مرّت فترة صمت طويلة قبل أن يجيب الفتى: نعم.

- وبعد ذلك؟

- وجدتُ أن آخر قطار قد فاتني، فمشيتُ إلى سانت بوفيه، حيث طرقت على باب موقف لسيارات الأجرة وأخذتُ سيارة أقلّتني إلى تشيربورغ.

- سانت بوفيه؟ إنها تبعد خمسة عشر كيلومتراً. إنها مسيرة طويلة يا سيد رينو.

- لقد... لقد شعرتُ برغبة في المشي.

أمال بوارو رأسه علامة على أنه تقبّل التفسير. أخذ جاك رينو قبعته وعصاه وغادر، وخلال لحظة قفز بوارو واقفاً وقال: بسرعة يا هيستنغز، سنتعقبه.

مشينا تاركين مسافة آمنة خلف الفتى، وتبعناه في شوارع ميرلينفيل. ولكن عندما شاهده بوارو ينعطف باتجاه المحطة توقف وقال: الأمر على ما يرام. لقد ابتلع الطُعم... سيذهب إلى أبالاك، وسيسأل عن الحقيبة الوهمية التي تركها أجانب وهميون. نعم يا صديقي، كان كل ذلك ابتكاراً صغيراً مني أنا.

هتفتُ قائلاً: هل أردتَ إبعاده عن طريقك؟

- إن نفاذ بصيرتك مدهش يا هيستنغز! والآن، إذا سمحت، سنذهب إلى فيلا جينيفييف.

* * *

الفصل الثامن عشر

جيرو يتصرف

بعد وصولنا إلى الفيلا قادني بوارو إلى السقيفة التي اكتُشفت فيها جثة الرجل الآخر. ولكنه لم يدخل السقيفة، بل توقف قرب المقعد الخشبي الذي أشرتُ سابقاً إلى أنه يبعد بضعة أمتار عن السقيفة. وبعد أن تأمله للحظات مشى بحذر منه إلى السياج الذي يشكّل الحد الفاصل بين فيلا جينيفييف وفيلا مارغريت. ثم عاد ثانية وهو يومئ برأسه. بعد ذلك عاد إلى السياج وباعد بين أغصانه بيديه والتفت إليّ قائلاً: بقليل من الحظ سنجد الآنسة مارتا خارجة إلى الحديقة. إنني أرغب بالتحدث معها، وأفضّل أن لا أزور فيلا مارغريت رسمياً. آها، جيدٌ جداً، ها هي هناك. بسست... يا آنسة! بسست، لحظة من فضلك.

انضممتُ إليه فيما كانت مارتا دوبريه تأتي راكضة إلى السياج استجابة لندائه وقد بدت عليها المفاجأة.

- عندي حديث صغير معك يا آنسة، إذا سمحتِ؟

- بالتأكيد يا سيد بوارو.

ورغم موافقتها إلاّ أن عينيها بدتا قلقتين خائفتين.

- هل تتذكرين يا آنسة كيف ركضتِ خلفي على الطريق يوم أن جئتُ إلى بيتكم مع قاضي التحقيق؟ لقد سألتِني إن كان يوجد شكٌ بارتكاب شخص معين للجريمة.

قالت بصوت لاهث وقد امتدت يدها اليسرى إلى صدرها: وأخبرتَني أنهما شخصان من تشيلي.

- هل لك أن تسأليني السؤال مرة أخرى يا آنسة؟

- ماذا تعني؟

- أعني ما يلي: لو سألتِني ذلك السؤال ثانية لأعطيتك جواباً مختلفاً. يوجد شخص مشكوكٌ فيه... ولكنه ليس تشيلياً.

خرج السؤال ضعيفاً من بين شفتيها المنفرجتين: مَن؟

- السيد جاك رينو.

صاحت: ماذا؟ جاك؟ مستحيل. من يجرؤ على الشك به؟

- جيرو.

شحب وجه الفتاة وقالت: جيرو! إنني خائفة من ذلك الرجل، فهو قاسٍ. إنه سوف... سوف...

ثم سكتت وقد غمر وجهها مزيج من الشجاعة والتصميم. أدركتُ في تلك اللحظة أنها كانت مقاتلة. بوارو أيضاً كان يراقبها عن كثب، وسألها: لعلك تعلمين طبعاً أنه كان هنا ليلة الجريمة؟

أجابت بشكل آلي: نعم، لقد أخبرني.

قال بوارو مجازفاً: لم يكن من الحكمة أن يحاول إخفاء هذه الحقيقة.

أجابت بنفاد صبر: نعم، نعم. ولكننا لا نستطيع إضاعة الوقت بالأسف. يجب أن نجد شيئاً لإنقاذه. إنه بريء طبعاً، ولكن ذلك كله لن ينفعه بوجود رجل مثل جيرو الذي يحرص على سمعته. لا بد له من أن يعتقل أحداً، وسيكون ذلك هو جاك.

- ستكون الحقائق ضده، هل تدركين ذلك؟

واجهتْه بجراة وقالت: أنا لست طفلة يا سيد بوارو. يمكنني أن أكون شجاعة وأواجه الحقائق. إنه بريء، وينبغي أن ننقذه.

تكلمت بنوع من الحيوية الضارية، ثم سكتت وعبست وهي تفكر. قال بوارو وهو يراقبها بتركيز: أليس يوجد، يا آنسة، شيء تخفينه ويمكنك إخبارنا به؟

أومأت برأسها حائرة وقالت: بلى؛ يوجد شيء، ولكني لا أكاد أعرف إن كنتَ ستصدقه... فهو يبدو سخيفاً جداً.

- أخبريني به على أية حال يا آنسة.

- إنه التالي: لقد أرسل السيد جيرو في طلبي -استدراكاً منه- ليرى إن كان بوسعي التعرف إلى الرجل في السقيفة، ولم أستطع التعرف إليه، أو أنني لم أستطع ذلك وقتها على الأقل. ولكنني كنتُ أفكر منذ ذلك الحين...

- بماذا؟

- يبدو الأمر غريباً جداً، ومع ذلك فإنني أكاد أكون واثقة! سأخبرك بالأمر: في صباح اليوم الذي قُتل فيه السيد رينو كنت أمشي في الحديقة هنا، فسمعتُ أصوات رجلين يتشاجران. نحّيتُ الأغصان جانباً ونظرتُ من خلالها. كان أحد الرجلين هو السيد رينو والآخر مشردٌ شقيٌّ مخيف الشكل، ذو ملابس رثة قذرة. وكان يتبادل مع السيد رينو الصياح والتهديد وفهمتُ أنه كان يطلب مالاً، ولكن في تلك اللحظة نادتني أمي من البيت، واضطررتُ للذهاب. هذا كل ما في الأمر، باستثناء أنني... أكاد أكون واثقة أن الشقي الذي رأيته هو نفسه الرجل الميت في السقيفة.

أطلق بوارو صيحة عجب وقال: ولكن لماذا لم تقولي ذلك وقتها يا آنسة؟

- لأنه لم يخطر لي في البداية إلاّ أن الوجه مألوف لديّ بطريقة غامضة ما. لقد كان الرجل بملابس مختلفة يبدو واضحاً أنها تعود لطبقة أعلى من طبقته.

نادى صوت من البيت فهمست مارتا: "هذه أمي، يجب أن أذهب". ثم انسلّت من بين الأشجار.

أمسك بوارو بذراعي وقادني باتجاه الفيلا قائلاً: هيا.

سألتُه بشيء من الفضول: ما رأيك؟ أكانت قصتها صحيحة أم أنها ابتدعتها لكي تبدد الشكوك عن خطيبها؟

- إنها قصة غريبة، ولكنني أصدق أنها حقيقة تامة. وقد أخبرتنا الآنسة بالحقيقة -في غفلة منها- فيما يخص نقطة أخرى... وكشفت دون أن تقصد زيف ادعاء جاك. هل لاحظت تردده عندما سألته إن كان قد رأى مارتا دوبريه ليلة الجريمة؟ نعم، لقد شككتُ في أنه يكذب، وكان ضرورياً بالنسبة لي أن أرى الآنسة دوبريه قبل أن يُحذّرها. لقد أعطتني كلمتان صغيرتان ما كنتُ أريده من معلومات؛ فعندما سألتها إن كانت تعرف أن جاك كان هنا ليلة الجريمة أجابت: "لقد أخبرني". والآن يا هيستنغز، ما الذي كان يفعله جاك رينو هنا في تلك الليلة المليئة بالأحداث، وإن لم يكن قد رأى الآنسة دوبريه فمن رأى إذن؟

صحتُ مرعوباً: ولكن لا يمكنك بالتأكيد أن تصدّق يا بوارو أن صبياً كهذا يمكن أن يقتل أباه!

- يا صديقي، إنك مستمر في عاطفيتك الساذجة التي لا تُصدّق! لقد رأيتُ نساء يقتلن أطفالهن الصغار من أجل أموال التأمين! وبعد هذا يمكن للمرء أن يصدق كل شيء.

- وما هو الدافع؟

- المال بالطبع. تذكر أن جاك رينو كان يحسب أنه سيرث نصف ثروة أبيه عند وفاته.

- ولكن ماذا عن المشرد الشقي؟ أين هو محله في الأمر؟

رفع بوارو كتفيه حيرة وقال: من شأن جيرو أن يقول إنه كان شريكاً في الجريمة... مجرم شقي ساعد الشاب رينو على ارتكاب

الجريمة، ثم تم التخلص منه فيما بعد ضماناً لحسن سير الأمور.

- ولكن ماذا عن الشعرة حول الخنجر.. شعرة المرأة؟

قال بوارو وهو يبتسم ابتسامة عريضة: آه! هذا أهم ما في نكتة جيرو. فبالنسبة له ليست الشعرة شعرة امرأة أبداً. تذكّر أن شباب اليوم يمشطون شعرهم إلى الخلف بدءاً من جبينهم مباشرة ويستخدمون لذلك مرهماً أو دهناً لكي يبقى شعرهم ممسوداً. وبالنتيجة فإن بعض شعرهم يكون طويلاً تماماً.

- وهل تصدق ذلك أنت أيضاً؟

قال بوارو بابتسامة غريبة: كلا، لأنني أعرف أنها شعرة امرأة... وفوق ذلك فإنني أعرف المرأة!

قلت بتأكيد: السيدة دوبريه.

قال بوارو وهو ينظر إليّ نظرة غريبة: ربما.

لم أسمح لنفسي بأن أنزعج من مناكفته. سألته ونحن ندخل صالة الفيلا: ماذا سنفعل الآن؟

- إنني أرغب بتفتيش أغراض السيد جاك رينو، ولذلك اضطررتُ لإبعاده عن الطريق لبضع ساعات.

بدأ بوارو بشكل مرتب ومنهجي بفتح الأدراج واحداً بعد الآخر ليتفحص محتوياته ثم يعيدها كما كانت تماماً، وقد كان ذلك إجراء مملاً إلى أبعد الحدود. وقد مضى بوارو يبحث في الياقات وملابس النوم والجوارب. ثم سمعتُ صوتاً في الخارج جعلني أذهب إلى

النافذة. وفجأة دبّت فيّ الحياة وصحت: بوارو! لقد وصلت سيارة، وفيها جيرو وجاك رينو وشرطيان.

زمجر بوارو قائلاً: يا إلهي! ألم يستطع ذلك الحيوان جيرو أن ينتظر؟ لن أستطيع إعادة الأشياء إلى هذا الدُرج الأخير بطريقة مرتبة. لنسرع.

ثم قام بعدم احتفاء بتفريغ الأغراض على الأرض، وكانت في غالبيتها ربطات عنق ومناديل. وفجأة انقض بوارو بصيحة انتصار على قطعة مربعة من الورق المقوى يبدو أنها كانت صورة. وبعد أن دسها في جيبه أعاد الأشياء كيفما اتفق إلى الدرج، ثم أمسك بذراعي وسحبني خارج الغرفة لننزل الدرج. وفي الصالة كان يقف جيرو وهو يتأمل سجينه. قال بوارو: مساء الخير يا سيد جيرو. ماذا لدينا هنا؟

أومأ جيرو باتجاه جاك وقال: كان يحاول الهرب، ولكنني كنت أذكى من ألاعيبه. وقد اعتُقل بتهمة قتل والده السيد بول رينو.

استدار بوارو ليواجه الفتى الذي كان يتكئ مرتخياً على الباب وقد غدا وجهه شاحباً جداً. قال له بوارو: ماذا تقول في ذلك أيها الفتى؟

حدق جاك رينو إليه بشدة وقال: لا شيء.

* * *

الفصل التاسع عشر

إنني أستخدم عقلي

صُعقتُ لذلك، فحتى آخر لحظة لم أستطع حمل نفسي على التصديق بأن جاك رينو مذنب. لقد توقعتُ منه إعلاناً مدوياً لبراءته عندما تحداه بوارو، ولكن لم تعد لدي الآن أية شكوك وأنا أراقبه يقف هناك شاحباً مرتخياً على الحائط، وأستمع إلى الإعتراف يخرج من بين شفتيه. ولكن بوارو كان قد التفت إلى جيرو وقال: ما هي أسباب اعتقالك له؟

- هل تتوقع مني تقديم تلك الأسباب لك أنت؟

- من باب اللباقة، نعم.

نظر إليه جيرو بارتياب. كان حائراً بين رغبته بالرفض بوقاحة وبين سعادة الانتصار على غريمه. قال أخيراً: لا أحسبك تظنني ارتكبتُ خطأً؟

قال بوارو بقليل من المكر: ما كان ذلك ليدهشني.

احمرّ وجه جيرو أكثر من ذي قبل وقال: حسناً، تعال إلى هنا. سوف تحكم على ذلك بنفسك.

فتح باب الصالة ودخلنا تاركين جاك في عهدة الشرطيين الآخرين. قال جيرو وهو يضع قبعته على الطاولة ويتحدث بكل سخرية: والآن يا سيد بوارو سأدعوك إلى محاضرة صغيرة عن عمل التحري، وسأريك كيف نعمل نحن العصريون.

قال بوارو وهو يهيء نفسه للاستماع: حسناً، وأنا سأريك الطريقة الرائعة التي يمكن للحرس القديم أن يصغوا بها!

استند إلى ظهر كرسيه وأغمض عينيه، ثم عاد ففتحهما للحظة ليقول: لا تخف من أن أنام، سأصغي بكل جوارحي.

بدأ جيرو يقول: لم يخدعني طبعاً منذ البداية ذلك الهراء عن تشيلي. كان رجلان متورطين في الجريمة... ولكنهما لم يكونا أجنبيين مجهولين! كان كل ذلك تمويهاً.

تمتم بوارو: كلام رائع تماماً حتى الآن يا عزيزي جيرو، خاصة بعد حيلتهما الذكية تلك بعود الثقاب وعقب اللفافة.

حدق جيرو إليه ثم أكمل قائلاً: لا بد أن رجلاً كان على علاقة بالقضية حتى يحفر القبر. ولا يوجد رجل يستفيد عملياً من الجريمة، ولكن يوجد رجل كان يظن أنه يستفيد. لقد سمعت بمشاجرة جاك رينو مع والده وبالتهديدات التي استخدمها، فقد ثبت الدافع إذن. أما بالنسبة للوسيلة والإمكانية، فقد كان جاك رينو في ميرلينفيل في تلك الليلة، وقد أخفى هذه الحقيقة... مما قلب الشك إلى يقين. ثم

وجدنا قتيلاً آخر... وقد طُعن بنفس الخنجر. نحن نعرف متى تمت سرقة ذلك الخنجر وبوسع الكابتن هيستنغز هنا أن يحدد الوقت، وجاك رينو الواصل من تشيربورغ هو الوحيد الذي كان بوسعه أن يأخذه، فقد وجدتُ ما من شأنه استبعاد جميع الآخرين من أهل البيت في عملية سرقة الخنجر.

قال بوارو: أنت مخطئ؛ فشخص آخر كان بوسعه أن يأخذه.

- هل تعني السيد ستونور؟ لقد وصل إلى الباب الأمامي راكباً سيارة أقلته مباشرة من كاليه. آه! صدّقني، لقد بحثتُ في كل الظروف والملابسات. لقد وصل السيد جاك رينو بالقطار، وقد مرت ساعة بين موعد وصول القطار ووقت ظهوره هنا في البيت. لا شك أنه رأى الكابتن هيستنغز وصديقته يغادران السقيفة، فتسلل إليها وأخذ الخنجر، وطعن شريكه في الجريمة في السقيفة...

- شريكه الذي كان أصلاً ميتاً!

رفع جيرو كتفيه لامبالاة وقال: ربما لم يلاحظ ذلك. ربما ظن أنه نائم فقط. لا شك أنهما كانا على موعد، وقد عرف على أية حال أن هذه الجريمة الثانية ستعقّد علينا الموقف. وقد عقدته بالفعل.

تمتم بوارو: ولكن ذلك لا يمكن أن يخدع السيد جيرو.

- أتهزأ بي! ولكنني سأعطيك إثباتاً أخيراً لا يمكن دحضه. لقد كانت قصة السيدة رينو زائفة... مجرد تلفيق من أولها لآخرها. إننا نعتقد بأن السيدة رينو كانت تحب زوجها... ومع ذلك فقد كذبت للتستر على قاتله. فمن أجل مَن يمكن أن تكذب المرأة؟ يمكن أن تكذب أحياناً من أجل نفسها، وعادة ما تكذب من أجل الرجل الذي

تحبه، ولكنها دائماً تكذب من أجل أطفالها. هذا هو البرهان الأخير الذي لا يُدحَض؛ لا يمكنك أن تتحايل على ذلك.

سكت جيرو وقد احمرّ وجهه بنشوة النصر، ونظر إليه بوارو بثبات، فقال: هذه هي القضية كما أراها، فماذا تقول فيها؟

- أقول فقط إنك فشلت في أخذ شيء واحد بعين الإعتبار.

- وما هو؟

- يُفترض أن يكون جاك رينو ملماً بكيفية تخطيط ملعب الغولف، وكان من شأنه أن يعرف أن الجثة ستكشف فوراً عندما يبدأ العمال بالحفر لإقامة تلك الحفرة الاصطناعية في الملعب.

ضحك جيرو بصوت عال وقال: ولكن ما تقوله هنا سخيف! لقد أراد للجثة أن تُكشف؛ إذ ما كان بمقدوره إعلان الوفاة واستلام نصيبه من التركة إلى أن يتم اكتشاف الجثة.

رأيتُ التماعة اخضرار سريعة في عيني بوارو وهو ينهض ليسأل بكل هدوء: إذن لماذا يدفنها؟ فكّرْ يا جيرو. لقد كان من مصلحة جاك أن يتم العثور على الجثة دون تأخير، فلماذا حفر القبر أساساً؟

لم يُجِب جيرو، فقد أخذه السؤال على حين غرة. رفع كتفيه كمن يقول إن ذلك لا أهمية له. تحرك بوارو نحو الباب وأنا أتبعه وقال وهو يلتفت إلى صاحبه: أمر آخر فشلتَ في أخذه باعتبارك.

- وما هو؟

قال بوارو: "قطعة أنبوب الرصاص"، ثم غادر الغرفة.

كان جاك رينو ما يزال واقفاً في الصالة بوجهه الشاحب الحائر، ولكنه رفع بصره بحدة عند خروجنا من الغرفة، وفي نفس الوقت سُمع صوت خطوات على الدرج. كانت السيدة رينو تنزل الدرج، وعند رؤيتها لابنها واقفاً بين اثنين من الشرطة الأشداء توقفت كمن شلّه الرعب وقالت بصوت مُرتعد: جاك، جاك... ما هذا؟

نظر ابنها إليها بوجه عابس وقال: لقد اعتقلوني يا أمي.

- ماذا؟

أطلقت صيحة مدوية وترنحت وسقطت بقوة قبل أن يتمكن أحد من اللحاق بها. ركضنا نحن الاثنين إليها ورفعناها، وخلال لحظة عاد بوارو للنهوض قائلاً: لقد أُصيبت في رأسها إصابة بليغة على حافة الدرج، وأتصور أن غيبوبة خفيفة أصابتها أيضاً. وسيتعين على جيرو أن ينتظر إن هو أراد سماع أقوالها، فربما بقيت في غيبوبة لفترة أسبوع على الأقل.

هُرعت دينيس وفرانسوا إلى سيدتهما، فتركها بوارو في عهدتهما وغادر المنزل. مشى مُطرق الرأس عابساً يفكر، ولم أتكلم لبعض الوقت، ولكنني جازفتُ في النهاية بطرح سؤال عليه: هل تظن إذن -خلافاً لكل المظاهر- أن جاك رينو ربما لا يكون مذنباً؟

لم يجبني بوارو فوراً، ولكنه قال بتجهم بعد انتظار طويل: لا أعرف يا هيستنغز... توجد إمكانية لذلك. إن جيرو مخطئ تماماً بالطبع، مخطئ من البداية للنهاية. وإن كان جاك رينو مذنباً، فسيكون ذلك بالرغم من منطق جيرو، وليس وفقاً لمنطقه. وإن أكبر جرم يدين جاك لا يعرفه أحد غيري.

سألتُ وقد أثار ذلك اهتمامي: وما هو؟

- لو استخدمتَ خلايا دماغك الرمادية، ورأيتَ القضية كلها بوضوح كما أراها، لفهمتَ ذلك أيضاً يا صديقي.

كان هذا واحداً مما أسميه إجابات بوارو المزعجة. وقد مضى ليقول: دعنا نمشي في هذا الطريق إلى البحر. سوف نجلس على ذلك المرتفع هناك ونراجع القضية. ستعرف كل ما أعرفه، ولكنني أفضّل أن تصل إلى الحقيقة بجهودك الخاصة، وليس باقتيادي لك من يدك.

جلسنا على تلك التلة الصغيرة المكسوة بالعشب كما اقترح بوارو في مواجهة البحر، وهناك قال بصوت مُشجّع: فكّرْ يا صديقي، ورتب أفكارك. كن منهجياً مُنظَّماً؛ فهنا يكمن سر النجاح.

سعيتُ لطاعته مستعرضاً في عقلي كل تفصيلات القضية. وفجأةً جفلتُ إذ خطرت لذهني فكرة رهيبة فيما تلقيه من أضواء على القضية، وقد بنيت فرضيتي وأنا أرتعد. قال بوارو: أرى أن لديك فكرة صغيرة يا صديقي! عظيم، إننا نتقدم.

اعتدلت في جلستي وأشعلتُ غليوني وقلت: يبدو لي يا بوارو أننا كنا مُهملَيْن إلى حدٍّ غريب. وإنني أقول كنا رغم أن من الأدقّ أن أقول كنتُ، ولكن ينبغي عليك أن تدفع ثمن تكتمك العنيد. ولذلك أقول إننا كنا مُهملَيْن جداً. لقد نسينا شخصاً مهمّاً.

قال بوارو بعينين تومضان: ومن هو ذلك الشخص؟

- جورج كونو.

* * *

الفصل العشرون

فرضية مدهشة

انقضّ عليّ بوارو مهنئاً وقال: أخيراً! لقد وصلت، وبجهدك الخاص فقط. هذا رائع! استمر في محاكمتك العقلية، فأنت على صواب. لقد أخطأنا بالتأكيد إذ نسينا جورج كونو.

وقد بلغ تأثري بإطراء صديقي الضئيل حداً جعلني لا أكاد أستطيع المضي في التركيز. ولكنني استجمعتُ أخيراً أفكاري ومضيتُ قائلاً: لقد اختفى جورج كونو منذ عشرين عاماً، ولكن ما من سبب يجعلنا نظن أنه مات.

وافقني بوارو قائلاً: ما من سبب على الإطلاق... استمر.

- ولذلك فإننا سنفترض أنه على قيد الحياة.

- بالضبط.

- أو أنه كان على قيد الحياة حتى وقت قريب.

- إنك تتقدم من حسن إلى أحسن!

مضيت قائلاً وقد زادت حماستي: سنفترض أنه قد مرّ بأيام

عصبية، وأنه أصبح مجرماً، شقياً، مشرداً... سمّه ما شئت. وقد صدف أن جاء إلى ميرلينفيل. وهناك وجد المرأة التي لم يتوقف عن حبها.

حذرني بوارو قائلاً: إيه، إيه! عدنا إلى العواطف الساذجة.

قلتُ وأنا أقتطف عبارة لا أدري إن كنتُ قد اقتطفتها بالشكل الصحيح: «حيث يكره المرء فإنه يحب أيضاً». وعلى أية حال فقد وجدها في هذه البلدة تعيش تحت اسم مُستعار. ولكن كان لديها حبيب جديد هو الإنكليزي رينو. وقد تذكر كونو ما تعرض له من مظالم في الماضي فذهب وتشاجر مع السيد رينو، ثم كَمَنَ ينتظر غريمه عندما يخرج لزيارتها فطعنه في ظهره. ولما أرعبه ما فعله بدأ بحفر القبر. ويخيل إليّ أن من الممكن أن تكون السيدة دوبريه قد خرجت لتبحث عن صاحبها، فوجدت كونو وتشاجرا بشدة. وقد سحبها إلى السقيفة، وهناك وقع فجأة في نوبة الصرع. والآن لنفترض أن جاك رينو قد ظهر وقتها. وقد أخبرته السيدة دوبريه بالأمر، ونبّهته للعواقب الوخيمة على ابنتها إن تم إحياء هذه الفضيحة القديمة. إن قاتل أبيه ميت... فليعملوا ما بوسعهم على إخفاء الموضوع وطيّه. وقد وافق جاك رينو... فذهب إلى البيت وقابل والدته وكسب موافقتها على وجهة نظره. وبعد أن تسلّحت بالقصة التي أوحت بها السيدة دوبريه، سمحت السيدة رينو بأن تُقيّد ويُكمم فمها. ما رأيك بهذه الفرضية؟

اتكأتُ إلى الخلف وأنا فخور بنجاحي في إعادة بناء القضية، ولكن بوارو نظر إليّ متأملاً وقال أخيراً: أظن يا صديقي أنك يجب أن تكتب للسينما.

- ماذا تعني؟

- هذه القصة التي قصصتها عليّ تصلح موضوعاً لفيلم سينمائي جيد... ولكنها لا تحمل شبهاً بالحياة الواقعية.

- أعترف بأنني لم أورد كل التفصيلات، ولكن...

- بل لقد ذهبتَ أبعد من ذلك... لقد تجاهلت التفصيلات على نحو فظيع. ماذا عن شكل ملابس كلا الرجلين؟ هل تقترح أن كونو قام -بعد طعن الرجل- بنزع ملابسه وارتدائها بنفسه، ثم أعاد الخنجر إلى مكانه؟

قلت بشيء من الحرج: لا أرى أن ذلك مهم كثيراً. ربما كان قد حصل على الملابس والمال من السيدة دوبريه عن طريق التهديد في وقت مبكر من ذلك اليوم.

- بالتهديد...؟ أتطرح هذا الاقتراح جاداً؟

- بالتأكيد. كان بوسعه أن يهددها بكشف هويتها الحقيقية لأسرة رينو، وربما كان من شأن ذلك أن يضع نهاية لكل الآمال بزواج ابنتها.

- أنت مخطئ يا هيستنغز. ما كان بمقدوره أن يبتزها، لأنها هي صاحبة اليد العليا. تذكر أن جورج كونو كان ما يزال مطلوباً للشرطة بتهمة القتل، ومن شأن كلمة منها أن تضعه تحت خطر المقصلة.

وجدتُني مجبراً على أن أتقبل -بتردد- صحة هذا الأمر، ولكنني قلتُ بشيء من المرارة: ونظريتك أنت صحيحة فيما يخص كل تلك التفصيلات، أليس كذلك؟

- إن نظريتي هي الحقيقة، والحقيقة صحيحة بالضرورة. لقد ارتكبت خطأً جوهرياً في نظريتك؛ فقد سمحت لخيالك بأن ينحرف بك لتتخيل لقاءات سرية في وسط الليل ومشاهد حب لاهبة. ولكننا -ونحن نحقق في قضية- ينبغي أن نقف على أرض صلبة من الواقع العادي. هل أعرض عليك أساليبي؟

- آه، بالتأكيد. دعنا نسمع عرضك!

انتصب بوارو في جلسته وبدأ مشيراً بسبابته ليؤكد على بعض النقاط: سأبدأ -كما بدأت أنت- من الحقائق الأساسية لجورج كونو. إن القصة التي طرحتها السيدة بيرولدي في المحكمة بخصوص «الروسيين» كانت تلفيقاً باعترافها. فإذا كانت بريئة من تهمة الموافقة الضمنية على الجريمة، فهذا يعني أنها هي التي لفقت القصة. وبالمقابل إذا لم تكن بريئة فربما تم تلفيق القصة إما من قبلها هي أو من قبل جورج كونو. والآن فإننا نواجه في هذه القضية التي نحقق فيها نفس القصة. وكما قلتُ لك، فإن الحقائق تستبعد أن تكون السيدة دوبريه هي التي حرّضت على الجريمة. وهكذا فإننا نعود إلى الفرضية القائلة إن جذور القصة تكمن في عقل جورج كونو.

عظيم، لقد خطط جورج كونو للجريمة إذن بوجود السيدة رينو شريكةً له. إنها تقف تحت الأضواء، وخلفها شخصية غامضة لا نعرف هويتها الحالية.

والآن دعنا نستعرض بحرص ودقة قضية رينو من البداية، واضعين كل نقطة مهمة في تسلسلها الزمني. هل لديك قلم ودفتر ملاحظات؟ جيد. والآن ما هي أول نقطة يمكن تدوينها؟

- الرسالة التي أُرسِلت إليك؟

- كانت تلك أول معرفتنا بالقضية، ولكنها ليست البداية الصحيحة للقضية. أظن أن أول نقطة مهمة هي التغيير الذي طرأ على السيد رينو بعد وقت قصير من وصوله إلى ميرلينفيل، والذي أكّده الكثير من الشهود. كما أن علينا أن نأخذ في الاعتبار صداقته مع السيدة دوبريه، والمبالغ الكبيرة من المال التي دُفعت لها. ومن هناك يمكن لنا أن نأتي مباشرة إلى يوم ٢٣ أيار.

توقف بوارو قليلاً، ثم تنحنح وأشار لي أن أكتب:

٢٣ أيار: السيد رينو يتشاجر مع ابنه حول رغبة الأخير بالزواج بمارتا دوبريه، ويغادر الابن إلى باريس.

٢٤ أيار: يغير السيد رينو وصيته، تاركاً السيطرة الكاملة على ثروته بيد زوجته.

٧ حزيران: مشاجرة مع شقي في الحديقة، بشهادة مارتا دوبريه.

رسالة تُكتب إلى هيركيول بوارو تطلب المساعدة.

برقية تُرسل إلى جاك رينو تطلب منه التوجه إلى بيونوس أيريس على متن أنزورا.

يتم إرسال السائق ماسترز في إجازة.

زيارة لسيدة في تلك الليلة، يقول السيد رينو لدى توديعها "نعم، نعم... ولكن بالله عليك اذهبي الآن".

توقف بوارو قليلاً ثم قال: والآن يا هيستنغز، خذ كل واحدة

من هذه الحقائق على انفراد، وفكر في هذه الحقائق كما هي بحد ذاتها وفي علاقتها بالكل، وانظر إذا ما كان بوسعك الحصول على ضوء جديد على القضية.

سعيتُ جاهداً أن أفعل كما قال. وبعد لحظات قلت بشيء من الارتياب: بالنسبة للنقاط الأولى يبدو أن السؤال هو ما إذا كنا سنتبنى نظرية الابتزاز أو نظرية التعلق الشديد بهذه المرأة.

- إنه الابتزاز بالتأكيد. لقد سمعتَ ما قاله ستونور بشأن شخصية السيد رينو وعاداته.

- ولكن السيدة رينو لم تؤكد وجهة نظره.

- لقد رأينا -أصلاً- أن شهادة السيدة رينو لا يمكن الاعتماد عليها بأي شكل. يجب أن نثق بكلام ستونور في هذه النقطة.

- ومع ذلك، إذا كان للسيد رينو علاقة مع امرأة تدعى بيلا، فلا يمكن استبعاد إقامته لعلاقة أخرى مع السيدة دوبريه.

- أؤكد لك يا هيستنغز أن الرجل لم تكن له أية علاقة.

- ولكن الرسالة يا بوارو... أنت تنسى الرسالة.

- كلا، إنني لا أنساها. ولكن ما الذي يجعلك تفكر بأن الرسالة قد كُتبت للسيد رينو؟

- ما هذا السؤال؟ لقد وُجدت في جيب معطفه، و... و...

- وهذا كل ما في الأمر! لم يُذكَر أي اسم ليشير إلى من أُرسِلت الرسالة، وقد افترضنا أنها أُرسِلت للقتيل لأنها كانت في

جيب معطفه. والآن يا صديقي، لقد لفت انتباهي شيء غريب في ذلك المعطف، وقد قستُه وعلقتُ قائلاً إنه يلبس معطفاً طويلاً جداً. كان ينبغي لتلك الملاحظة أن تجعلك تفكر.

اعترفتُ قائلاً: ظننتك تقول ذلك لمجرد قول شيء.

- آه، يا لهذه الفكرة! وقد لاحظتَني فيما بعد وأنا أقيس معطف السيد جاك رينو. إن جاك رينو يلبس معطفاً قصيراً جداً. ضع هاتين الملاحظتين مع الملاحظة الثالثة، وهي أن السيد جاك رينو قد انطلق إلى المحطة بسرعة كبيرة لدى مغادرته إلى باريس، وقل لي ما الذي تستنتجه من ذلك!

قلت ببطء فيما كان المعنى الذي أراده بوارو يتضح لي: أفهم من هذا أن تلك الرسالة كانت قد كُتبت لجاك رينو... وليس لأبيه. وقد أخذ المعطف الخطأ في غمرة عجلته وانفعاله.

أومأ بوارو موافقاً وقال: بالضبط! يمكننا أن نعود لهذه النقطة لاحقاً. يكفينا الآن أن نقتنع بأن الرسالة لا علاقة لها بالسيد رينو الأب، ولننتقل إلى الحدث التالي في التسلسل الزمني.

قرأتُ من دفتر ملاحظاتي: «٢٣ أيار: السيد رينو يتشاجر مع ابنه حول رغبة الأخير بالزواج بمارتا دوبريه، ويغادر الابن إلى باريس».

ثم قلت: لا أرى هنا ما يمكن التعليق عليه، ويبدو تغيير الوصية في اليوم التالي إجراء عادياً؛ فقد كان نتيجة مباشرة للمشاجرة.

- نحن متفقان يا صديقي... بالنسبة للسبب على الأقل. ولكن

ما هو الدافع الدقيق الذي كان خلف تصرف السيد رينو هذا؟

فتحتُ عيني دهشة وقلت: الغضب من ابنه طبعاً.

- ومع ذلك فهو يكتب له رسائل تنضح بالحب إلى باريس.

- هذا ما يقوله جاك رينو، ولكنه لم يستطع إبراز تلك الرسائل.

- حسناً، دعنا نتجاوز هذه النقطة.

- نأتي الآن إلى يوم وقوع المأساة. وقد وضعتَ أحداث ذلك الصباح وفق تسلسل معين. هل لديك أي تبرير لذلك؟

- لقد أكّدتُ أن الرسالة التي أرسلت إليّ قد وُضعت في البريد في نفس وقت إرسال البرقية. وقد تم إبلاغ ماسترز بعد ذلك مباشرة بأن بوسعه أخذ إجازة. وبرأيي أن المشاجرة مع المشرد الشقي قد حدثت قبل وقوع هذه الأحداث.

- لا أرى أن بإمكانك أن تحدد ذلك بدقة ما لم تحقق مع السيدة دوبريه ثانية.

- لا حاجة لذلك، فأنا متأكد من الأمر. وإن كنتَ لا ترى ذلك فأنت لا ترى شيئاً يا هيستنغز!

نظرتُ إليه لحظة ثم قلت: بالطبع! يا لي من مغفل. إذا كان المشرد هو جورج كونو، فإن السيد رينو لم يشعر بشدة الخطر إلاّ بعد مقابلته معه. وقد أبعد السائق ماسترز الذي كان يشك أنه يتلقى رشاوى من كونو، ثم أبرق لابنه وأرسل الرسالة لك.

ارتسمت ابتسامة خافتة على شفتي بوارو وقال: ألا ترى غرابة في أن تستخدم السيدة رينو نفس كلماته بالضبط في نهاية قصتها؟ إن كان ذكر سانتياغو مجرد غطاء للتمويه فلماذا يتحدث عنه رينو، بل ولماذا يُرسل ابنه إلى هناك؟

- أعترف أن ذلك أمر محيّر، ولكن ربما وجدنا تفسيراً لذلك لاحقاً. والآن نأتي إلى المساء وزيارة تلك السيدة الغامضة. إنني أعترف بأن ذلك يحيرني فعلاً، إلاّ إذا كانت تلك السيدة هي السيدة دوبريه كما أصرت فرانسوا على القول طوال الوقت.

هزّ بوارو رأسه بالنفي وقال: يا صديقي، يا صديقي... أين تسبح ملكاتك الذهنية؟ تذكّر قصاصة الشيك تلك، وحقيقة أن اسم بيلا دوفين كان مألوفاً نوعاً ما بالنسبة إلى ستونور، وأحسب أن بإمكاننا أن نُسلّم بأن بيلا دوفين هو الاسم الكامل لصديقة جاك رينو التي أرسلت له تلك الرسالة، وأنها هي التي أتت إلى الفيلا في تلك الليلة. ولا نستطيع الجزم فيما إذا كانت قد جاءت لرؤية جاك، أو أنها قصدت أساساً اللجوء إلى والده، ولكنني أحسب أن بوسعنا الافتراض بأن هذا هو ما حدث. وقد أبرزت للسيد رينو مطالبها من جاك، وربما أرته الرسائل التي بعثها إليها، فحاول الرجل شراء سكوتها بكتابة شيك لها. وقد قامت بتمزيق ذلك الشيك بغضب، إذ أن عبارات رسالتها تدل على امرأة تحب بصدق، ومن شأنها أن تسخط أشد السخط إذا ما عُرض عليها المال. وفي النهاية تخلص السيد رينو منها، وهنا فإن الكلمات التي استخدمها مهمة.

كررتُ قائلاً: "نعم، نعم... ولكن بالله عليكِ اذهبي الآن". تبدو

لي كلمات منفعلة مُلحّة، هذا كل ما في الأمر.

- وهذا يكفي. لقد كان حريصاً أشد الحرص على ذهاب الفتاة. لماذا؟ ليس لأن اللقاء كان كريهاً. كلا، ولكن الوقت كان يجري، ولسبب من الأسباب كان الوقت ثميناً.

سألت مدهوشاً: ولماذا يكون ثميناً؟

- هذا ما نسأل أنفسنا عنه: لماذا يكون ثميناً؟ ولكن لدينا لاحقاً مسألة الساعة المهشمة... وهي تُظهر أيضاً أن الوقت يلعب دوراً مهماً في الجريمة. إننا نقترب الآن بسرعة من الدراما الفعلية. كانت الساعة العاشرة والنصف عندما غادرت بيلا دوفين، ونحن نعرف من خلال دليل الساعة المحطمة بأن الجريمة قد ارتُكبت -أو تم تمثيلها على أية حال- قبل الساعة الثانية عشرة. لقد استعرضنا كل الأحداث التي سبقت الجريمة، وبقي حدث واحد لم يوضع في موضعه الصحيح. تقول شهادة الطبيب إن المشرد الشقي عندما عُثر عليه كانت قد مضت على وفاته ثمان وأربعون ساعة على الأقل... مع إمكانية إضافة أربع وعشرين ساعة أخرى فوق ذلك. والآن، مع عدم وجود حقائق أخرى تساعدني غير التي ناقشناها فإنني أزعم بأن الوفاة قد حدثت صباح يوم السابع من حزيران.

حدقتُ إليه مصعوقاً وقلت: ولكن كيف؟ لماذا؟ كيف لك أن تعرف؟

- لأن تسلسل الأحداث لا يمكن أن يُفسَّر منطقياً إلاّ بهذا الشكل. يا صديقي، لقد أخذتك خطوة خطوة على هذا الطريق. ألا ترى ما هو واضح يفقأ العين؟

- يا عزيزي بوارو، إنني لا أرى ما يفقأ العين في هذا الأمر. لقد ظننتُ فعلاً أنني بدأت رؤية طريقي من قبل، ولكنني الآن في أشد الحيرة. استمر بالله عليك وقل لي من الذي قتل السيد رينو.

- هذا بالضبط ما لستُ واثقاً منه بعد.

- ولكنك قلتَ إنه واضح يفقأ العين!

- إننا نتحدث عن أمرين مختلفين يا صديقي. تذكّر أننا نحقق في جريمتين نملك لهما -كما أشرتُ من قبل- الجثتين الضروريتين. لا تفقد صبرك يا صديقي، سأشرح كل شيء. بداية دعنا نستخدم علم النفس: لقد وجدنا ثلاث نقاط أظهر فيها السيد رينو تغيراً واضحاً في وجهات نظره وتصرفاته... ولذلك فإن لدينا ثلاث نقاط سيكولوجية. وقعت الأولى بعد وصوله إلى ميرلينفيل مباشرة، والثانية بعد مشاجرته مع ابنه حول موضوع معين، والثالثة في صباح يوم ٧ حزيران. والآن لنذكر الأسباب الثلاثة لذلك. يمكن لنا أن نعزو التغير رقم ١ إلى لقائه بالسيدة دوبريه. والتغير رقم ٢ مرتبط بها أيضاً بشكل غير مباشر، إذ أنه يخص زواجاً بين ابن السيد رينو وابنتها. ولكن سبب رقم ٣ مخفي عنا.. علينا أن نستنتجه. والآن يا صديقي، دعني أسألك سؤالاً: من الذي نعتقد أنه قد خطط لهذه الجريمة؟

قلت بارتياب وأنا أنظر إلى بوارو باحتراس: جورج كونو.

- بالضبط. والآن فإن جيرو قد طرح مبدأً عاماً يقول إن المرأة تكذب أولاً لإنقاذ نفسها، وثانياً لإنقاذ الرجل الذي تحبه، وثالثاً لإنقاذ ابنها. وطالما أننا مقتنعان بأن جورج كونو هو الذي لقّنها الكذبة، وطالما أن جورج كونو ليس ابنها، فبوسعنا استبعاد الحالة

الثالثة. ومع ذلك فإذا ما عزونا الجريمة لجورج كونو فإن الحالة الأولى أيضاً لا معنى لها. وهكذا فإننا مضطرون للعودة إلى الحالة الثانية، وهي أن السيدة رينو قد كذبت من أجل الرجل الذي تحبه... أو بكلمة أخرى من أجل جورج كونو. هل توافقني على ذلك؟

اعترفتُ قائلاً: نعم، يبدو هذا منطقياً تماماً.

- حسناً! السيدة رينو تحب إذن جورج كونو. من هو جورج كونو؟

- المشرد الشقي.

- هل لدينا أي دليل يثبت أن السيدة رينو أحبت المتشرد؟

- كلا، ولكن...

- حسناً إذن. دعك من النظريات التي لا تدعمها الحقائق، وبدلاً من ذلك اسأل نفسك: من الذي أحبته السيدة رينو فعلاً؟

هززتُ رأسي حيرة، فقال بوارو: نعم، هيا. إنك تعرف ذلك تمام المعرفة. من الذي أحبته السيدة رينو إلى الحد الذي جعلها تسقط مغشياً عليها عندما رأت جثته؟

حدقتُ إليه مصعوقاً وقلتُ لاهثاً: زوجها؟

أومأ بوارو وقال: زوجها، أو جورج كونو، كيفما أردت تسميته.

استجمعتُ قواي وقلت: ولكن ذلك مستحيل.

- لماذا «مستحيل»؟ ألم نتفق لتوّنا على أن السيدة دوبريه في موقع يسمح لها بابتزاز جورج كونو؟

- بلى، ولكن...

- ألم تقم بابتزاز السيد رينو بكل نجاح؟

- ربما كان ذلك صحيحاً، ولكن...

- أليس حقيقة أننا لا نعرف شيئاً عن شباب ونشأة السيد رينو؟ وأنه ظهر فجأة للوجود باعتباره من فرنسيي كندا قبل عشرين عاماً بالضبط؟

قلتُ بمزيد من الثبات: كل هذا صحيح، ولكن يبدو أنك تتجاوز نقطة بارزة واحدة.

- وما هي يا صديقي؟

- لقد اتفقنا على أن جورج كونو قد خطط للجريمة. وهذا يقودنا إلى فرضية سخيفة، هي أنه قد خطط لمقتله الخاص!

قال بوارو بهدوء: حسناً يا صديقي، هذا بالضبط ما فعله!

* * *

الفصل الحادي والعشرون

بوارو يتحدث عن القضية

وبصوت محسوب بدأ بوارو عرضه:

أيبدو لك غريباً يا صديقي أن يخطط رجل لمقتله؟ وهل ترى ذلك غريباً إلى الحد الذي يجعلك ترفض الفكرة باعتبارها خيالية، وتلجأ إلى قصة هي في الحقيقة أكثر استحالة بعشر مرات. نعم، لقد خطط السيد رينو لموته، ولكن يبدو أن نقطة صغيرة واحدة قد فاتتك... فهو لم يقصد أن يموت.

هززتُ رأسي مشدوهاً فقال بوارو بلطف: نعم يا صديقي، الأمر كله في غاية البساطة. ذلك أن الجريمة التي خطط لها السيد رينو لم تكن بحاجة إلى قاتل، كما قلت لك، ولكن كانت بحاجة إلى جثة. دعنا نُعِد بناء القضية برؤية الأحداث من زاوية مختلفة هذه المرة.

لقد هرب جورج كونو من العدالة... إلى كندا. وهناك تزوج تحت اسم مستعار، وحصل في النهاية على ثروة ضخمة في أمريكا

الجنوبية، ولكنه كان يشعر بالحنين إلى وطنه. لقد مرت عشرون سنة، وقد تغير شكله تغيراً كبيراً، إلى جانب كونه رجلاً بارزاً إلى الحد الذي لا يجعل أحداً يشك في أنه هارب قديم من وجه العدالة. وقد قدّر أن عودته ستكون آمنة تماماً، ولذلك فقد جعل مقره في إنكلترا، على أن يقضي مواسم الصيف في فرنسا. وقد قاده حظه العاثر إلى ميرلينفيل، أو لنقل أن ما قاده إليها هو تلك العدالة الإلهية التي تصوغ مقادير البشر ولا تسمح لهم بتفادي عواقب أفعالهم. وهناك في ميرلينفيل -من بين كل المدن والمناطق الفرنسية- كان الشخص الوحيد الذي يستطيع التعرف إليه. وقد كان ذلك طبعاً بمثابة الدجاجة التي تبيض ذهباً بالنسبة للسيدة دوبريه، وهي فرصة لا يمكن للسيدة أن تتلكأ في اغتنامها. وبذلك أصبح الرجل يائساً، واقعاً تحت سيطرتها تماماً. وقد ابتزته إلى أبعد الحدود.

بعد ذلك حدث المحتوم. فقد وقع جاك رينو في حب الفتاة الجميلة التي يكاد يراها يومياً، ورغب في الزواج منها. وتعين على السيد رينو أن يمنع ابنه من الزواج بابنة هذه المرأة الشريرة مهما كلف الأمر. ولم يكن جاك رينو يعلم شيئاً عن ماضي أبيه، ولكن السيدة رينو تعلم كل شيء. وهي امرأة ذات شخصية قوية جداً، وهي مخلصة لزوجها أشد الإخلاص. وهكذا فقد تشاورا معاً، ورأى رينو طريقة واحدة للنجاة: الموت. يجب أن يظهر بأنه مات، بينما يهرب في الحقيقة إلى بلد آخر حيث سيبدأ حياة جديدة تحت اسم مستعار، حيث يمكن للسيدة رينو -بعد أن تلعب دور الأرملة لفترة ما- أن تلحق به. ولذلك فمن الضروري جداً أن يكون المال تحت سيطرتها هي، ولذلك غيّر وصيته. لا أدري كيف خططا لتدبير

أمر الجثة في بادئ الأمر... ربما عن طريق هيكل عظمي من تلك الهياكل التي يتمرن عليها طلبة الفن أو الطب، مع إشعال حريق... شيء من هذا القبيل، ولكن قبل أن تنضج خطتهما بوقت طويل وقع حادث جاء لفائدتهما. فقد دخل الحديقة مشردٌ شقي جلف يتصف بالعنف. وقد حدث شجار، وأراد رينو طرده، وفجأة وقع الشقي المصاب بالصرع في واحدة من نوباته، فمات بها. وقد استدعى رينو زوجته، وسحباه معاً إلى السقيفة -ونحن نعرف أن الأمر وقع على هذا النحو من الآثار خارج السقيفة- وأدرك الاثنان الفرصة الفريدة التي سنحت لهما. لم يكن الرجل يشبه رينو، ولكنه كان في أوسط عمره وذا سمت فرنسي، وهذا كافٍ.

إنني أكاد أتخيل أنهما جلسا على ذلك المقعد الخشبي هناك، بعيداً عن آذان مَن في البيت يناقشان الأمور، وتم وضع خطتهما بسرعة. يجب أن يتم التعرف إلى الجثة من قبل السيدة رينو وحدها، ولذلك ينبغي إبعاد جاك رينو والسائق (الذي قضى مع السيد رينو سنتين). لم يكن من المحتمل أن تقترب الخادمات الفرنسيات من الجثة، وعلى أية حال فقد أراد رينو اتخاذ إجراءات تكفل خداع أي امرئ لا ينتبه كثيراً للتفصيلات. وهكذا تم إرسال السائق ماسترز، وإرسال برقية إلى جاك تحدد له بيونوس أيريس هدفاً لرحلته، وذلك لتعطي مصداقية للقصة التي أراد رينو ترويجها. وبما أنه كان قد سمع بي باعتباري رجل تحرٍّ عجوزاً غامضاً بعض الشيء، فقد كتب إليّ طالباً المساعدة، وهو يعرف أن إظهاري للرسالة عندما أصل سيكون له تأثير عميق على قاضي التحقيق... وهو ما حدث بالفعل.

قام الاثنان بتلبيس جثة الشقي بدلة من بدلات رينو، وتركا

معطفه وبنطاله الباليين في صرة عند باب السقيفة إذ لم يجرؤا على أخذهما إلى البيت. ثم قاما بغرس الخنجر في قلبه لإعطاء مصداقية للقصة التي ستروبها السيدة رينو لاحقاً. وكان مقرراً أن يقوم السيد رينو في تلك الليلة بتقييد زوجته أولاً، ثم بأخذ رفش والنزول لحفر قبر في تلك البقعة بعينها التي يعرف السيد رينو أن حفرة اصطناعية ستحفر فيها لأغراض ملعب الغولف. ذلك أن من الضروري العثور على الجثة... إذ لا ينبغي أن تراود السيدة دوبريه أيةُ شكوك. ومن ناحية أخرى، فإذا ما تم مرور بعض الوقت فإن مخاطر التعرف إلى الجثة ستكون أقل. بعد ذلك سيعمد رينو إلى ارتداء ملابس الشقي البالية والإسراع إلى المحطة، حيث يغادر في قطار الثانية عشرة وعشر دقائق دون أن يلاحظه أحد. وبما أن الجريمة سيُفترض أنها حدثت بعد ساعتين من ذلك، فلا يمكن أن تحوم أية شكوك حوله.

وبذلك يمكنك أن تفهم سبب انزعاجه للزيارة غير المناسبة لتلك الفتاة بيلا؛ فقد كانت أية دقيقة تأخير شديدة الخطورة على خططه. لقد تخلص منها بأسرع ما يستطيع. وبعد ذلك، إلى العمل! ترك الباب الأمامي مفتوحاً قليلاً ليترك انطباعاً بأن القتلة فروا من ذلك الباب، ثم أوثق وكمم السيدة رينو، مُصححاً الخطأ الذي ارتكبه قبل اثنتين وعشرين سنة عندما أثار ارتخاء الحبال الشكوك في شريكته بالجريمة، ولكنه أعطاها نفس القصة التي ابتكرها قبل عشرين عاماً، ليثبت بذلك الارتداد اللاشعوري للعقل إلى النمطية وافتقاره إلى الإبداع. كانت الليلة باردة، وقد ارتدى على عجل معطفاً فوق ملابسه الداخلية بهدف إلقائه لاحقاً في القبر مع الجثة. ثم خرج من النافذة، وحرص على تسوية التربة خلفه، مقدماً بذلك أقوى دليل ضده. ثم

خرج إلى ملعب الغولف الموحش، وبدأ الحفر. وعندها...

- نعم؟

قال بوارو بتجهم: وعندها داهمته العدالة التي هرب منها كل هذه السنين؛ فقد طعنته يد مجهولة في ظهره... والآن فإنك تفهم يا هيستنغز ما الذي أعنيه عندما أتحدث عن جريمتين. إن الجريمة الأولى، الجريمة التي طلب منا السيد رينو بعنجهيته أن نحقق فيها قد حُلَّت. ولكن يكمن خلفها لغز أشد عمقاً، وسيكون من الصعب حل ذلك اللغز... ذلك أن المجرم -بحكمته- قد اكتفى بالاستفادة من الوسائل التي أعدها رينو. لقد كان حل هذا اللغز أمراً محيراً معقداً إلى أبعد الحدود.

قلتُ بإعجاب: إنك رائع يا بوارو... رائع جداً! ما كان لأحد غيرك أبداً أن يحل هذا اللغز!

أظن أن إطرائي قد سرّه، فقد بدا مُحرجاً لأول مرة في حياته. ثم قال محاولاً -دون نجاح- إظهار التواضع: يا لذلك المسكين جيرو! لا شك أن الأمر لم يكن غباء كله، فقد أصابه سوء الحظ مرة أو اثنتين. تلك الشعرة الملتفة على قبضة الخنجر مثلاً. أقَلُّ ما يقال عنها إنها كانت مضلّلة.

قلتُ بتمهل: الحقيقة يا بوارو أنني حتى الآن لا أستطيع أن أفهم... لمن كانت تلك الشعرة؟

- للسيدة رينو بالطبع، وهنا جاء دور سوء الحظ. إن شعرها الأسود أساساً قد غدا فضياً بمعظمه من الشيب، وكان الأرجح كثيراً

أن تكون الشعرة رمادية... وعندها ما كان جيرو ليبذل كل هذا الجهد ليقنع نفسه بأنها جاءت من رأس جاك رينو! ولكنها نفس الغلطة دائماً. إذ تُقلب دوماً أعناق الحقائق حتى تُناسب النظرية المُسبقة! لا شك أن السيدة رينو ستتكلم عندما تعود إلى وعيها. إن مسألة اتهام ابنها بالجريمة احتمال لم يخطر في بالها أبداً. وكيف يخطر لها ذلك وهي التي ظنت أنه مُبحر بأمان على متن السفينة أنزورا؟ آه، يا لها من امرأة يا هيستنغز! يا لقوتها ورباطة جأشها! لم تصدر عنها سوى زلة لسان واحدة، فعند عودة ابنها غير المتوقعة قالت: "لا يهم ذلك... الآن". ولم يلاحظ أحد... لم يلاحظ أحد أهمية تلك الكلمات. يا للدور الفظيع الذي كان عليها أن تلعبه المسكينة! تخيل مقدار الصدمة عندما ذهبت للتعرف إلى الجثة، وبدل أن ترى ما كانت تتوقعه رأت الجثة الفعلية لزوجها الذي ظنت أنه على بعد أميال وقتها. لا عجب أن يغمى عليها! ولكن منذ ذلك الحين لعبت دورها بكل تصميم، رغم ألمها ويأسها، ورغم العذاب الذي يعصر قلبها دون شك. إنها لا تستطيع قول كلمة واحد تضعنا على الطريق الصحيح لاكتشاف القتلة؛ فمن أجل ابنها يجب أن لا يعلم أحد أن بول رينو كان هو المجرم جورج كونو. وكانت الضربة الأخيرة والأقسى هي اعترافها على الملأ بأن السيدة دوبريه كانت عشيقة زوجها... ذلك أن أية إشارة إلى مسألة ابتزاز من شأنها أن تدمر سرها كله. انظر كيف تعاملت بذكاء بالغ مع قاضي التحقيق عندما سألها إن كان في حياة زوجها الماضية أي لغز، فقد قالت: "إنني واثقة من عدم وجود شيء رومانسي كهذا يا سيدي". كانت جملة في غاية البراعة، بنبرتها الحنونة، ومسحة السخرية الحزينة فيها. وقد شعر السيد هوتيه فوراً بأنه أحمق يميل إلى الميلودرامية. نعم، إنها امرأة

عظيمة! إذا ما أحبت مجرماً أحبته بإخلاص!

ثم غرق بوارو في تأملاته، فقلت: بقي أمر واحد فقط يا بوارو، ما شأن قطعة أنبوب الرصاص؟

- ألم تفهمها؟ كان القصد أن تُستخدم في تشويه وجه الضحية بحيث يصعب التعرف إلى هويته. كانت تلك القطعة هي التي وضعتني على بداية الطريق الصحيح، وذلك الأحمق جيرو، يزحف ويحوم حولها بحثاً عن بقايا أعواد الثقاب! ألم أقل لك أن الأهمية لا تتعلق بكبر حجم الدليل أو صغره؟ أترى يا هيستنغز، ينبغي أن نبدأ الآن من جديد: من الذي قتل السيد رينو؟ إنه شخص كان قريباً من الفيلا قبل الساعة الثانية عشرة من تلك الليلة، وهو شخص من شأنه الاستفادة من موته... وهذا الوصف ينطبق على جاك رينو كثيراً، وليس بالضرورة أن تكون الجريمة عن سابق تصور وإعداد. ولدينا الخنجر أيضاً!

حدقتُ إليه، إذ لم أكن قد فطنتُ لتلك النقطة، ولذلك قلت: بالطبع، لقد كان خنجر السيدة رينو هو الخنجر الثاني الذي وجدناه في جثة المتشرد. أيوجد إذن خنجران بالفعل؟

- بالتأكيد. وبما أنهما كانا نسختين متطابقتين فمن المنطقي أن يكون جاك رينو هو مالكهما. ولكن ذلك لا يحيرني كثيراً، والحقيقة أن لديّ فكرة صغيرة بالنسبة لهذا الأمر. كلا، إن أسوأ إدانة ضد جاك رينو هي بالأساس ذات منحى سيكولوجي... إنها الوراثة يا صديقي، الوراثة! ألا يُقال إن من شابه أباه فما ظلم؟ إن جاك رينو هو -في

نهاية المطاف- ابن جورج كونو.

كانت نبرته جدية متجهمة، وقد تأثرتُ بها رغماً عني. سألته: ما تلك الفكرة الصغيرة التي أشرتَ إليها قبل قليل؟

وبدلاً من الإجابة أخرج بوارو ساعته الضخمة فنظر إليها ثم سألني: متى ينطلق قارب بعد الظهر من كاليه؟

- أحسبه يغادر في نحو الخامسة.

- سيكون ذلك مناسباً تماماً... سيكون لدينا وقت كافٍ.

- أأنت ذاهب إلى إنكلترا؟

- نعم يا صديقي.

- لماذا؟

- لأعثر على... شاهدٍ مُحتمَل.

- من؟

أجاب بوارو بابتسامة غريبة ترتسم على وجهه: الآنسة بيلا دوفين.

- ولكن كيف ستجدها... ماذا تعرف عنها؟

- لا أعرف شيئاً عنها... ولكنني أستطيع تخمين الكثير. يمكننا أن نُسلّم جدلاً بأن اسمها هو بيلا دوفين بالفعل، وبما أن ذلك الاسم كان مألوفاً بعض الشيء للسيد ستونور -رغم أن الواضح أنه لم يكن مألوفاً باعتباره ذا صلة بأسرة رينو- فإن من المحتمل أن تكون الفتاة

من العاملات في المسرح. لقد كان جاك رينو شاباً في العشرين من عمره وتحت تصرفه الكثير من المال. من المؤكد أن المسرح هو مجال حبيبته الأولى، وهذا ينسجم أيضاً مع محاولة السيد رينو تهدئتها بكتابة شيك لها. أظنني سأجدها بالتأكيد... خاصة بمساعد هذه.

ثم أخرج الصورة التي كنت قد رأيته يأخذها من دُرج جاك رينو، وكان مكتوباً في زاويتها: "مع الحب من بيلا"، ولكن ذلك لم يكن الأمر الذي جعل عينيّ تتعلقان بالصورة كالمسحور. لم يكن الشبه كبيراً فحسب... بل لم يكن للخطأ فيه مجال. شعرت ببرودة تسري في جسمي وأحسست كأن صاعقة قد نزلت بي.

كان ذلك وجه سندريلا.

* * *

الفصل الثاني والعشرون

لقد وجدت الحب

جلست لدقيقة أو اثنتين كما لو كنتُ متجمداً، والصورة ما تزال في يدي، ثم استجمعتُ كل قواي لكي أبدو غير متأثر وأعدتُ الصورة لبوارو. وفي نفس الوقت استرقتُ نظرة عجلى عليه... هل لاحظ أي شيء؟ استرحت إذ بدا لي أنه لا يراقبني؛ لقد فاته بالتأكيد أي مؤشر غير طبيعي في سلوكي.

نهض واقفاً بخفة وقال: ليس لدينا وقتٌ نضيعه، يجب أن نغادر بكل سرعة. كل شيء على ما يرام... سيكون البحر هادئاً!

وفي غمرة استعجالنا في المغادرة لم يُتح لي الوقت للتفكير، ولكن ما أن أصبحتُ على متن المركب بعيداً عن ملاحظة بوارو حتى استجمعتُ شتات نفسي وبدأت أدرس الحقائق بكل تجرد. إلى أي مدى كان بوارو يعرف؟ ولماذا هو حريص على العثور على هذه الفتاة؟ هل يشك بأنها شاهدت جاك رينو وهو يرتكب الجريمة؟ أم أنه يشك... ولكن ذلك مستحيل! فلم تكن لدى الفتاة ضغينة على رينو الأب، وما من دافع ممكن يجعلها تتمنى له الموت. ما الذي جعلها

تعود إلى مسرح الجريمة؟ استرجعتُ الحقائق بدقة. لا بد أنها تركت القطار في كاليه عندما افترقنا في ذلك اليوم، ولا عجب -إذن- أنني لم أستطع العثور عليها في المركب. فإن كانت قد تغدّت في كاليه ثم استقلت القطار إلى ميرلينفيل، لكان من شأنها أن تصل إلى فيلا جينيفييف في نفس الوقت الذي ذكرته فرانسوا تقريباً موعداً لحضور الزائرة للسيد رينو. ما الذي فعلته بعد مغادرتها المنزل بعد الساعة العاشرة؟ إمّا أنها ذهبت إلى فندقٍ أو أنها عادت إلى كاليه. وبعدها؟ لقد ارتُكبت الجريمة ليلة الثلاثاء، وفي صباح الخميس كانت قد عادت مجدداً إلى ميرلينفيل. هل غادرت فرنسا قط؟ شككتُ في ذلك كثيراً. ما الذي أبقاها هناك... أهو الأمل برؤية جاك رينو؟ كنتُ قد قلتُ لها (كما كنا نظن وقتها) إن جاك رينو موجود في أعالي البحار في طريقه إلى بيونوس أيريس. ربما كانت تعرف أن السفينة أنزورا لم تُبحر، ولكن حتى تعرف ذلك لا بد أنها رأت جاك رينو. أكان ذلك ما يسعى إليه بوارو؟ هل حصل لجاك رينو العائد لرؤية مارتا دوبريه أن وجد نفسه بدل ذلك وجهاً لوجه مع بيلا دوفين، الفتاة التي رماها دون رحمة؟

بدأت الحقائق تتضح لي. إن كانت القضية فعلاً على ذلك النحو فإن ذلك يزوّد جاك رينو بحجة الغياب عن مسرح الجريمة، تلك الحجة التي يحتاجها كثيراً. ومع ذلك فقد بدا من الصعب في ظل تلك الظروف تفسير صمته. لماذا لم يتكلم بجرأة؟ هل خشي أن تصل أنباء علاقته السابقة تلك إلى أسماع مارتا دوبريه؟ هززتُ رأسي غير مقتنع بذلك؛ إذ لم تبدُ تلك العلاقة مسألة بالغة الخطورة، بل هي مجرد عبث شاب وفتاة، وفكرتُ -مُشككاً بالطبيعة البشرية- بأن

فتاة فرنسية مفلسة ليس من شأنها أن ترمي بابن مليونير تحبه دون وجود سبب أخطر بكثير.

عاد بوارو إلى الظهور لدى وصولنا ميناء دوفر وهو نشيط مبتسم، ومرت رحلتنا إلى لندن دون أحداث تُذكر، وكانت الساعة قد تجاوزت التاسعة ليلاً عندما وصلنا، وافترضتُ أننا سنعود مباشرة إلى بيتنا ولا نفعل شيئاً حتى الصباح. ولكن كانت لبوارو خطط أخرى.

- يجب أن لا نضيع وقتاً يا صديقي. إن خبر الاعتقال لن يُنشر في الصحف البريطانية حتى بعد غد، ولكن مع ذلك علينا أن لا نضيع وقتاً.

لم أستطع فهم طريقة تفكيره تماماً، ولكنني اكتفيت بأن سألته عن الكيفية التي ينوي من خلالها العثور على الفتاة فقال: أتذكر الوكيل المسرحي جوزيف أهارون؟ كلا؟ لقد ساعدتُه في قضية صغيرة تخص مصارعاً يابانياً. كانت قضية صغيرة ممتعة، لا بد أن أقصها عليك ذات يوم. سيكون بمقدوره -دون شك- أن يساعدنا في العثور على ما نبتغيه.

وقد تطلب منا العثور على السيد أهارون الكثير من الوقت، بحيث كان الليل قد انتصف عندما استطعنا أخيراً رؤيته. وقد حيا بوارو بكل حرارة، وأعلن كامل استعداده لخدمتنا بأية طريقة. قال وهو يبتسم بمودة: ليس يوجد الكثير في هذه المهنة مما لا أعرفه.

- حسناً يا سيد أهارون، إنني أرغب بالعثور على فتاة تُدعى بيلا دوفين.

- بيلا دوفين؟ أعرف الاسم، ولكنني لا أستطيع تذكر صاحبته الآن. ما هي طبيعة عملها؟

- هذا ما لا أعرفه... ولكن ها هي صورتها.

درس السيد أهارون الصورة للحظات، ثم تهلل وجهه وضرب على فخذه بيده قائلاً: عرفتها! إنها من فرقة «أطفال دولتشيبيلا» دون شك.

- «أطفال دولتشيبيلا»؟

- نعم. إنهما شقيقتان.. ترقصان وتغنيان وتقومان بألعاب بهلوانية. لقد قدمتا فقرات ناجحة تماماً. أظن أنهما في مكان ما في المحافظات إن لم تكونا في فترة راحة. لقد كانتا تقدمان عروضهما في باريس في الأسابيع الأخيرة.

- هل تستطيع أن تجد لي مكانهما بالضبط؟

- هذا سهل جداً. اذهب أنت إلى بيتك، وسأرسل لك الخبر صباحاً.

بهذا الوعد غادرناه. وقد أثبت أنه عند كلمته، ففي نحو الحادية عشرة من صباح اليوم التالي وصلتنا رسالة مكتوبة على عجل: «الأختان دولتشيبيلا تقدمان عروضهما في القصر في كوفنتري. حظاً سعيداً لكما».

انطلقنا قاصدين كوفنتري دون إضاعة وقت. ولم يقم بوارو بأية استفسارات في المسرح، بل اكتفى بحجز مقصورتين لمشاهدة

استعراض المنوعات في تلك الليلة.

كان العرض مملاً بشكل لا يوصف... أو ربما كان مزاجي هو الذي جعله يبدو كذلك؛ فقد تضمن فرقة يابانية يحاول أفرادها موازنة أنفسهم دون كبير نجاح، ورجالاً يرتدون بدلات سهرة خضراء اللون ويهذرون بكلام المجتمع الراقي بسرعة لدى تقديم فقراتهم، وكبيرة المغنيات السمينة تغني بأعلى نبرة يمكن لإنسان إطلاقها، وممثلاً كوميدياً يسعى لتمثيل دور السيد جورج روبي ويفشل في ذلك فشلاً ذريعاً.

وأخيراً أُعلن عن فقرة أطفال دولتشيبيلا. وقد خفق قلبي بألم؛ فها هي هناك... بل ها هما الشقيقتان كلاهما، إحداهما ذات شعر أشقر باهت والأخرى سمراء، وكانتا بنفس الطول. بدتا طفلتين رائعتين، وعندما بدأتا بالغناء كان صوتهما نضراً صادقاً جميلاً.

كانت فقرة جميلة حقاً. رقصتا بشكل رائع، وقامتا ببعض الحركات الأكروباتية الطريفة، وكانت كلمات أغانيهما جديدة سهلة الإيقاع. وعندما أُسدلت الستارة سُمع الكثير من التصفيق، وبدا واضحاً أن الفرقة تحظى بنجاح كبير.

فجأة أحسست بأنني لا أستطيع البقاء وأنني محتاج للخروج إلى الهواء الطلق. وقد قلت لبوارو إنني أفكر بالمغادرة فقال: اذهب يا صديقي، كما يحلو لك. إنني أمتع نفسي.. سأبقى حتى نهاية الاستعراض، وسألحق بك فيما بعد.

كانت المسافة بضع خطوات فقط من المسرح إلى الفندق. توجهتُ إلى صالة الجلوس وطلبتُ فنجاناً من الشاي جلست

أشربه وأنا أحدّق متأملاً إلى الموقد الفارغ أمامي. وسمعت الباب يُفتح فالتفتّ وأنا أظنه بوارو، ثم قفزتُ واقفاً، فقد كانت سندريلا هي التي تقف في مدخل الباب. تكلمتْ بتردد، وأنفاسها تخرج بشهقات صغيرة: لقد رأيتك في المقدمة. أنت وصديقك. وعندما نهضتَ لتذهب كنت أنتظر في الخارج وتبعتك. لماذا أنتما هنا... في كوفنتري؟ ما الذي كنتما تفعلانه هناك الليلة؟ هل الرجل الذي معك هو... رجل التحري؟

وقفَتْ هناك وقد بدا بياض وجنتيها تحت الأصباغ الحمراء، وسمعت نبرة الرعب في صوتها. وفي تلك اللحظة فهمتُ كل شيء... فهمتُ لماذا كان بوارو يبحث عنها، وما الذي تخشاه، وفهمتُ -في النهاية- قلبي...

قلت بلطف: نعم.

قالت بما يشبه الهمس: هل يبحث... عني؟

وعندما لم أجب للحظات جلسَتْ قرب الكرسي الكبير وانفجرت تبكي بحرقة ومرارة.

جلستُ بجانبها محاولاً التخفيف عنها وقلت: لا تبكي يا طفلتي، لا تبكي بالله عليك. أنت في مأمن هنا، وسوف أعتني بك. إنني أعرف... أعرف كل شيء.

- آه، أنت لا تعرف!

- أظنني أعرف.

ثم قلت بعد لحظات عندما هدأ نحيبها قليلاً: لقد كنتِ أنت من أخذ الخنجر، أليس كذلك؟

- بلى.

- ولذلك أردتِ أن أصحبك في جولة أريك فيها الأمور؟ ولذلك تصنّعت الإغماء؟

أومأت برأسها بالإيجاب فسألتها: لماذا أخذتِ الخنجر؟

أجابت ببساطة طفل: كنتُ خائفة من أن تكون عليه بصمات أصابع.

- ولكن ألم تتذكري أنك ارتديت قفازات؟

هزّت رأسها بحيرة ثم قالت ببطء: هل ستسلمني... للشرطة؟

- يا إلهي! كلا.

ركزت عينيها في عيني طويلاً ثم سألتْ بصوت هادئ ضعيف كأنه خائف من نفسه: لماذا؟

بدا مكاناً غريباً ووقتاً غريباً للبوح بالحب... ويعلم الله أنني لم أتصور في كل خيالاتي أن يأتيني الحب على هذه الهيئة. ولكنني أجبت بكل بساطة وطبيعية: لأنني أحبك يا سندريلا.

طأطأت رأسها وكأنها خجلة وتمتمت بصوت كسير: لا يمكنك ذلك... لا يمكنك، وخاصة إذا عرفتَ...

ثم عادت فواجهتني مباشرة وكأنها تستجمع قوتها وسألت: ما الذي تعرفه إذن؟

- أعرف أنك جئتِ لرؤية السيد رينو في تلك الليلة، وأنه عرض عليك شيكاً، وأنك مزقتِه بغضب، ثم غادرتِ المنزل...

توقفتُ قليلاً، فقالت: استمر... وماذا بعد ذلك؟

- لا أدري إن كنت تعلمين أن جاك رينو كان قادماً في تلك الليلة أم أنك انتظرت في الجوار على أمل رؤيته فقط، ولكنك انتظرت هناك. ربما كنت تشعرين بالتعاسة فمشيتِ على غير هدى... ولكنك على أية حال كنت ما تزالين هناك في نحو الساعة الثانية عشرة، ورأيتِ رجلاً في ملعب الغولف...

توقفتُ مرة أخرى. كنتُ قد قفزتُ لرؤية الحقيقة بلمحة بصر عندما دخلت الفتاة إلى الصالة، ولكن الصورة انتصبت أمامي الآن بشكل أكثر إقناعاً. رأيت بصورة حية النقشة الفريدة للمعطف الذي كان يغطي جثة السيد رينو، وتذكرتُ الشبه المدهش الذي أجفلني بحيث ظننتُ للحظة أن القتيل قد نهض من موته عندما اندفع ابنه إلى اجتماعنا في الصالة. كررت الفتاة بإصرار: استمر.

- يخيل لي أن ظهره كان باتجاهك... ولكنك ميّزتِه، أو حسبتِ أنك ميّزتِه؛ فقد كان أسلوب حركته وهيئته مألوفين لديك، بالإضافة إلى نقشة معطفه.

سكتُّ قليلاً ثم قلت: لقد لجأتِ إلى التهديد في إحدى رسائلك لجاك رينو. وعندما رأيتِه هناك جعلك الغضب والغيرة

تفقدين صوابك... فضربت ضربتك! لا أصدق للحظة واحدة أنك قصدتِ قتله، ولكنك قتلتِه بالفعل يا سندريلا.

كانت قد رفعت يديها لتغطي وجهها، وقالت بصوت مختنق: أنت على صواب، أنت على صواب... أستطيع رؤية الأمر كله كما تقوله.

ثم التفتت إليّ بشكل أقرب إلى الوحشية وقالت: وأنت تحبني؟ كيف تستطيع أن تحبني وأنت تعلم ما تعلم؟

قلتُ بشيء من التعب: لا أدري. أظن أن الحب كذلك... شيء لا يملك المرء دفعه. لقد حاولتُ، وكنت أعرف... منذ أن رأيتك أول مرة.

ثم انهارت فجأة مرة أخرى في وقت لم أكن أتوقعه أبداً. رمت نفسها على الأرض وأخذت تنتحب بشدة وهي تصيح: آه، لا أستطيع! لا أدري ماذا أفعل. لا أدري في أي اتجاه أذهب. آه، فليرحمني أحد ويقُل لي ماذا أفعل!

جلستُ ثانية بقربها أهدئها قدر استطاعتي: لا تخافي مني يا بيلا، بالله عليك لا تخافي مني. صحيح أنني أحبك، ولكنني لا أريد شيئاً مقابل ذلك. دعيني فقط أساعدك، واستمري في حبه إذا كنتِ تريدين ذلك، ولكن دعيني أساعدك إن لم يكن باستطاعته هو أن يساعدك.

بدا وكأنها قد تحولت إلى حجر بفعل كلماتي. رفعت وجهها من بين يديها وحدقت إلي ثم همست: أنت تظن ذلك؟ أتظن أنني

أحب جاك رينو؟ أبداً... ليس كما أحبك، ليس كما أحبك أبداً!

كانت تلك بالنسبة لي لحظات لا يمكن أن أنساها ما حييت! وفجأة سمعنا صوتاً عند الباب جعلنا نرفع ناظرينا، وكان بوارو واقفاً هناك ينظر إلينا. لم أتردد، وبقفزة واحد كنتُ عنده فأحطتُه بذراعيّ مثبتاً يديه إلى جنبيه وقلتُ للفتاة: بسرعة، اخرجي من هنا... بأسرع ما يمكنك... سأمسكه.

نظرت إليّ نظرة خاطفة ثم هرعت فعبرتنا وهي خارجة من الغرفة. كنت أمسك ببوارو بقبضة من حديد، ولكنه قال لي بهدوء: يا صديقي، إنك تتقن مثل هذا الأمر تماماً. يمسكني الرجل القوي بين ذراعيه فأغدو طفلاً لا حول له، ولكن هذا كله مؤلم وسخيف بعض الشيء... دعنا نجلس هادئين.

- ألن تلحق بها؟

- يا إلهي! لن أفعل بالطبع، وهل أنا جيرو؟ أطلقني يا صديقي.

أرخيت قبضتي عنه وأنا أنظر إليه بارتياب، فأنا أعترف لبوارو بأنه يعلم أنني لا أدانيه في سعة الحيلة. جلس على كرسي وهو يتحسس ذراعيه برفق وقال: إن لك قوة ثور يا هيستنغز عندما تنفعل! حسناً، هل تظن أنك أحسنت التصرف مع صديقك القديم؟ لقد أريتك صورة الفتاة وعرفتَها، ولكنك لم تقل كلمة واحدة.

قلتُ بشيء من المرارة: لم تكن بي حاجة إلى الكلام إن كنت تعرف أنني ميّزتُها.

لقد كان بوارو يعلم منذ البداية إذن! لم أخدعه للحظة واحدة. وأخيراً قال: آها! أنت لم تعرف أنني أعرف ذلك، وقد ساعدتَ الفتاة في الهروب الليلة بعد أن عانينا كل تلك المتاعب للعثور عليها. حسناً! لقد أصبح السؤال الآن هو التالي: هل ستعمل معي أم ضدي يا هيستنغز؟

لم أجبه للحظات؛ فقد كان يؤلمني كثيراً أن أنفصل عن صديقي القديم. ومع ذلك كان عليّ -بالتأكيد- أن أضع نفسي في مواجهته. وتساءلتُ: هل سيغفر لي قط؟ لقد كان هادئاً على نحو غريب حتى الآن، ولكنني أعرف أنه يمتلك رباطة جأش رائعة. قلتُ له: إنني آسف يا بوارو. أعترف بأنني أسأت التصرف معك في هذا الأمر، ولكن لا يكون أمام المرء خيار أحياناً، ويجب عليّ في المستقبل أن أختط لنفسي طريقاً خاصاً.

أومأ بوارو برأسه عدة مرات وقال: أفهم.

كانت التماعة السخرية قد تلاشت تماماً من عينيه، وتحدث بصدق ولطف أدهشاني: الأمر هكذا إذن يا صديقي، أليس كذلك؟ إنه الحب الذي أتى... ليس كما تصورته أنت، لم يأتِك منتشياً فخوراً نافشاً ريشه، بل حزيناً دامي القدمين. حسناً، حسناً... لقد حذّرتُك. حذرتك عندما أدركتُ أن هذه الفتاة هي التي أخذت الخنجر، وربما تذكر ذلك، ولكن كان الوقتُ قد فات حتى في ذلك الحين. ولكن قل لي، ما هو مدى ما تعرفه أنت؟

واجهتُ عينيه بقوة وقلت: لا يمكن لأي شيء تقوله لي أن يفاجئني يا بوارو... يحسن أن تفهم ذلك. ولكن إذا ما كنت تريد

استئناف بحثك عن الآنسة دوفين فإنني أحب أن تعلم شيئاً واحداً بوضوح. إن كانت لديك أية فكرة تقول إن لها أية علاقة بالجريمة، أو أنها كانت الفتاة الغامضة التي زارت السيد رينو في تلك الليلة فأنت مخطئ. لقد عدتُ معها من فرنسا إلى إنكلترا في ذلك اليوم، وافترقت عنها في محطة فيكتوريا هنا في تلك الليلة، ولذلك فمن الواضح أنه يستحيل عليها أن تكون في ميرلينفيل.

نظر بوارو إليّ بتأمل وقال: وهل تُقسم على ذلك في المحكمة؟

- من شأني أن أقسم بالتأكيد.

وقف بوارو وانحنى لي قائلاً: يا صديقي... عاش الحب؛ فهو يأتي بالمعجزات. إنه يهزم حتى هيركيول بوارو!

* * *

الفصل الثالث والعشرون

مصاعب في انتظارنا

بعد دقائق من التوتر كهذه التي وصفتها لا بد لرد الفعل أن يحدث. أويتُ إلى غرفتي للراحة في تلك الليلة وأنا أشعر بشيء من الانتصار، ولكني استيقظتُ لأدرك أنني لم أخرج من المعمعة بعد. والحقيقة أنني لم أرَ عيباً في عذر الغياب الذي ابتكرته فجأة للفتاة. ما كان عليّ إلاّ أن أتمسك بروايتي، ولم أستطع رؤية طريقة يمكن من خلالها إدانة بيلا. ولكنني شعرت بالحاجة إلى السير بحذر؛ فبوارو لن يتقبل الهزيمة مكتوف اليدين، وسيسعى -بطريقة أو بأخرى- إلى قلب الموائد في وجهي في اللحظة والطريقة اللتين لا أتوقعهما أبداً.

تقابلنا على الإفطار في صباح اليوم التالي وكأن شيئاً لم يحدث. كان مزاج بوارو اللطيف بالغ الهدوء، ومع ذلك ظننتُ أنني لمحت أثراً للتحفظ كان جديداً في سلوكه. وبعد الإفطار أعلنت عن رغبتي في الخروج للمشي. التمعت ومضة خبيثة في عيني بوارو وقال: إن كان ما تسعى إليه هو المعلومات فلا حاجة لأن تتعب نفسك؛ إذ

أنني أستطيع إخبارك بكل ما تريد. لقد ألغت الشقيقتان دولتشيبيلا عقدهما وغادرتا كوفنتري إلى جهة مجهولة.

- أهذا صحيح فعلاً يا بوارو؟

- يمكنك الاعتماد على ما أقوله يا هيستنغز. لقد تحريت عن ذلك منذ صباح اليوم الباكر، وإلاّ فما الذي تتوقعه مني؟

صحيح تماماً، لا يمكن توقع أي إجراء آخر في مثل هذه الظروف. لقد استفادت سندريلا من الفرصة البسيطة التي استطعتُ منحها لها، ومن المؤكد أنها ما كانت لتضيع دقيقة واحدة قبل الابتعاد عمّن يتعقبها، وكان ذلك هو ما قصدتُه وخططتُ له.

ومع ذلك كنت أحس وكأنني وقعت في شبكة من المصاعب الجديدة؛ فليست لديّ -على الإطلاق- أية وسائل للاتصال بالفتاة، وكان من الحيوي أن تعرف خط الدفاع الذي خطر لي اعتماده لحمايتها والذي كنت مصراً على المضي فيه. كان ممكناً بالطبع أن ترسل لي خبراً بطريقة أو بأخرى، ولكنني لم أكد أرجح ذلك، فمن شأنها أن تعرف المجازفة التي يمكن أن تتعرض لها إذا ما وقعت رسالتها بين يدي بوارو، مما يجعله يسعى خلفها من جديد. ومن الواضح أن الطريق الوحيد أمامها كان الاختفاء تماماً في الوقت الحاضر.

ولكن ما الذي كان بوارو يفعله في غضون ذلك؟ حدقت إليه أدرسه بإمعان: كان يبدو بأكثر أشكاله براءةً وينظر متأملاً إلى الأفق البعيد. بدا -إجمالاً- أهدأ وأكسل من أن أطمئن له؛ فقد تعلمت في بوارو أنه كلما بدا أقل خطراً كان في الحقيقة في أشد حالات خطورته، وقد أخافتني سكينته. ابتسم بلطف وهو يلاحظ شيئاً من

القلق في نظرتي وقال: أأنت متحير يا هيستنغز؟ إنك تسأل نفسك لماذا لم أندفع للمطاردة؟

- شيء من هذا القبيل.

- كان هذا ما ستفعله لو كنتَ في مكاني... أفهم ذلك. أما أنا فلست من أولئك الذين يجدون متعة في قطع البلاد طولاً وعرضاً بحثاً عن إبرة في كومة قش (كما تقولون معشر الإنكليز). كلا، دع الآنسة بيلا دوفين تذهب. لا شك أنني سأستطيع العثور عليها عندما يأتي الوقت، وحتى ذلك الحين فإنني مقتنع بالانتظار.

نظرت إليه بارتياب. هل يسعى إلى تضليلي؟ كان لدي شعور مزعج بأنه سيد الموقف حتى في هذا الوقت. كان شعوري بالتفوق يذوي تدريجياً. لقد ابتكرت صيغة هروب الفتاة، وطورت خطة ذكية لإنقاذها من عواقب تصرفها المندفع... ولكنني لم أستطع أن أجلس مرتاح البال. إن هدوء بوارو الكامل يثير مئات المخاوف. قلتُ بشيء من الخجل: لا أحسب يا بوارو أن بوسعي سؤالك عن خططك؛ إذ أنني فقدتُ الحق في ذلك.

- أبداً، أبداً، ليس في خططي أية أسرار. سنعود إلى فرنسا دون تأخير.

- نعود؟

- نعم، بالضبط... «نعود»! أنت تعرف تمام المعرفة أنك لا تستطيع ترك «بابا بوارو» بعيداً عن ناظريك. أليس الأمر كذلك يا صديقي؟ ولكن ابقَ في إنكلترا إن كنتَ ترغب بذلك...

هززتُ رأسي بالنفي. كان قد أصاب كبد الحقيقة؛ فأنا لا أستطيع تركه بعيداً عن عينيّ. ومع أنني لا يمكن أن أتوقع منه الثقة بعد كل ما حدث، إلاّ أنني ما زلت أستطيع مراقبة تصرفاته. إن الخطر الوحيد على بيلا يكمن فيه هو؛ إذ لم يكن جيرو ولا الشرطة الفرنسية مهتمين بها، ولذلك ينبغي أن أبقى قرب بوارو مهما كلفني ذلك.

راقبني بوارو بانتباه فيما كانت هذه الأفكار تجول في خاطري، ثم أومأ لي برضا وقال: أنا على صواب، أليس كذلك؟ وطالما أنك قادر على محاولة اللحاق بي متنكراً بشيء سخيف، من قبيل لحيةٍ مزيفة يمكن للجميع كشفها، فإنني أفضّل كثيراً أن نسافر معاً؛ إذ يزعجني كثيراً أن يتناولك الناس بالسخرية.

- حسناً إذن. ولكن من الإنصاف أن أحذّرك...

- أعرف... أعرف كل شيء. أنت خصمي! فلتكن خصمي، فذلك لا يقلقني أبداً.

- حسناً، طالما أن الأمر كله واضح ومكشوف فلا مانع عندي.

- إن لديك كل ذلك التعلق الإنكليزي بما يُسمّى: «اللعب النظيف»! وما دام كل وازع لديك تم إرضاؤه الآن، فلنغادر على الفور. لا وقت لدينا نضيعه. لقد كانت إقامتنا في إنكلترا قصيرة ولكنها كافية، فقد عرفتُ... ما أردتُ معرفته.

كانت نبرته خفيفة عرضية، ولكنني أحسستُ في الكلمات

بخطر كامن خفي. بدأت أقول: ومع ذلك...

ولكنني توقفت، فقال بوارو: ومع ذلك... على حد قولك! لا شك أنك مقتنع بالدور الذي تلعبه، أما أنا فأشغل نفسي بجاك رينو.

جاك رينو! أجفلتني كلماته. كنت قد نسيت تماماً ذلك الجانب من القضية، فجاك رينو في السجن وظل المقصلة يحوم حوله. رأيت الدور الذي ألعبه بمنظار أكثر شراً. صحيح أن بوسعي إنقاذ بيلا... ولكني حين أنقذها أجازف بإرسال رجل بريء إلى حتفه.

دفعت الفكرة عن رأسي مرتعباً. لا يمكن لذلك أن يحدث، فسوف تتم تبرئته. ستتم تبرئته بالتأكيد. ولكن الخوف عاودني مرة أخرى: ماذا لو لم يُبرأ؟ ما الذي يحدث عندها؟ هل يستطيع ضميري تحمل ذلك... فكرة مرعبة! هل سيصل الأمر إلى هذا الحد في النهاية؟ إلى ضرورة اتخاذ قرار: بيلا أم جاك رينو؟ لقد كانت دوافع قلبي تحثني على إنقاذها مهما كلفني ذلك، ولكن إن كانت الكلفة ستقع على شخص آخر فتلك مشكلة مختلفة.

ما الذي يمكن للفتاة نفسها أن تقوله؟ تذكرتُ أنني لم أقل لها شيئاً عن اعتقال جاك رينو. لقد كانت حتى الآن جاهلة تماماً بحقيقة أن صاحبها السابق في السجن بتهمة ارتكاب جريمة رهيبة لم يرتكبها. كيف ستتصرف عندما تعلم؟ هل ستسمح بأن يتم إنقاذ حياتها على حساب حياته؟ من المؤكد أن عليها أن لا تُقدم على أي تصرف متسرع، فربما تمت تبرئة جاك رينو دون أي تدخل منها، بل هناك احتمال لا بأس به في ذلك. فإذا ما تمت تبرئته كان ذلك جيداً. ولكن

ماذا لو لم يُبرأ! كان ذلك هو السؤال الفظيع الذي لا إجابة له. تخيلتُ أنها لن تتعرض عندئذ للعقوبة القصوى، فظروف الجريمة مختلفة تماماً في حالتها. يمكنها أن تطرح مسألة الغيرة والاستفزاز الشديد، وسيشفع لها شبابها وجمالها بعض الشيء. ولن تغيّر من دافع الجريمة شيئاً حقيقةُ أن ذلك الخطأ المأساوي قد جعل السيد رينو هو الذي يدفع الثمن، وليس ابنه. ولكن في كل الأحوال، ومهما كان الحكم رحيماً، فلا بد أن ينطوي على قضاء فترة طويلة في السجن.

كلا، ينبغي أن تتم حماية بيلا. وفي نفس الوقت يجب إنقاذ جاك رينو. لم أرَ بوضوح كيفية تحقيق ذلك، ولكنني وضعتُ ثقتي ببوارو. فقد عرف، ومهما حصل فسيكون بمقدوره إنقاذ رجل بريء. يجب عليه أن يجد عُذراً ما غير العذر الحقيقي. قد يكون ذلك صعباً، ولكنه سيتدبر الأمر بطريقة ما. وبإبقاء الشكوك بعيدة عن بيلا، وبتبرئة جاك رينو، يكون كل شيء قد انتهى على نحو مُرضٍ.

هكذا كنتُ أقول لنفسي مراراً وتكراراً، ولكن الخوف بقي مستقراً في قرارة نفسي.

* * *

الفصل الرابع والعشرون

«أنقذه!»

عبرنا القنال من إنكلترا في مركب المساء، وفي صباح اليوم التالي كنا في سانت أومير حيث تم أخذ جاك رينو. ولم يضيع بوارو وقتاً قبل أن يعمد إلى زيارة السيد هوتيه. وبما أنه لم يَبدُ في مزاجٍ يثير فيه أي اعتراض على مصاحبتي له، فقد قمتُ بمرافقته. وبعد الكثير من الرسميات والمقدمات جاء من قادنا إلى غرفة قاضي التحقيق. وقد حيانا الرجل بكل ودٍ ثم قال: قيل لي إنك عدتَ إلى إنكلترا يا سيد بوارو، ويسعدني أن الأمر لم يكن كذلك.

- بل لقد ذهبتُ إلى هناك بالفعل يا سيدي، ولكنها كانت زيارة قصيرة جداً... مجرد مسألة جانبية تخيلت أنها قد تستحق التحقيق فيها.

- وهل وجدتَها كذلك؟

رفع بوارو كتفيه، فيما أومأ القاضي برأسه وتنهد قائلاً: أخشى أن علينا أن نستسلم يا سيد بوارو. إن ذلك الحيوان جيرو ذو أخلاق

كريهة جداً، ولكنه ذكي دون شك! ليست الفرصة كبيرة في أن يكون مخطئاً.

- أتظن ذلك؟

جاء دور قاضي التحقيق ليرفع كتفيه حيرة ويقول: حسناً، لنتحدث بصراحة (والأمر بيننا بالطبع): هل تستطيع التوصل إلى أية نتائج أخرى؟

- بصراحة، يبدو لي أنه توجد كثير من النقاط الغامضة.

- مثل...؟

ولكن لم يكن بوارو ليُجَرّ إلى الحديث، فقد قال: لم أنظمها بعد، كان ما قلته مجرد انطباع عام. لقد أعجبني ذلك الشاب، وسوف يؤسفني أن أصدّق أنه مذنب في مثل هذه الجريمة المروعة. وبالمناسبة، ماذا يقول الفتى دفاعاً عن نفسه؟

عبس القاضي وقال: لا أستطيع فهمه؛ إنه يبدو غير قادر على صياغة أي دفاع عن نفسه. كان من الصعب جداً انتزاع إجابات منه، فقد اكتفى بالإنكار العام، وفيما عدا ذلك كان يلجأ إلى الصمت العنيد. سوف أحقق معه ثانية غداً إن كنتَ تحب الحضور.

قبلنا دعوته بحماسة فيما قال وهو يتنهد: يا لها من قضية مؤلمة! إن تعاطفي كبير مع السيدة رينو.

- وكيف هي السيدة رينو؟

- لم تعد إلى وعيها بعد. وفي ذلك شيء من النعمة على المرأة

المسكينة، فقد وفّر عليها ذلك الكثيرَ من المعاناة. يقول الأطباء إنه لا خطر عليها، وإنها عندما تستفيق يجب أن تبقى في هدوء تام. وقد فهمتُ أن تأثير الصدمة على حالتها الراهنة لم يكن بأقل من تأثير وقوعها عن الدرج. سيكون أمراً فظيعاً إن أصاب عقلها شيء، ولكنني لن أستغرب ذلك... كلا، لن أستغربه أبداً.

استند السيد هوتيه إلى ظهر كرسيه يهزّ رأسه بشيء من الأسف وهو يتخيل ذلك المصير، ثم ما لبث أن اعتدل في جلسته وقال بشكل مفاجئ: لقد تذكرت. لديّ هنا رسالة لك يا سيد بوارو. دعني أرى، اين وضعتُها؟

بحث بين أوراقه حتى وجدها أخيراً فسلمها لبوارو قائلاً: لقد أُرسِلت إليّ بشكل سري لأسلمها لك، ولكنني لم أستطع ذلك لأنك لم تترك عنوانك.

فحص بوارو الرسالة بإمعان. كان عنوانه مكتوباً بخط طويل مائل أجنبي الشكل، وكان خط امرأة بالتأكيد. ولكن بوارو لم يفتحها، بل وضعها في جيبه ونهض واقفاً وقال: نراك غداً إذن. شكراً جزيلاً على لطفك وكرمك.

- عفواً يا سيدي، إنني تحت تصرفك دائماً.

كنا نغادر المبنى عندما تقابلنا وجهاً لوجه مع جيرو، وقد بدا مُهندَماً أكثر من أي وقت مضى، مسروراً بنفسه كثيراً. صاح بشكل مصطنع: مرحباً! لقد عدتَ من إنكلترا إذن؟

- كما ترى.

- يخيل لي أن نهاية القضية لم تعد بعيدة.

- أنا أتفق معك يا سيد جيرو.

كان بوارو يتكلم بنبرة ضعيفة، ويبدو أن سمته الذاهل قد سرّ جيرو الذي قال: من بين كل المجرمين التافهين يأتينا هذا الفتى! ليس لديه أية فكرة يدافع بها عن نفسه.

قال بوارو بهدوء: هذا غريب جداً إلى حدٍّ يجعل المرء يفكر، أليس كذلك؟

ولكن جيرو لم يكن مستعداً للإصغاء؛ فقد أدار عصاه بشيء من المرح وقال: حسناً، طاب يومك يا سيد بوارو. يسرني أنك مقتنع أخيراً بذنب الشاب رينو.

- عفواً، ولكني لست مقتنعاً أبداً بذلك. إن جاك رينو بريء.

حدق جيرو إليه للحظة، ثم انفجر ضاحكاً ونقر على رأسه بشكل ذي مغزى وقال باقتضاب: مُختَل!

انتصب بوارو فجأة والتمع في عينيه بريق خطير وقال: سيد جيرو، طوال القضية كان سلوكك معي مُهيناً بشكل متعمد، وأنت بحاجة إلى من يعلمك درساً. إنني مستعد لمراهنتك بخمسمئة فرنك على أنني سأجد قاتل السيد رينو قبل أن تجده أنت. هل توافق على ذلك؟

نظر جيرو إليه يائساً، ثم تمتم ثانية: مختل!

حثّه بوارو قائلاً: هيا الآن، هل أنت موافق؟

- لا أرغب بأخذ أموالك منك.

- فليطمئن بالك... أنت لن تأخذها!

- حسناً إذن، موافق! لقد تحدثتَ عن سلوكي المهين معك، ولكن كان سلوكك أنت مزعجاً لي في مرة أو مرتين.

- يطيب لي أن أسمع ذلك. طاب صباحك يا سيد جيرو. هيا يا هيستنغز.

لم أقل كلمة واحدة ونحن نسير في الشارع. كان قلبي مثقلاً بالهموم؛ فقد أظهر بوارو نواياه بكل وضوح. وشككتُ أكثر من أي وقتٍ مضى في قدرتي على إنقاذ بيلا من عواقب تصرفها. لقد أثارت بوارو هذه المقابلة المؤسفة مع جيرو وجعلته يُستفَزّ بحيث يبذل كل ما في وسعه.

فجأة شعرتُ بيد تستقر على كتفي، والتفتُّ فإذا به غابرييل ستونور. توقفنا وسلّمنا عليه، واقترح علينا أن يمشي معنا حتى الفندق الذي نقيم فيه. سأله بوارو: وماذا تفعل هنا يا سيد ستونور؟

أجاب الرجل ببرود: على المرء أن يقف إلى جانب أصدقائه، خاصة عندما يُتهمون ظلماً.

سألتُه بلهفة: أنت لا تصدق إذن أن جاك رينو ارتكب الجريمة؟

- لا أصدق ذلك بالتأكيد؛ فأنا أعرف الفتى. أنا أعترف بأن في هذه القضية أمراً أو اثنين قد حيراني أشد الحيرة، ولكن مع ذلك، ورغم طريقته الحمقاء في التصرف، فإنني لن أصدق أبداً أن جاك رينو قاتل.

امتلأ قلبي إعجاباً بالسكرتير، وبدا أن كلماته قد أزاحت عن قلبي عبئاً سرياً ثقيلاً، فهتفتُ قائلاً: لا شك لديّ بأن كثيراً من الناس يشعرون كما تشعر. إن الأدلة ضده ضعيفة إلى حد السُخف، ولا أظن أن في تبرئته شكاً... لا شك في ذلك أبداً.

ولكن جواب ستونور لم يكن كما تمنيته أن يكون، فقد قال بتجهم: إنني مستعد لبذل الكثير حتى أفكر كما تفكرُ أنت.

ثم التفت إلى بوارو وقال: ما رأيك يا سيدي؟

قال بوارو بهدوء: أظن أن الأمور تبدو سيئة جداً بالنسبة له.

قال ستونور بحدة: أترى أنه مذنب؟

- لا، ولكني أحسب أنه سيجد صعوبة في إثبات براءته.

دمدم ستونور قائلاً: إنه يتصرف بشكل غريب. أنا أدرك طبعاً أن في هذه القضية أشياء أعمق بكثير مما تراه عين المرء. جيرو لا يدرك ذلك لأنه غريب، ولكن الأمر كله كان في غاية الغرابة. وبالنسبة لهذا الأمر فإن من قلّ كلامه سَهُل إصلاح خطئه. إن كانت السيدة رينو تريد طيّ أيّ موضوع وإخفاءه فإنني سآخذ أوامري منها. القضية قضيتها، وأنا أُكِنُّ احتراماً بالغاً لأحكامها بحيث لا أتدخل في الأمر، ولكنني لا أستطيع فهم موقف جاك. من شأن أي امرئ أن يظن أنه يريد أن يظهر بمظهر المذنب.

تدخلتُ صائحاً: ولكن هذا سخيف؛ فلدينا أولاً الخنجر...

توقفتُ غيرَ واثقٍ من المدى الذي يرغب بوارو بكشفه، ثم

أكملتُ وأنا أختار كلماتي بعناية: نحن نعرف أن الخنجر ما كان بالإمكان أن يكون بحوزة جاك رينو في تلك الليلة، والسيدة رينو تعرف ذلك.

قال ستونور: صحيح، وعندما تصحو فلا شك أنها ستقول كل ذلك وأكثر. حسناً، يجب أن أغادر الآن.

استوقفه بوارو قائلاً: لحظة. هل يمكنك أن ترتب لي الأمر بحيث يأتيني الخبر فور استرداد السيدة رينو لوعيها؟

- بالتأكيد، هذا أمر سهل.

قلتُ وأنا أصعد الدرج مع بوارو: إن تلك النقطة بخصوص الخنجر جيدة يا بوارو. لم أستطع الكلام بصراحة أمام ستونور.

- كان ذلك تصرفاً صحيحاً منك؛ من الأفضل أن نحتفظ بما نعرفه لأنفسنا أطول فترة ممكنة. أما بالنسبة للخنجر فإن نقطتك لا تكاد تفيد جاك رينو. هل تذكر أنني تغيبت لمدة ساعة هذا الصباح قبل أن ننطلق من لندن؟

- نعم.

- لقد حاولتُ العثور على الشركة التي استخدمها جاك رينو لتصنع له تلك الهدية، ولم يكن الأمر صعباً. حسناً يا هيستنغز، أتعلم أنهم صنعوا له ثلاث سكاكين لفتح المغلفات، وليس اثنتين؟

- وذلك يعني...

- وذلك يعني أنه أعطى واحدة لأمه وواحدة لبيلا دوفين ولا شك أنه احتفظ بالثالثة لاستخدامه الخاص. كلا يا هيستنغز،

أخشى أن لا تساعدنا قصة الخنجر تلك في إنقاذه من المقصلة.

صحتُ وقد صُعقت: ولكن لن يصل الأمر إلى المقصلة.

هزّ بوارو رأسه بشيء من عدم اليقين، فقلت له مؤكداً: "أنت ستنقذه"، ولكنه نظر إليّ ببرود وقال: ألم تعتبر ذلك مستحيلاً يا صديقي؟

- لا بد من وجود طريقة أخرى.

- آه، أنت تطلب مني القيام بالمعجزات. كلا... لا تقل المزيد. دعنا -بدل ذلك- ننظر ماذا في هذه الرسالة.

أخرج المغلف من جيب صدره. تشنّج وجهه وهو يقرأ، ثم أعطاني الورقة قائلاً: في هذا العالم نساء أخريات يتعذبن يا هيستنغز.

كانت الكتابة غير واضحة، وبدا جلياً أن الرسالة قد كُتبت في حالة انفعال شديد:

عزيزي السيد بوارو،

إذا استلمتَ هذه الرسالة فإنني أرجوك أن تأتي لمساعدتي. ليس لديّ مَن ألجأ إليه، وينبغي إنقاذ جاك مهما كانت التكاليف. إنني أتوسل إليك راكعة على ركبتيّ أن تساعدنا.

مارتا دوبريه

أعدتُ الرسالة متأثراً وقلت: هل ستذهب؟

- على الفور. سوف نطلب سيارة أجرة.

بعد نصف ساعة كنا في فيلا مارغريت. كانت مارتا تقف على الباب لاستقبالنا، وقد دخلت مع بوارو وهي تتعلق بيده بكلتا يديها. قالت: آه، لقد أتيت... هذا لطف منك. لقد كنت يائسة لا أعرف ماذا أفعل. إنهم لا يسمحون لي حتى بزيارته في السجن، وأنا أعاني معاناة رهيبة، بل أكاد أُجن. هل صحيح ما يقولونه من أنه لا ينكر الجريمة؟ ولكن هذا جنون. من المستحيل أن يكون ارتكبها.. لن أصدق ذلك لحظة واحدة!

قال بوارو بلطف: وأنا أيضاً لا أصدّق ذلك يا آنسة.

- ولكن لماذا لا يتكلم إذن؟ لا أفهم ذلك.

قال بوارو وهو يراقبها: ربما لأنه يتستر على أحد.

عبست مارتا وقالت: يتستر على أحد؟ أتعني أمه؟ آه، لقد ارتبتُ بها منذ البداية. من الذي يرث كل تلك الثروة الهائلة؟ هي التي ترثها. من السهل ارتداء ثياب الأرامل ولعب دور المنافقين. ويقولون إنها قد سقطت عندما اعتقلوه هكذا!

ثم قامت بحركة تقليد مثيرة، وأضافت: ولا شك أن السيد ستونور قد ساعدها؛ فبين هذين الاثنين علاقة وطيدة. صحيح أنها أكبر منه، ولكن ما يهم الرجال من ذلك إذا كانت المرأة غنية!

كان في نبرتها أثر للمرارة. وتدخلتُ قائلاً: لقد كان ستونور في إنكلترا.

- هو يقول ذلك، ولكن من يدري؟

قال بوارو بهدوء: يا آنسة، إن كان لنا أن نعمل معاً أنا وأنت

فيجب أن نوضّح الأمور، وسأسألك في البداية سؤالاً.

- ما هو يا سيدي؟

- هل تعرفين الاسم الحقيقي لأمك؟

حدقت مارتا إليه لدقيقة، ثم دفنت رأسها بين يديها وانفجرت باكية. قال بوارو وهو يربت على كتفها: هيا، هيا، هدئي من روعك يا صغيرتي، أرى أنك تعرفين. بقي الآن سؤال آخر: هل تعرفين من كان السيد رينو؟

رفعت رأسها ونظرت إليه متسائلة: السيد رينو؟

- آه، أرى أنك لا تعرفين ذلك. حسناً، استمعي إليّ جيداً.

استعرض أمامها القضية خطوة خطوة، تماماً كما فعل معي في اليوم الذي سبق مغادرتنا إلى إنكلترا، وقد أصغت مارتا مسحورة. وعندما انتهى سحبت نفساً عميقاً وقالت: أنت رائع... هائل! أنت أعظم رجل تحرٍّ في العالم.

وبحركة سريعة انزلقت عن كرسيها وركعت أمامه بتلقائية فرنسية بحتة، وصاحت: أنقذه يا سيدي. إنني أحبه كثيراً. آه، أنقذه، أنقذه... أنقذه!

* * *

الفصل الخامس والعشرون
كشف غير متوقع

كنا حاضرين في صباح اليوم التالي للتحقيق مع جاك رينو. ورغم أن الوقت الذي انقضى على اعتقاله كان قصيراً، إلاّ أنني صُدمتُ للتغير الذي طرأ على السجين الشاب. كانت وجنتاه قد انكمشتا وظهرت حول عينيه دوائر سوداء عميقة، وبدا مضنى شارداً، كما لو أنه حاول النوم ولم يستطعه لعدة أيام، ولم يُبدِ أي عواطف لدى رؤيتنا. بدأ القاضي تحقيقه قائلاً: رينو، هل تنكر أنك كنتَ في ميرلينفيل ليلة الجريمة؟

لم يُجب جاك على الفور، ثم قال بتردد يثير الشفقة: لقد... لقد... قلت لكم إنني كنتُ في تشيربورغ.

التفت القاضي بحدة وقال: أدخلوا شهود المحطة.

وما هي إلاّ لحظات حتى انفتح الباب وأُدخل رجلٌ عرفتُ فيه الحمال في محطة ميرلينفيل. سأله القاضي: أكنت في عملك ليلة السابع من حزيران؟

- نعم يا سيدي.

- وهل شهدتَ وصول قطار الساعة الثانية عشرة إلاّ ثلثاً؟

- نعم يا سيدي.

- انظر إلى السجين هنا. هل تميّزه كواحد من الذين نزلوا من القطار وقتها؟

- نعم يا سيدي.

- ألا يوجد احتمالٌ في أن تكون مخطئاً؟

- أبداً يا سيدي، فأنا أعرف السيد جاك رينو جيداً.

- هل يوجد احتمال في أن تكون مخطئاً في التاريخ؟

- لا يا سيدي؛ لأن سماعنا بالجريمة كان في اليوم التالي، الثامن من حزيران.

تمّ إدخال موظف آخر يعمل في محطة القطارات، وقد أكد شهادة صاحبه. نظر القاضي إلى جاك رينو وقال: لقد أكد هذان الرجلان تعرّفهما إليك، فما تقول في ذلك؟

رفع جاك كتفيه وقال: لا شيء.

- رينو، هل تعرف هذا؟

أخذ القاضي شيئاً عن الطاولة إلى جانبه ورفعه أمام السجين، وقد ارتعدتُ إذ رأيت أنه الخنجر المصنوع من بقايا الطائرات.

صاح مستشار جاك، المحامي غروسييه، قائلاً: عفواً. إنني أطلب الحديث مع موكلي قبل أن يجيب عن هذا السؤال.

ولكن لم يكن لدى جاك رينو اعتبار لمشاعر غروسييه التعِس، فقد نحّاه جانباً بإشارة من يده وأجاب بهدوء: أعرفه بالتأكيد؛ إنه هدية أعطيتها لأمي كذكرى من أيام الحرب.

- هل توجد -حسب معلوماتك- أية نسخ لهذا الخنجر؟

انفجر المحامي غروسييه مرة أخرى، ومرة أخرى تجاهله جاك وقال: لا أعرف وجود نسخ له؛ لقد كان من تصميمي أنا.

وحتى القاضي كاد يشهق لجرأة الجواب. بدا جاك فعلاً وكأنه يندفع إلى حتفه، وقد أدركتُ طبعاً ما كان يُحس به من ضرورة قصوى لإخفاء حقيقة وجود نسخة أخرى من الخنجر في القضية، وذلك من أجل بيلا. إذ طالما أن الافتراض السائد هو وجود سلاح واحد، فلن تحوم الشكوك حول الفتاة التي تحتفظ بالنسخة الثانية للخنجر. لقد كان يتستر بشهامة على المرأة التي سبق له أن أحبها، ولكن كم كان ذلك سيكلفه! بدأت أدرك عظمة المهمة التي أسندتُها إلى بوارو بكثير من الاستخفاف؛ إذ لن يكون سهلاً ضمان تبرئة جاك رينو بأي تبرير سوى قول الحقيقة.

تكلم السيد هوتيه ثانية بنبرة لاسعة جداً: لقد أخبرتْنا السيدة رينو بأن هذا الخنجر كان على طاولة زينتها ليلة الجريمة، ولكن السيدة رينو أم! سيدهشك الأمر بلا شك يا سيد رينو، ولكنني أعتبر أن من المحتمل كثيراً أن تكون السيدة رينو مخطئة، وأن تكونَ أنت

-ربما من باب عدم الإنتباه- قد أخذت الخنجر معك إلى باريس. لا شك أنك ستعارضني...

رأيت قبضتي الفتى الموثقتين تتكوران بشدة، وتعرّق جبينه، وقاطع السيد هوتيه بصوت أجش وكأنه يقوم بذلك بعد جهد كبير: لن أعارضك، فهذا ممكن.

كانت لحظات مذهلة، ونهض المحامي غروسيبه واقفاً يحتج: لقد تعرض موكلي لضغط وإجهاد عصبي هائلين، وأنا أرغب في أن تسجلوا أنني أعتبره غير مسؤول عمّا يقوله.

قمعه القاضي بغضب، وبدا للحظة أن شيئاً من الشك قد بدأ يراوده؛ فلقد بالغ جاك رينو في أداء دوره. انحنى إلى الأمام ونظر إلى السجين متفحصاً وقال: هل تدرك يا رينو أنني -بهذه الإجابات التي قلتَها- لن يكون أمامي خيار سوى تقديمك للمحاكمة؟

تورد وجه جاك الشاحب، ونظر إلى القاضي بثبات قائلاً: سيد هوتيه، أقسمُ أنني لم أقتل والدي.

ولكن لحظة الشك القصيرة لدى القاضي انتهت. ضحك ضحكة قصيرة وقال: لا شك في ذلك، لا شك في ذلك... إن سجناءنا أبرياء دائماً! لقد أدنتَ نفسك بملء فيك. لا تستطيع تقديم أي دفاع، ولا حجة غياب... مجرد تأكيد بأنك لست مذنباً، وهو تأكيد لا يمكن أن يخدع طفلاً! لقد قتلتَ أباك يا رينو -وهي جريمة وحشية جبانة- من أجل المال الذي ظننتَ أنه سيؤول إليك بموته. وقد كانت أمك مساعدةً لك بعد الجريمة. وما من شك في أن حقيقة أنها تصرفت كأم ستجعل المحاكم تجد لها من العذر والرحمة ما

لا تجده لك أنت. وستكون محقة في ذلك، فقد كانت جريمتك رهيبة... يمقتها الله والعباد!

ولكن القاضي انزعج أشد الانزعاج بسبب المقاطعة التي ووجه بها عندما فُتح الباب فجأة وقال الحارس متلعثماً: سيدي القاضي، سيدي القاضي. توجد هنا سيدة تقول... تقول...

صاح القاضي الذي كان لغضبه ما يبرره: مَنْذا يقول وماذا؟ هذا تصرف شاذ جداً. هذا ممنوع... ممنوع بتاتاً.

ولكن امرأة ذات جسد نحيل دفعت الحارس المتلعثم جانباً ودخلت، ثم تقدمت في الغرفة وهي ترتدي ملابس سوداء وخماراً طويلاً يغطي وجهها. ودق قلبي دقة ألم. ها قد جاءت إذن! كل جهودي كانت هباء. ومع ذلك لم أملك إلاّ الإعجاب بالشجاعة التي جعلتها تتخذ هذه الخطوة دون تردد.

رفعت خمارها... وشهقتُ. ذلك أن هذه الفتاة لم تكن سندريلا، رغم أنها كانت تشبهها كحبة فولٍ قُسمت نصفين! وفوق ذلك أدركتُ الآن -في غياب الباروكة الشقراء التي كانت تضعها على المسرح- بأنها كانت الفتاة التي عثر بوارو على صورتها في غرفة جاك رينو. سألت الفتاة: أأنت قاضي التحقيق يا سيد هوتيه؟

- نعم، ولكنني أمنع تماماً...

- إن اسمي هو بيلا دوفين، وأرغب بتسليم نفسي بتهمة قتل السيد رينو.

* * *

الفصل السادس والعشرون
رسالة تأتيني

يا صديقي،

ستعرف كل شيء عندما تستلم هذه الرسالة. ما كان لشيء أقوله أن يؤثر على بيلا. لقد ذهبت لتُسلّم نفسها، وقد تعبتُ كثيراً من مقاومتها.

ستعرف الآن أنني خدعتك، وأنك إذ منحتني الثقة فقد كافأتُك بالكذب. وربما بدا لك ذلك تصرفاً لا يُغتفر، ولكنني أود -قبل أن أخرج من حياتك إلى الأبد- أن أشرح لك تماماً كيف حدث الأمر كله، فإن عرفتُ أنك قد غفرتَ لي فإن ذلك سيجعل الحياة أسهل عليّ. لم أفعل ما فعلتُ من أجل نفسي... هذا هو الأمر الوحيد الذي أستطيع بسطه دفاعاً عن نفسي.

سأبدأ من اليوم الذي التقيتك فيه في القطار القادم من باريس. كنت قلقة وقتها على بيلا. كانت تحب جاك رينو بشكل يائس، وكان من شأنها أن تكون أَمَةً له. وعندما بدأ يتغير وقلّت رسائله بدأَتْ هي تصاب بحالة من الذهول والاكتئاب. وقد اقتنعت بأنه أصبح يحب فتاة أخرى...

وبالطبع فقد اتضح لاحقاً أنها كانت محقة تماماً في ذلك. كانت قد عزمت أمرها على الذهاب إلى بيته في ميرلينفيل ومحاولة رؤية جاك، وكانت تعرف أنني ضد هذه الفكرة، فحاولت التملص مني. وجدت أنها لم تكن على متن القطار في كاليه، وقررتُ أن لا أستمر في الرحلة إلى بريطانيا من دونها. كان لديّ شعورٌ قلِقٌ بأن شيئاً فظيعاً سيحدث إن لم أمنعها.

انتظرتُ القطار التالي القادم من باريس، فوجدتها قادمة على متنه. وكانت مصممة على الذهاب وقتها مباشرة إلى ميرلينفيل. تحاورتُ معها بكل ما أوتيت من قدرة، ولكن ذلك لم يُجدِ شيئاً؛ فقد كانت مصممة تماماً وعازمة على تنفيذ ما تريده. وهكذا غسلتُ يدي من الأمر، فقد بذلتُ كل ما أستطيعه، وكان الوقت قد تأخر، فذهبتُ إلى فندقٍ وانطلقت بيلا إلى ميرلينفيل، وكنتُ ما أزال غير قادرة على أن أبعد عني ذلك الشعور بذلك الشيء الذي تسميه الروايات «كارثة وشيكة».

جاء اليوم التالي... ولكن بيلا لم تأتِ. كانت قد حددت موعداً تلاقيني فيه في الفندق، ولكنها لم تأتِ فيه، ولم يظهر لها أثر طوال النهار. وبدأت أقلق أكثر فأكثر، ثم جاءت صحيفة المساء تحمل معها الخبر.

لقد كان ذلك فظيعاً! لم أستطع التأكد بالطبع... ولكنني خفتُ خوفاً شديداً. خُيّل إليّ أن بيلا قد قابلت رينو الأب وأخبرته عن شأنها مع جاك، وأنه أهانها أو تصرف معها بشكل مسيء ما. ونحن كلانا لدينا مزاج سريع الغضب.

ثم شاعت قصة الأجنبيين المُقنّعين، وبدأتُ أشعر بشيء من الارتياح، ولكنني بقيت قلقة من عدم مجيء بيلا إلى موعدها معي.

ومع مجيء صباح اليوم التالي كان قلقي قد تفاقم بحيث شعرت أنّ عليّ الذهاب لأرى ما يمكنني رؤيته. وكان أول شيء صادفني هو أنني قابلتك. وأنت تعرف ما حصل بعد ذلك... وعندما رأيتُ جثة الرجل، والشبه الشديد بينه وبين جاك، وارتداءه لمعطف جاك المنقوش، عرفتُ ما حصل! ثم كانت هناك سكين فتح الرسائل نفسها التي أعطاها جاك لبيلا... ويا لها من سكين كريهة! وشعرتُ أن من المؤكد أن بصماتها ستكون عليها. لا أستطيع أن أشرح لك هول تلك اللحظات المخيفة. ورأيت بوضوح أمراً واحداً فقط، وهو أنني يجب أن آخذ ذلك الخنجر وأن أهرب به قبل أن يكتشفوا أنه مفقود. تظاهرتُ بالإغماء، وبينما كنتَ بعيداً تُحضر الماء أخذتُ الخنجر وخبأته بين ثيابي.

لقد أخبرتك أنني كنتُ أقيم في فندق دو فار، ولكنني عدتُ بالطبع بأسرع ما يكون إلى كاليه، ومن هناك إلى إنكلترا على متن أول قارب. وعندما أصبحنا في وسط القنال الإنكليزي رميتُ ذلك الخنجر التعس في البحر، وعندها شعرتُ أن بمقدوري التنفس ثانية.

كانت بيلا في محل سكنانا في لندن، وقد بدت في حال لا تشبهها أية حال. أخبرتها بما فعلتُه وأنها صارت في مأمن في الوقت الحاضر فنظرت إلي، ثم بدأت تضحك، وتضحك، وتضحك... كان من الفظيع سماعها! شعرتُ أن

أفضل شيء هو أن ننخرط في العمل؛ فمن شأنها أن تُجن إذا ما توفر لها الوقت للتفكير فيما فعلَتْهُ. ولحسن الحظ أننا وجدنا عملاً على الفور.

ثم رأيتُك أنت وصديقك تشاهداننا في تلك الليلة... وقد أرعبني ذلك! فلا بد أنك تشك، وإلاّ ما كنتَ لتتعقبنا. وقد كان عليّ أن أعرف أسوأ ما في الأمر، ولذلك فقد لحقتُ بك. كنتُ يائسة. وبعدها، وقبل أن يتاح لي الوقت لقول أي شيء أدركتُ أنني أنا موضع شبهتك، وليس بيلا! أو أنك -على الأقل- ظننتَ أنني أنا بيلا، طالما أنني سرقتُ الخنجر.

أتمنى -يا عزيزي- أن تستطيع تخيُّل ما كان يجري في رأسي في تلك اللحظة، فلعلك تغفر لي. لقد كنتُ مرعوبة جداً ومرتبكة ويائسة. كان كل ما فهمتُه بوضوح هو أنك ستحاول إنقاذي، ولم أكن أدري ما إذا كنت مستعداً لإنقاذها هي... ورأيتُ أنك لن تكون مستعداً لذلك على الأغلب... فهذا أمر مختلف! ولم يكن بوسعي المجازفة، فبيلا شقيقتي التوأم، وعليّ أن أبذل كل ما بوسعي من أجلها! ولذلك مضيتُ في الكذب. شعرت بالوضاعة... وما زلت أشعر بها. هذا كل شيء، وأحسبك تقول أن في هذا ما يكفي أيضاً. كان عليّ أن أثق بك... ولو أنني وثقت...

وبمجرد أن نشرت الصحف نبأ اعتقال جاك رينو انتهى كل شيء. لم تقبل بيلا حتى الانتظار لترى كيف ستسير الأمور.

إنني متعبة جداً، ولا أستطيع كتابة المزيد.

كانت قد بدأت التوقيع باسم سندريلا، ولكنها شطبت ذلك وكتبت بدله «دولتشي دوفين».

كانت رسالة ذات كتابة سيئة لا تكاد تُقرأ، ولكنني احتفظتُ بها حتى يومنا هذا. وكان بوارو معي عندما قرأتها، وقد وقعت الأوراق من يدي، فنظرتُ إليه وقلت: هل كنتَ تعرف طوال الوقت أنها كانت... الأخرى؟

- نعم يا صديقي.

- لماذا لم تخبرني؟

- بداية لم أكن لأصدق أنك يمكن أن ترتكب هذا الخطأ؛ فقد رأيتَ الصورة. صحيح أن الأختين متشابهتان، ولكن من غير المتعذر أبداً التفريق بينهما.

- ولكن ماذا عن الشعر الأشقر؟

- إنها باروكة، توضع من أجل إظهار تباين لطيف على المسرح. وإلاّ هل يُعقل أن تجد شقيقتين توأمين متماثلتين إحداهما شقراء والأخرى سوداء الشعر؟

- لماذا لم تخبرني في تلك الليلة في فندق كوفنتري؟

قال بوارو ببرود: لقد كنتَ جلفاً بعض الشيء في أساليبك يا صديقي... لم تعطِني فرصة لذلك.

- ولكن فيما بعد؟

- آه، فيما بعد! لقد جرحَتْني بدايةً قلةُ ثقتك بي. وبعد ذلك

أردتُ أن أرى إن كانت مشاعرك ستصمد أمام اختبار الزمن... إن كان ما تحس به حباً حقيقياً أم مجرد شعور عابر لديك. وإلاّ ما كنتُ لأبقيك طويلاً على خطئك.

أومأتُ برأسي؛ فقد كانت نبرته أكثر رقة من أن تتحمل رداً ساخطاً مني. نظرتُ إلى أوراق الرسالة التي سقطت مني، ثم رفعتها فجأة عن الأرض وأعطيتها لبوارو وقلت: اقرأ هذه، أريدك أن تقرأها.

قرأها بوارو كلها بصمت، ثم رفع بصره إليّ وقال: ما الذي يقلقك يا هيستنغز؟

كان هذا مزاجاً جديداً تماماً من بوارو. بدا أنه ترك جانباً أسلوبه الساخر، واستطعتُ أن أقول ما أريد قوله دون صعوبة: إنها لا تقول... إنها لا تقول، أعني إن كانت تهتم بي أم لا؟

طوى بوارو الأوراق وقال: أنت مخطئ يا هيستنغز.

صحتُ وأنا أحني جسمي إلى الأمام بلهفة: أين؟

- إنها تقول لك ذلك في كل سطر من رسالتها يا صديقي.

- ولكن أين عساني أجدها؟ ليس على الرسالة عنوان؛ فقط طابع بريد فرنسي، هذا كل شيء.

- لا تبتئس يا صديقي! دع الأمر «لبابا بوارو». أستطيع أن أعثر لك عليها بمجرد أن تتوفر لي خمس دقائق فراغ!

* * *

الفصل السابع والعشرون

قصة جاك رينو

قال بوارو وهو يشد بحرارة على يد الفتى: تهانينا يا سيد جاك.

كان جاك قد جاء لرؤيتنا فور إطلاق سراحه قبل أن يتوجه إلى ميرلينفيل للانضمام إلى مارتا وأمه، وكان ستونور برفقته. وكان مرح ستونور يتناقض تماماً مع مظهر الفتى، إذ بدا واضحاً أن جاك كان على شفا انهيار عصبي. ابتسم باكتئاب لبوارو وقال بصوت خافت: لقد تحملتُ كل ذلك لأحميها، والآن لم تبق فائدة.

قال ستونور ببرود: لا أحسبك تتوقع من الفتاة أن تقبل أن تكون حياتك هي الثمن. كان لا بد أن تتقدم للاعتراف عندما رأتك تتوجه مباشرة إلى المقصلة.

أكمل بوارو وعيناه تطرفان قليلاً: وحقاً، لقد كنت تتجه إليها بالتأكيد! ولو أنك مضيت في منهجك ذاك لمات المحامي غروسييه غضباً من تصرفك أيضاً!

قال جاك: أحسب أنه كان حسن النوايا. ولكن، يا إلهي! ما الذي سيحدث لبيلا؟

قال بوارو بصراحة: لو كنتُ مكانك لما آلمتُ نفسي أكثر مما ينبغي. إن المحاكم الفرنسية رحيمة جداً أمام الشباب والجمال، وأمام الجرائم العاطفية! إن من شأن محام عظيم أن يبتكر العديد من الظروف المُخفّفة. لن يكون من المحبب بالنسبة إليك أن...

- إنني لا آبَهُ لذلك. الحقيقة -يا سيد بوارو- أنني أشعر فعلاً بالذنب لمقتل والدي؛ فلولاي ولولا علاقتي بهذه الفتاة لكان حياً يرزق اليوم. ثم إنني أهملت إذ أخذتُ المعطف الخطأ. لا أملك إلاّ أن أشعر بالمسؤولية عن وفاته، وسوف يؤرقني ذلك إلى الأبد!

قلتُ له مهدئاً: كلا، كلا.

مضى جاك قائلاً: رهيب بالنسبة لي طبعاً أن أفكر بأن بيلا قتلت والدي. ولكنني عاملتها معاملة مخزية، فبعدما قابلتُ مارتا وأدركتُ أنني أخطأت كان عليّ أن أكتب لها وأشرح الأمر بصدق. ولكنني كنتُ خائفاً جداً من حدوث مشاجرة تصل إلى مسامع مارتا، فتظن أن الأمر أعمق بكثير مما هو حقيقة... نعم، لقد كنتُ جباناً، ورحتُ آمل أن يتلاشى الأمر من تلقاء نفسه. اكتفيتُ بالابتعاد غيرَ مُدركٍ أنني بذلك كنتُ أجعل المسكينة مخلوقة يائسة. ولو أنها طعنتني حقاً كما كانت تنوي لما كان ذلك إلاّ جزاء وفاقاً أستحقه. يا للطريقة التي تقدمتْ بها لتعترف بالأمر، كم كانت جريئة. وقد كان من شأني أن أستمر فيما قلتُه... حتى النهاية.

بقي صامتاً للحظات، ثم انطلق فجأة في موضوع آخر: إن ما يحيرني هو السبب الذي جعل والدي يخرج ليتسكع بملابسه الداخلية وهو يرتدي معطفي في ذلك الوقت من الليل. أحسب أنه كان قد تخلص لتوه من ذينك الأجنبيين، ولا بد أن أمي قد أخطأت في قولها إن الساعة كانت الثانية عندما قدِما، أو... أو، أكان الأمر كله خدعة؟ أعني أن أمي لم تحسب... لا يمكنها أن تحسب أنني كنت أنا القاتل؟

طمأنه بوارو بسرعة قائلاً: لا، لا يا سيد جاك. لا تراودك مخاوف من هذه النقطة. أما فيما يخص الأمور الأخرى فسأشرحها لك ذات يوم. إنه أمر غريب بعض الشيء، ولكن هل لك أن تحكي لنا ما الذي حصل لك بالضبط في تلك الليلة المشؤومة؟

- لا يوجد الكثير مما يمكن قوله. فقد جئتُ من تشيربورغ -كما قلتُ لكم- كي أرى مارتا قبل أن أسافر إلى الجانب الآخر من العالم. وقد تأخر القطار، وقررتُ أن آخذ الطريق المختصر عبر ملعب الغولف. كان بوسعي أن أدخل حديقة فيلا مارغريت بسهولة من ذلك الملعب، وكنتُ قد وصلتُ تقريباً عندما...

توقف قليلاً وابتلع ريقه.

- نعم؟

- سمعت صرخة فظيعة. لم تكن صرخة عالية، بل كانت أقرب لصوت اختناق أو شهقة... ولكنها أرعبتني. وقفت للحظات كأنما زُرِعتُ في مكاني، ثم درتُ حول زاوية غصنٍ هناك. كانت الليلة مقمرة، ورأيتُ القبر، كما رأيت جسداً ممدداً ووجهه للأسفل وقد

انغرس خنجر في ظهره. وعندها... وعندها... رفعت نظري ورأيتها. كانت تنظر إليّ وكأنها رأت شبحاً... ولا بد أنها حسبتني كذلك في البداية؛ فقد تلاشى كل تعبير من وجهها من الرعب. ثم أطلقت صيحة وركضت مولّية.

توقف وهو يحاول السيطرة على عواطفه، فسأله بوارو بلطف: وبعد ذلك؟

- إنني حقاً لا أدري. بقيتُ هناك لبعض الوقت مذهولاً، ثم أدركتُ أن من الأفضل أن أهرب بأسرع ما يمكنني. لم يخطر لي أنهم سيشكّون بي، ولكنني خفتُ من أن يتم استدعائي لتقديم شهادة ضدها. مشيتُ حتى سانت بوفيه كما قلتُ لكم، وأخذت سيارة من هناك إلى تشيربورغ.

سمعنا طرقاً على الباب، ودخل خادمٌ حاملاً رسالة أعطاها للسيد ستونور الذي فتحها ثم نهض عن كرسيه وقال: لقد استعادت السيدة رينو وعيها.

نهض بوارو وقال: آه! دعونا نذهب جميعاً إلى ميرلينفيل على الفور!

وهكذا تم الترتيب لمغادرة سريعة. وقد وافق ستونور -بناء على طلب من جاك- على البقاء والقيام بكل ما يمكن فعله من أجل بيلا دوفين، أما بوارو وجاك وأنا فقد انطلقنا في سيارة رينو.

استغرق طريقنا نحواً من أربعين دقيقة، وعندما اقتربنا من باب فيلا مارغريت نظر جاك رينو إلى بوارو نظرة تساؤل وقال: ما رأيك

في أن تدخل أنت أولاً وتخبر أمي بأنني حرٌّ...

أكمل عنه بوارو الجملة وهو يطرف بعينيه: فيما تذهب أنت لتخبر مارتا بنفسك، أليس كذلك؟ نعم، لا مانع، بل إنني كنتُ على وشك اقتراح مثل هذا الترتيب بنفسي.

لم ينتظر جاك رينو المزيد، فقد أوقف السيارة وقفز منها وركض عبر الممر إلى الباب الأمامي، ومضينا نحن بالسيارة إلى فيلا جينيفييف.

قلت لبوارو: بوارو، هل تذكر أول يوم جئنا فيه إلى هنا؟ وكيف قوبلنا بنبأ مقتل السيد رينو؟

- نعم، حقاً. ولم يمضِ على ذلك وقتٌ طويل أيضاً. ولكن ما أكثر الأمور التي حصلت منذ ذلك الحين... وخاصة بالنسبة لك أنت يا صديقي!

تنهدتُ قائلاً: نعم، بالفعل.

- أنت تنظر إلى الأمر من الزاوية العاطفية يا هيستنغز، لم يكن هذا ما قصدتُه. سوف نأمل بأن يتم التعامل مع الآنسة بيلا برحمة، كما أن جاك رينو ليس في مقدوره الزواج من كلا الفتاتين في نهاية الأمر! إنني أتكلم من الناحية المهنية؛ فهذه ليست جريمة نظامية جيدة الترتيب كتلك التي يستمتع بها رجل التحري. لقد كان إعداد المسرح من قبل جورج كونو ممتازاً حقاً، ولكن الكشف عن العقدة الأخيرة في المسرحية لم يكن كذلك! رجل قُتل خطأً في نوبة غضب لفتاة... هاه، أين النظام والمنهجية في ذلك؟

ووسط نوبة ضحك انتابتني على نزوات بوارو الغريبة فتحت فرانسوا الباب. شرح لها بوارو بأنه يجب أن يرى السيدة رينو في الحال، فقادته المرأة إلى الطابق العلوي، فيما بقيتُ أنا في الصالة. وقد مر الكثير من الوقت قبل أن يظهر بوارو من جديد وهو متجهم الوجه.

- أنت هنا يا هيستنغز! يا إلهي، ستكون أمامنا متاعب قادمة!

صحتُ به: ماذا تقصد؟

قال بوارو متأملاً: ما كنتُ لأصدق ذلك، ولكن يصعب التنبؤ بأمزجة النساء.

هتفتُ وأنا أنظر من النافذة: ها هو جاك ومارتا دوبريه.

أسرع بوارو خارج الغرفة والتقى الشابين على الدرج في الخارج وقال: لا تدخلا. من الأفضل أن لا تدخلا؛ إن أمك منزعجة جداً.

- أعرف، أعرف. يجب أن أصعد إليها على الفور.

- أقول لك لا تصعد، فهذا أفضل.

- ولكنني أنا ومارتا قد...

- على أية حال لا تأخذ الآنسة معك. اصعد إليها إن كنت تريد ذلك، ولكن من الحكمة أن تدعني أرافقك.

جاء صوتٌ من أعلى الدرج ليفاجئنا جميعاً: أشكرك على مساعيك الخيرة يا سيد بوارو، ولكنني سأفصح عن رغباتي بكل وضوح.

حدقنا مدهوشين، فقد كانت تلك السيدة رينو تنزل الدرج معتمدة على ذراع ليوني ورأسها ما زال مضمداً، وكانت الفتاة الفرنسية تبكي وتتوسل إلى سيدتها كي تعود إلى فراشها.

- ستقتل سيدتي نفسها؛ إن هذا مناقض لكل أوامر الأطباء.

ولكن السيدة تقدمت، فصاح جاك وهو يحدق إليها: أماه.

غير أنها نحّته جانباً بإشارة منها وقالت: لستُ أماً لك، ولستَ ابناً لي! إنني أتبرأ منك من هذا اليوم وهذه الساعة.

صاح الفتى وقد ذُهل: أماه!

بدت للحظة وكأنها تتردد أو تتلكأ أمام الألم الواضح في صوته. قام بوارو بإشارة توسُّط، ولكنها سرعان ما استعادت سيطرتها على نفسها وقالت: إن دم أبيك في رقبتك... أنت مسؤول أخلاقياً عن موته؛ فقد أحبطته وتحديته بشأن هذه الفتاة، وبسبب تعاملك القاسي مع فتاة أخرى تسببتَ في موته... اخرج من هذا البيت! سأتخذ من غدٍ الخطوات التي تكفل عدم لمسك لقرش واحد من أمواله. شُقّ طريقك في هذه الدنيا بأفضل ما تستطيع بمساعدة الفتاة التي هي ابنة ألدّ أعداء أبيك!

ثم عادت أدراجها ببطء وألم إلى الطابق العلوي، فيما وقفنا جميعاً مشدوهين إذ لم نكن مستعدين أبداً لمثل هذا المشهد. وقد

ترنح جاك رينو -المُتعَب أساساً من كل ما مر به- وكاد أن يسقط. وهرعنا أنا وبوارو لمساعدته.

تمتم بوارو قائلاً لمارتا: إنه منهك تماماً، أين نستطيع أخذه؟

- إلى البيت! إلى فيلا مارغريت. سوف نسهر أنا وأمي على رعايته. يا لجاكي المسكين!

أخذنا الفتى إلى الفيلا حيث رمى نفسه بترهل على أحد الكراسي بحال من الذهول والدوار. وتلمس بوارو جبينه ويديه ثم قال: لديه حمى. لقد بدأ أثر الضغط الطويل يظهر عليه، وجاءت هذه الصدمة لتتوّج ذلك كله. خذيه إلى السرير يا مارتا، وسأذهب أنا وهيستنغز لاستدعاء طبيب.

وصل الطبيب بسرعة، وبعد فحصه أعلن أنه يرى أن المسألة مجرد ضغط وإجهاد عصبي، ومع وجود راحة وهدوء تامين يمكن أن يعود إلى حالته الطبيعية تقريباً في اليوم التالي، ولكن من شأن المزيد من الانفعالات أن يسبب له حمى دماغية. وأعلن الطبيب أن من المستحسن أن يسهر أحد على راحته طوال الليل.

وأخيراً، وبعد أن فعلنا كل ما في وسعنا، تركناه في عهدة مارتا وأمها وانطلقنا إلى البلدة. كان الوقت قد تجاوز موعد عشائنا، وكنا في حالة جوع شديد، فدلفنا إلى أقرب مطعم حيث دفعنا عن أنفسنا غائلة الجوع بطبق ممتاز من العُجّة تبعه طبق لا يقل عنه تميزاً من شرائح اللحم. وبعدما توّجنا ذلك كله بالقهوة قال بوارو: والآن إلى معقل النوم. هل لنا أن نحاول فندقنا القديم؟

عدنا إلى الفندق دون تردد، وهناك قال موظف الاستقبال إن بإمكانه استضافتنا فعلاً في غرفتين رائعتين تطلان على البحر. وعندها سأله بوارو سؤالاً أدهشني: هل وصلت سيدة إنكليزية تدعى السيدة روبنسن؟

- نعم يا سيدي. إنها في الصالة الصغيرة.

- آه!

صحت وأنا أمشي بسرعة خلفه في الممر: بوارو، من هي بربك السيدة روبنسن؟

- لقد رتّبتُ لك زواجاً يا هيستنغز.

- ولكن...

قال بوارو وهو يدفعني بمحبة عند عتبة الصالة: صه! أتحسبني أريد أن أعلن في مكبرات ميرلينفيل اسم دوفين؟

وقد كانت سندريلا -بالفعل- هي التي نهضت لتحيتنا. أخذتُ يدها بكلتا يدي، وتولّت عيناي قول الباقي.

تنحنح بوارو وقال: اسمعا يا طفليّ، لا وقت لدينا الآن للعواطف؛ فالعمل ينتظرنا. هل استطعتِ يا آنسة أن تفعلي ما طلبتُه منك؟

وجواباً على ذلك أخرجت سندريلا من حقيبتها شيئاً ملفوفاً بالورق وأعطته لبوارو بصمت. فتحه بوارو فأجفلتُ إذ رأيته... فقد كان الخنجر المصنوع من حطام الطائرات، والذي فهمتُ أنها كانت

قد رمته في البحر. غريب كم تتردد النساء دوماً في التخلص من أكثر الأشياء والوثائق إثارة للفضائح!

قال بوارو: جيد جداً يا طفلتي؛ أنا مسرور منك. اذهبي الآن وخذي قسطاً من الراحة، فلدينا -أنا وهيستنغز- عمل ننجزه.

سألت الفتاة وقد اتسعت عيناها: إلى أين تذهبان؟

- ستسمعين كل شيء غداً.

- بل سآتي معكما أينما ذهبتما.

- ولكن يا آنستي...

- أقول لك إنني قادمة معكما.

أدرك بوارو أن من العبث أن يجادلها فاستسلم قائلاً: تعالي إذن يا آنسة. ولكن الأمر لن يكون مسلياً، ومن المرجح أن لا يحدث شيء.

لم تجبه الفتاة، وانطلقنا بعد نحو ثلث ساعة. كان الظلام قد خيم تماماً الآن، وكانت ليلة ثقيلة تسبّب الاكتئاب. تقدّمنا بوارو خروجاً من البلدة باتجاه فيلا جينيفييف، ولكنه توقف عندما وصل إلى فيلا مارغريت وقال: أود التأكد من تحسن حالة جاك رينو. تعال معي يا هيستنغز، وستبقى الآنسة في الخارج، فربما قالت السيدة دوبريه شيئاً يجرح مشاعرها.

فتحنا البوابة وتقدمنا في ممشى الحديقة، وعندما انعطفنا إلى جانب البيت، لفتٌ نظر بوارو إلى إحدى النوافذ في الطابق الأول،

فقد كان خيال مارتا دوبريه ينعكس واضحاً على النافذة. قال بوارو: آه! لقد تخيلتُ أن هذه هي الغرفة التي سنجد جاك رينو فيها.

فتحت السيدة دوبريه لنا الباب. وقد أوضحتْ أن جاك رينو على حاله تقريباً، ولكن يُستحسن أن نرى بأنفسنا. قادتنا إلى الطابق العلوي، ثم إلى غرفة النوم. كانت مارتا دوبريه جالسة تطرز شيئاً قرب طاولة عليها مصباح، ووضعت أصبعاً على شفتيها عند دخولنا طالبة الهدوء.

كان جاك رينو نائماً نوماً قلقاً مضطرباً يتقلب رأسه من جانب إلى جانب، ووجهه ما يزال شديد الإحمرار.

سأل بوارو هامساً: هل سيعود الطبيب؟

- لن يعود ما لم نرسل في طلبه. الأمر الجيد أن جاك نائم؛ لقد صنعت له أمي شراب الزهورات.

عادت للجلوس إلى ما كانت تنسجه فيما غادرنا نحن الغرفة، وقد رافقتنا السيدة دوبريه في نزول الدرج. وكنت قد أصبحتُ أنظر إلى هذه المرأة باهتمام متزايد منذ أن علمت بتاريخها السابق. وقفتْ هناك مسبلة العينين وعلى شفتيها نفس تلك الابتسامة السحرية التي أذكرها والتي لا تكاد تبين. وفجأة شعرتُ بالخوف منها، كما يشعر المرء بالخوف من أفعى جميلة سامة.

قال لها بوارو إذ فتحت الباب لنا لنخرج: آمل أن لا نكون قد أزعجناك يا سيدتي.

- أبداً يا سيد بوارو.

قال بوارو وكأن فكرة مفاجئة خطرت له: بالمناسبة، لم يحضر السيد ستونور إلى ميرلينفيل اليوم، أليس كذلك؟

لم أستطع أبداً فهم الهدف من هذا السؤال الذي أحسستُ أنه غير ذي معنى بالنسبة لبوارو. ولكن السيدة دوبريه أجابته بكل هدوء: ليس عندي علم بذلك.

- ألم يقابل السيدة رينو؟

- كيف لي أن أعرف ذلك يا سيدي؟

- حقاً. ظننتُ أنك ربما رأيتِه يغدو أو يروح، هذا كل ما في الأمر. طاب مساؤك يا سيدتي.

بدأت أسأله: "لماذا..."، ولكنه قاطعني قائلاً: دعني من «لماذاتك» يا هيستنغز. سيكون معنا متسع من الوقت لذلك لاحقاً.

عدنا للانضمام إلى سندريلا، واستأنفنا طريقنا بسرعة إلى فيلا جينيفييف. ولقد التفت بوارو مرة إلى النافذة المضاءة وعليها خيال مارتا وهي منكبة على نسيجها، وتمتم قائلاً: إنه تحت الحراسة في كل الظروف.

وعندما وصلنا إلى فيلا جينيفييف أخذ بوارو له موقعاً خلف بعض الأغصان إلى يسار الممشى حيث كان بوسعنا أن نرى البيت كله رغم اختفائنا تماماً عن الأنظار. كانت الفيلا نفسها غارقة في عتمة تامة، ولا شك أن الجميع كانوا يغطون في نوم عميق. وسرعان ما أصبحنا تحت نافذة السيدة رينو التي لاحظتُ أنها كانت مفتوحة،

وقد بدا لي أن عيني بوارو كانتا مركزتين على تلك الفتحة في النافذة. همستُ له: ماذا سنفعل؟

- نراقب.

- ولكن...

- لا أتوقع حدوث شيء قبل مرور ساعة على الأقل، وربما ساعتين، ولكن ال...

قطعت كلماتِهِ صرخة طويلة حادة: النجدة!

أُضيئت غرفة في الطابق الأول إلى يمين الباب الأمامي، وقد جاءت الصرخة من هناك. وحتى عندما كنا نراقب هناك تراءى في النافذة خيال لشخصين يتصارعان.

صاح بوارو: يا إلهي! لا بد أنها غيّرت غرفتها.

اندفع إلى الأمام وأخذ يضرب بشدة على الباب الأمامي، ثم هرع إلى الشجرة في مسكبة الزهور وتسلقها بمهارة قطة، وقد تبعتُه فيما قفز هو إلى داخل الغرفة من النافذة. نظرتُ تحتي فرأيت سندريلا تتسلق أسفل الشجرة، فهتفتُ بها: حاذري.

أجابت الفتاة: حاذر على جدتك؛ هذا أسهل عليّ من لعب الأطفال!

كان بوارو قد اندفع عبر الغرفة الخالية وأخذ يضرب بيده على الباب مزمجراً: إنه مُقفَل من الخارج، وسيستغرق كسره وقتاً.

كانت الصرخات التي تطلب النجدة تخفت كثيراً، ورأيت اليأس في عيني بوارو. حاولنا أن ندفع الباب بكتفينا، وجاء صوت سندريلا هادئاً خالياً من العواطف وهي عند النافذة: ستتأخران في ذلك... أحسب أنني الوحيدة التي يمكنها فعل شيء.

وقبل أن أستطيع رفع يدي لمنعها قفزتْ من النافذة في الهواء. اندفعتُ ونظرتُ من النافذة لأرى منظراً أرعبني؛ فقد رأيتها تتعلق بيديها بالسقف، وتتحرك بدفع جسمها باتجاه النافذة المُضاءة.

صحتُ قائلاً: يا إلهي! سوف تُقتل.

قال بوارو: لقد نسيتَ؛ إنها لاعبة حركات بهلوانية بحكم مهنتها يا هيستنغز. لقد كان إصرارها على القدوم معنا الليلة من تدبير العناية الإلهية. أرجو فقط أن تصل في الوقت المناسب. آه!

انطلقت صيحة رعب تام في عتمة الليل مع اختفاء سندريلا داخل النافذة، ثم جاء صوت سندريلا ذو النبرات الواضحة قائلاً: كلا، لقد أمسكتُ بك... وقبضتاي أقوى من الفولاذ.

وفي نفس اللحظة فُتح باب سجننا من قبل فرانسوا. نحّاها بوارو جانباً دون احتفاء واندفع في الممر إلى حيث كانت الخادمتان الأخريان قد اجتمعتا قرب الباب البعيد. قالت إحداهما: إنه مقفل من الداخل يا سيدي.

سمعنا صوت سقطة ثقيلة في الداخل. وبعد دقيقة أو اثنتين دار المفتاح في القفل وانفتح الباب ببطء، ودعتنا سندريلا بوجه شاحب للدخول. سألها بوارو: أهي سليمة؟

- نعم، جئتُ في وقتي تماماً. كانت منهكة.

كانت السيدة رينو نصف جالسة ونصف ممددة على السرير تشهق لسحب أنفاسها. تمتمت بألم: كدتُ أذهب خنقاً.

أخذت الفتاة شيئاً عن الأرض وأعطته لبوارو. كان ذلك عبارة عن سُلّم ملفوف من حبال الحرير الرفيعة رغم قوتها الشديدة. قال بوارو: هذا للهرب من النافذة ونحن نقرع على الباب الأمامي. ولكن، أين... صاحبه؟

تنحت الفتاة جانباً وأشارت. وهناك على الأرض كان جسد ممدد مُغطى بثوب أسود.

- جثة؟

أومأت الفتاة بالإيجاب قائلة: أظن ذلك. لا بد أن الرأس قد ارتطم بحافة الموقد الرخامية.

صحتُ قائلاً: ولكن مَنْ؟

أجاب بوارو: من قتل رينو يا هيستنغز، ومن كان على وشك قتل زوجته.

جثوتُ وقد تملكتني الحيرة الشديدة، ورفعتُ الغطاء، ونظرتُ إلى الوجه الجميل لمارتا دوبريه!

* * *

الفصل الثامن والعشرون

نهاية الرحلة

ما أذكره عن بقية أحداث تلك الليلة مضطرب تماماً؛ فقد بدا بوارو أصمّ تجاه أسئلتي المتكررة. كان منهمكاً في تأنيب فرانسوا على عدم إبلاغه بتغيير السيدة رينو لغرفة نومها.

أمسكتُه من كتفيه مصمماً على جذب انتباهه وقلتُ له بصوت عالٍ: ولكن لا بد أنك كنت تعرف. لقد اصطحبوك لرؤيتها بعد ظهر هذا اليوم. تنازل بوارو وصرف انتباهه إليّ للحظة قائلاً: لقد نُقلت بالمقعد ذي العجلات إلى الغرفة الوسطى، وهي غرفتها الصغيرة الخاصة.

صاحت فرانسوا: ولكن السيدة غيرت غرفتها مباشرة تقريباً بعد وقوع الجرائم يا سيدي؛ فقد كانت ذكرياتها بها أليمة جداً.

هدر بوارو وهو يضرب الطاولة بقبضته وقد وصل به الغضب مداه: إذن لماذا لم أُبلّغ؟ إنني أسألك: لماذا -لم- أُبلّغ؟ إنك عجوز مغفلة تماماً! وليست ليوني ودينيس بأفضل حالاً منك؛ فأنتن الثلاث

مغفلات! لقد كاد غباؤكن يودي بحياة سيدتكن، لولا هذه الطفلة الشجاعة...

توقف ثم عبَر الغرفة بسرعة إلى حيث كانت الفتاة منكبة ترعى السيدة رينو واحتضنها بحماسة فرنسية... مما أثار شيئاً من الانزعاج لدي.

وقد أيقظني من حالة الغيبوبة الذهنية أمر حاد من بوارو لكي أُحضر على الفور طبيباً للسيدة رينو، وبعد ذلك عليّ استدعاء الشرطة. ثم أضاف ليكمل سخطي: ولن يكون من المجدي بعد ذلك أن تعود إلى هنا؛ فسوف يكون لديّ من المشاغل ما لا أستطيع معه الانصراف إليك، وسوف أجعل من الآنسة هنا ممرضة.

انسحبتُ بما استطعتُ تدبيره من كرامة، وبعدما أنهيت مهمتي عدتُ إلى الفندق. لم أكن أفهم شيئاً مما حدث؛ بدت أحداث الليلة خيالية ومستحيلة. لم يرغب أحد بالإجابة عن أسئلتي، ولم يبدُ أن أحداً يريد سماعها. رميتُ نفسي على السرير غاضباً، ونمتُ نوم حائر هدّه التعب.

استيقظتُ لأرى الشمس تغمر الغرفة من خلال النافذة المفتوحة، وبوارو يجلس قرب السرير أنيقاً مبتسماً.

- أخيراً استيقظت! ولكنك نؤوم مشهور يا هيستنغز! أتعلم أن الساعة قاربت الحادية عشرة؟

زمجرتُ ووضعت يدي على رأسي وقلت: لا بد أنني كنتُ أحلم. أتدري، لقد حلمتُ بأننا وجدنا جثة مارتا دوبريه في غرفة

السيدة رينو، وأنك أعلنتَ أنها هي التي قتلت السيد رينو؟

- لم تكن تحلم؛ فهذا صحيح تماماً.

- ولكن بيلا دوفين هي التي قتلت السيد رينو؟

- آه، كلا يا هيستنغز، لم تقتله! صحيح أنها قالت إنها قتلته، ولكن ذلك كان لإنقاذ الرجل الذي أحبته من المقصلة.

- ماذا؟

- تذكّر قصة جاك رينو. فقد وصل الاثنان إلى مسرح الجريمة في نفس اللحظة، وكلاهما ظن أن صاحبه هو الذي ارتكبها. نظرت الفتاة إليه برعب ثم هربتْ مُطلقةً صيحة، ولكن عندما سمعت أن الجريمة قد نُسبت إليه لم تستطع تحمل ذلك، فتقدمت لتتهم نفسها وتنقذه من موت محقق.

استند بوارو إلى ظهر كرسيه ووضع رؤوس أصابعه بعضها مقابل بعض في حركة معهودة منه وقال: إن القضية لم تقنعني تماماً. لقد كان لديّ طوال الوقت انطباع قوي بأننا نتعامل مع جريمة تم التخطيط لها وارتكابها بأعصاب باردة من قبل شخص اكتفى (بكل ذكاء) باستخدام خطط السيد رينو نفسه، بغية تضليل الشرطة. إن المجرم العظيم يكون دوماً في منتهى البساطة، ولعلك تذكر أنني قلت لك ذلك ذات مرة.

أومأت له موافقاً، فمضى يقول: والآن، دعماً لهذه النظرية، لا بد أن القاتل كان على علم تماماً بخطط السيد رينو، وهذا يقودنا إلى السيدة رينو. ولكن الحقائق أخفقت في دعم أية نظرية تُجرّمها،

فهل يوجد شخص آخر يمكن أن يكون على علم بتلك الخطط؟ نعم. لقد أخذنا من فم مارتا دوبريه نفسها أنها سمعت السيد رينو يتشاجر مع المشرد الشقي. فإن كان بوسعها أن تسمع ذلك فليس من سبب يمنعها من سماع أي شيء آخر، خاصة إذا كان السيد والسيدة رينو من الطيش بحيث يناقشان خططهما وهما يجلسان على ذلك المقعد الخشبي. تذكّر السهولة التي سمعتَ بها حديث مارتا مع جاك من تلك البقعة.

- ولكن ما هو الدافع المحتمل لمارتا حتى تقتل السيد رينو؟

- ما هو الدافع؟ المال! لقد كان رينو يملك الكثير من الملايين، وعند موته ستؤول نصف ثروته الهائلة إلى جاك (أو هكذا كانت تظن هي وجاك). دعنا نُعِدْ بناء المشهد من منظور مارتا دوبريه.

لقد سمعت مارتا دوبريه ما دار بين السيد رينو وزوجته. كان حتى ذلك الحين مصدر دخل رائعاً للأم وابنتها، ولكنه الآن يخطط للفرار من عبثهما. ربما كانت فكرتها في البداية هي منع ذلك الهروب، ولكن حلت محل تلك الفكرة فكرة أخرى أكثر جرأة، فكرةٌ ما كان لها أن تخيف ابنة جين بيرولدي! إن السيد رينو يقف الآن بصلابة في طريق زواجها بجاك، وإذا ما تحدى الأخير والده فسيغدو مفلساً... الأمر الذي لا يناسب الآنسة دوبريه أبداً. والحقيقة أنني أشك كثيراً إن كانت قد اهتمت قطّ بجاك رينو. إنها تستطيع تصنّع العواطف وإظهارها، ولكنها -في الحقيقة- من نفس نوعية أمها الباردة التي تحسب كل شيء بقدر معلوم. كما أنني أشك كثيراً أيضاً فيما إذا كانت واثقة تماماً من سيطرتها على عواطف الفتى. صحيح

أنها أذهلته عن نفسه وسيطرت عليه، ولكن لو قُدّر له أن ينفصل عنها -وهو الأمر الذي كان بإمكان والده أن يتدبره بسهولة- فربما فقدته. ولكن بوفاة الأب وبوراثة جاك لنصف ملايينه يمكن للزواج أن يتم فوراً، وبضربة واحدة تكون قد حققت الثروة، وليس الآلاف الصعبة التي تم انتزاعها منه حتى الآن.

وقد فهم عقلها الذكي بساطة الأمر؛ فهو سهل جداً. فرينو يخطط كل الظروف لموته وما عليها إلاّ أن تتدخل في اللحظة المناسبة وتُحيل المسرحية إلى واقع جاثم ثقيل. ومن هنا جاءت النقطة الأخرى التي قادتني دون خطأ إلى مارتا دوبريه... وهي الخنجر! فقد صنع جاك رينو ثلاث نسخ منه، فأعطى واحداً لأمه، وواحداً لبيلا دوفين... ألم يكن من المحتمل كثيراً أن يكون قد أعطى الثالث لمارتا دوبريه؟

وهكذا إذن -وبغية اختصار الأمر- فقد وُجدت أربع نقاط ضد مارتا دوبريه:

(١) ربما كانت مارتا دوبريه قد سمعت خطط رينو.

(٢) إن لمارتا دوبريه مصلحة مباشرة في التسبب بموت رينو.

(٣) وقد كانت مارتا دوبريه ابنة السيدة بيرولدي الشهيرة التي كانت برأيي -أخلاقياً وفعلياً- قاتلة زوجها، رغم أن يد جورج كونو ربما كانت هي التي نفذت الضربة الفعلية.

(٤) كانت مارتا دوبريه الشخص الوحيد -بالإضافة إلى جاك رينو- الذي يُحتمل أن يكون لديه الخنجر الثالث.

توقف بوارو قليلاً وتنحنح ثم تابع: وبالطبع أدركتُ -عندما علمت بوجود الفتاة الأخرى، بيلا دوفين- أن من الممكن تماماً أن تكون بيلا هي التي قتلت رينو. ولكن ذلك الحل لم يَرُق لي، فكما قلتُ لك يا هيستنغز: إن خبيراً مثلي يحب ملاقاة عدوٍ جدير بمواهبه. ومع ذلك فإن على المرء أن يتقبل الجرائم كما يجدها، وليس كما يتمناها. لم يبدُ أن من المحتمل كثيراً أن تتجول بيلا دوفين حاملة بيدها سكيناً لفتح الأوراق قُدّمت هدية لها، ولكن ربما كانت لديها طوال الوقت بالطبع فكرةٌ ما حول الانتقام من جاك رينو. وعندما تقدمت واعترفت بارتكاب الجريمة بدا أن كل شيء قد انتهى. ومع ذلك... لم أكن مقتنعاً يا صديقي، لم أكن مقتنعاً.

عدتُ إلى استعراض القضية من جديد بتفصيلاتها، وخرجتُ بنفس النتيجة السابقة. فإن لم تكن القاتلة هي بيلا دوفين فإن الشخص الوحيد الآخر الذي يمكن أن يكون ارتكبها هو مارتا دوبريه، ولكن لم يكن لديّ أيّ دليل يدينها.

ثم أريتَني أنت تلك الرسالة التي أتتك من الآنسة دولتشي، ورأيتُ فرصةً أحُلُّ من خلالها هذه المسألة مرة وإلى الأبد. لقد سُرق الخنجر الأصلي من قبل دولتشي دوفين ورُمي في البحر باعتباره -كما ظنّتْ- يعود لأختها. ولكن ماذا لو صدف أنه لم يكن خنجر أختها، وكان الخنجر الذي أعطاه جاك لمارتا دوبريه...؟ عندها سيكون خنجر بيلا باقياً على حاله لديها! لم أقل لك كلمة من ذلك يا هيستنغز (فلم يكن الوقت وقت مغامرات رومانسية)، ولكنني بحثتُ عن الآنسة دولتشي وطلبتُ منها أن تبحث بين أغراض أختها. وتصور نشوتي عندما جاءتني (بناء على تعليماتي) تحت اسم الآنسة

روبنسن وهي تحمل معها الهدية القيّمة!

في هذه الأثناء كنتُ قد اتخذتُ خطوات هدفها إجبار الآنسة مارتا على الكشف عن نفسها؛ فبناء على تعليماتي طردت السيدة رينو ابنها، وأعلنت عن نيتها كتابة وصية في اليوم التالي تحرم فيها ابنها من التمتع بقرش من أموال أبيه. كانت تلك خطوة يائسة، ولكنها ضرورية، وكانت السيدة رينو مستعدة تماماً للمجازفة... مع أنها -للأسف- لم تفكر هي أيضاً بذكر تغييرها لغرفتها، وأظنها افترضت جدلاً أنني أعرف بذلك. وقد حدث كل شيء كما توقعت، فقد قامت مارتا دوبريه بمحاولة جريئة أخيرة للسيطرة على ملايين رينو... وفشلت!

قلت لبوارو: إن ما يحيرني تماماً هو كيف استطاعت دخول البيت دون أن نراها. تبدو تلك معجزة حقيقية؛ فقد تركناها خلفنا في فيلا مارغريت وذهبنا مباشرة إلى فيلا جينيفييف... ومع ذلك كانت قد سبقتنا إليها!

- آه، ولكننا لم نتركها خلفنا؛ فقد غادرت فيلا مارغريت من الباب الخلفي عندما كنا نتحدث مع أمها في الصالة. وفي هذه النقطة حاولت أن تمرر خدعتها على هيركيول بوارو!

- ولكن خيالها كان على النافذة، لقد رأيناه ونحن في الطريق.

- كلا، فعندما نظرنا كانت السيدة دوبريه قد وجدت من الوقت ما يجعلها تركض إلى الطابق العلوي وتأخذ مكان مارتا.

- السيدة دوبريه؟

- نعم. إحداهما كبيرة السن والأخرى شابة، إحداهما سمراء والأخرى شقراء، ولكن بالنسبة إلى ظل ينعكس على النافذة فإن الصورة الجانبية لوجهيهما واحدة تقريباً. وحتى أنا لم أشك في الأمر... ويا لبلاهتي! ظننتُ أن لدينا الكثير من الوقت، وأنها لن تحاول دخول الفيلا إلاّ بعد مرور وقت طويل. إن تلك الآنسة الجميلة مارتا ذات ذكاء بالغ.

- وكان هدفها قتل السيدة دوبريه؟

- نعم، وعندها ستتحول الثروة كلها إلى ابنها. ولكن كان ذلك سيُفسَّر على أنه انتحار يا صديقي! فعلى الأرض قرب جثة مارتا وجدتُ كمامة وزجاجة كلوروفورم صغيرة وإبرة تحتوي على جرعة قاتلة من المورفين. أفهمت؟ تبدأ بالكلوروفورم... وعندما تفقد الضحية وعيها تأتي وخزة الإبرة. وعند الصباح تكون رائحة الكلوروفورم قد تلاشت تماماً، وتكون الإبرة قد وقعت حيث سقطت من يد السيدة رينو. ماذا سيقول وقتها القاضي الطيب هوتيه؟ "يا للمرأة المسكينة! ألم أقل لكم إنني لن أستغرب إذا ما اختلّ عقلها؟ إنها إجمالاً قضية مأساوية جداً، قضية رينو!".

ولكن الأمور يا هيستنغز لم تمضِ كما خططت الآنسة مارتا. فبدايةً كانت السيدة رينو مستيقظة تنتظرها، وقد وقع صراع، ولكن السيدة رينو كانت ما تزال ضعيفة جداً. وبقيت فرصة أخيرة لمارتا دوبريه. لقد انتهت فكرة الانتحار، ولكن إذا ما استطاعت قتل السيدة رينو بيديها القويتين، وهربت عن طريق درج الحبال الحريرية ونحن

ما نزال نضرب على باب الغرفة البعيدة من الداخل ثم عادت إلى فيلا جينيفييف قبل أن نعود إلى هناك، فسيكون من الصعب أن نثبت عليها شيئاً. ولكنها خسرت ضربتها الأخيرة، وليس على يد هيركيول بوارو، بل على يد البهلوانة الصغيرة ذات القبضتين الفولاذيتين.

فكّرتُ في القضية كلها ثم قلت: متى بدأت تشك في مارتا دوبريه لأول مرة يا بوارو؟ عندما أخبرَتْنا بسماعها المشاجرة في الحديقة؟

ابتسم بوارو وقال: أتذكر يا صديقي عندما أتت بنا السيارة إلى ميرلينفيل أول مرة، والفتاة الجميلة التي رأيناها تقف عند البوابة؟ لقد سألتَني وقتها إن كنتُ قد لاحظتُ حورية شابة، وأجبتك أنني لم أرَ إلاّ فتاة ذات عينين قلقتين. بهذا الشكل فكّرتُ في مارتا دوبريه منذ البداية. الفتاة ذات العينين القلقتين! لماذا كانت قلقة؟ ليس على جاك رينو، لأنها لم تكن تعرف وقتها أنه كان في ميرلينفيل في الليلة السابقة.

- كيف حال جاك بالمناسبة؟

- أحسن بكثير. إنه ما يزال في فيلا مارغريت، ولكن السيدة دوبريه اختفت، والشرطة يبحثون عنها.

- أتظن أنها كانت مشتركة في الجريمة مع ابنتها؟

- لن نعرف ذلك أبداً؛ فهي امرأة تعرف كيف تحافظ على أسرارها، وأنا أشكُّ كثيراً في إمكانية عثور الشرطة قط عليها.

- وهل تم إبلاغ جاك رينو بالأمر؟

- ليس بعد.

- ستكون تلك صدمة شديدة له.

- هذا طبيعي. ومع ذلك... أتدري يا هيستنغز؟ لا أحسب أن قلبه قد تعلق بها جدياً أبداً. لقد نظرنا إلى بيلا دوفين حتى الآن باعتبارها الغاوية المؤقتة، ونظرنا إلى مارتا دوبريه على أنها الفتاة التي أحبها حقاً. ولكنني أظن أننا سنكون أقرب إلى الحقيقة لو أننا قلبنا المعادلة؛ فقد كانت مارتا دوبريه جميلة جداً، وقد جعلت شغلها الشاغل الإيقاع بجاك، ونجحت في ذلك. ولكن تذكّر تردده الغريب في إنهاء علاقته بالفتاة الأخرى، وانظر كيف كان مستعداً للذهاب إلى المقصلة ليجنّبها ذلك المصير. إن لدي فكرة صغيرة بأنه -عندما يعرف الحقيقة- سيرتعب ويثور، وسوف يتلاشى حبه الزائف.

- وماذا عن جيرو؟

- لقد أصابته نوبة عصبية، وقد ألزموه بالعودة إلى باريس!

ابتسمنا كلانا.

وقد ثبت أن لبوارو بصيرة نافذة. فعندما أعلن الطبيب أخيراً أن جاك رينو قد أصبح قوياً بما يكفي لسماع الحقيقة كان بوارو هو الذي أخبره بها. وقد كانت الصدمة رهيبة بالفعل، ومع ذلك فقد أظهر جاك من رباطة الجأش ما لم أكن أتصور صدوره منه. وقد ساعده حب أمه على تجاوز تلك الأيام الصعبة، وغدت الأم وابنها الآن رفيقين لا ينفصلان.

ولكن كان على الطريق كشف آخر، فقد أطلع بوارو السيدة

رينو على حقيقة معرفته بسرها، ونصحها بألاّ تترك ابنها جاهلاً بماضي أبيه قائلاً: لا فائدة في إخفاء الحقيقة يا سيدتي؛ كوني شجاعة وأخبريه بكل شيء.

وبقلب مُثقل وافقت السيدة رينو، وعلم ابنها أن الأب الذي أحبه كان في الحقيقة هارباً من وجه العدالة. وقد قام بوارو بالإجابة عن سؤال تردد الابن في طرحه: اطمئن يا سيد جاك؛ فالعالم لا يعرف شيئاً. وبقدر ما أرى فليس عليّ التزام يقضي بأن أفضي للشرطة بما أعرفه؛ فطوال هذه القضية لم أكن أعمل لصالح الشرطة بل لصالح أبيك. وقد أدركتْه العدالة أخيراً، ولكن لا حاجة لأن يعلم أحد بأن بول رينو وجورج كونو كانا شخصاً واحداً.

بقيت في القضية عدة نقاط محيّرةً للشرطة، ولكن بوارو شرح الأمور بأسلوب مقنع جداً بحيث أسكت كل تساؤل يخص تلك النقاط.

وبعد أن عدنا إلى لندن بوقت قصير لاحظتُ وجود تمثال ضخم لكلب صيد يزين رف الموقد عند بوارو. وجواباً على نظرة تساؤل مني أومأ بوارو برأسه وقال: نعم، لقد حصلتُ من جيرو على الخمسمئة فرنك. أليس هذا التمثال رائعاً؟ إنني أسميه جيرو!

بعد بضعة أيام جاء جاك رينو لرؤيتنا وعلى وجهه سيماء التصميم وقال: سيد بوارو، لقد جئتُ لتوديعكما. سوف أبحر إلى أمريكا الجنوبية قريباً جداً؛ فقد كانت لوالدي مصالح كبيرة في تلك القارة، وأنا أنوي بدء حياة جديدة هناك.

- أستذهب وحيداً يا سيد جاك؟

- ستأتي أمي معي... وسوف أُبقي ستونور سكرتيراً لي؛ فهو يحب المناطق البعيدة في هذا العالم.

- ألن يذهب معك أحد آخر؟

احمرّ وجه جاك وقال: من تعني...؟

- أعني فتاة أحبتك كثيراً... وكانت مستعدة لبذل حياتها من أجلك.

تمتم الفتى: كيف لي أن أطلب منها ذلك؟ بعد كل ما حدث، هل أستطيع الذهاب إليها و... آه، أي قصة عرجاء أقول لها؟

- إن لدى النساء موهبة رائعة في تصنيع عكاكيز لمثل هذه القصص.

- نعم، ولكن... لقد كنتُ مغفلاً إلى أبعد الحدود.

قال بوارو مُتفلسفاً: وهكذا كنا جميعاً من وقتٍ لآخر.

ولكن وجه جاك تصلب وقال: وشيء آخر، فأنا ابنُ أبي. هل من شأن فتاة أن تتزوجني وهي تعرف من أنا.

- أنت تقول إنك ابن أبيك، وسوف ينبئك هيستنغز بأنني أؤمن بالوراثة...

- حسناً إذن...

- انتظر. إنني أعرف امرأة، امرأة ذات شجاعة وتحمل، وهي قادرة على الحب العظيم، وعلى التضحية الفائقة بالذات...

رفع الفتى بصره وقد رقّت عيناه وقال: أمي!

- نعم؛ أنت ابن أمك بقدر ما أنت ابن أبيك. اذهب إذن إلى الآنسة بيلا. قل لها كل شيء، لا تترك في صدرك شيئاً... وانظر ماذا ستقول!

بدا جاك متردداً، فقال بوارو: اذهب إليها كرجل لم يعد فتى... كرجل أحنى ظهره قدرُ الماضي وقدر الحاضر، ولكنه يتطلع إلى حياة جديدة رائعة. اطلب منها أن تشاركك تلك الحياة. ربما لا تدرك أنت ذلك، ولكن الحب الذي يجمعكما قد تم اختباره في أقسى الظروف ولم يظهر فيه نقص. لقد كان كلٌّ منكما -أنتما الاثنين- مستعداً للتضحية بنفسه من أجل صاحبه.

* * *

وماذا عن الكابتن آرثر هيستنغز، الراوي المتواضع لهذه الصفحات؟

يوجد حديث عن انضمامه إلى عائلة رينو في مزرعة فيما وراء البحار، ولكن فيما يتعلق بنهاية هذه القصة فإنني أفضل العودة إلى أحد الصباحات في حديقة فيلا جينيفييف.

قلتُ: لا أستطيع أن أسميك بيلا، طالما أن هذا ليس اسمك. واسم دولتشي يبدو غير مألوف البتة؛ ولذلك فلا بد أن أسميك سندريلا. ولعلك تتذكرين أن سندريلا قد تزوجت الأمير. وأنا لستُ أميراً، ولكن...

قاطعتني قائلة: أنا واثقة من أن سندريلا قد حذرته. إنها لم تستطع أن تعده بأن تنقلب إلى أميرة؛ فهي لم تكن -في نهاية الأمر- سوى خادمة صغيرة.

قلت لها: جاء دور الأمير في المقاطعة. هل تعلمين ماذا قال؟

- لا؟

- لقد قال الأمير: «تباً!»، ثم قبّلها!

وما لبثت أن أتبعت القولَ بالفعل.

* * *